الكتاب: حليف مخزوم (عمار بن ياسر)
المؤلف: صدر الدين شرف الدين
الجزء:
الوفاة: ١٣٨٩
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة: الثانية
سنة الطبع: ١٤١٢
المطبعة:
الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت
ردمك:
ملاحظات:

عمار بن ياسر
حليف مخزوم

(١)

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤١٢ ه - ١٩٩٢ م
دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

عمار بن ياسر
حليف مخزوم
صدر الدين شرف الدين
دار الأضواء

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤)

كلمة الناشر

هذا كتاب يتحدث عن مسلم صادق في إسلامه، هو عمار بن ياسر، يكتب عنه السيد صدر الدين شرف الدين نابغة عصره، إلا أن إرادة الله لم تعطه عمرا يغني به المكتبة الإسلامية بقلمه السيال وفكره الدقيق من تأريخ الإسلام والمسلمين.

وقد وجدت هذا المطبوع يستحق التصحيح والضبط والصف جديدا، فإنه يعطي صورة عن صلابة المسلمين الأوائل رفع الله درجاتهم وسيبقى هؤلاء خالدين خلود الزمن.

وأمثال عمار بن ياسر هم قدوة صالحة للمجاهدين في سبيل الله في كل زمان ومكان، وخاصة في عصرنا الحاضر حيث يعيش المسلمون مؤامرات الكافرين.

وقد بدأنا العمل به لإخراجه في هذه الحلة القشيبة والمنسقة ونحمد المولى أن وفقنا لإتمامه وندعوه أن يمن علينا بإخراج أمثال هذا الكتاب مما يغني المكتبة الإسلامية مستقبلا.

والله ولي التوفيق

١٥ شعبان ١٤١٢ ه

جعفر الدجيلي

التاريخ
نحن الآن في حاضر يأخذ برقبته ماض قديم، ويشد على خناقه بقبضة قاسية، يضاعف من قسوتها أنها تمتد إلى عنقه في ظلام يكثفه ليل الاستعمار.
ولكي نحرره من قسوتها المضاعفة، يجب أن نستجلي الماضي استجلاء متصلا متسلسلا، وندرسه على أنه حكايتنا البشرية المكافحة في هذا الكون.
بهذا نفيد من الماضي إخضاع تجاربه للارتقاء، لا لإمتاع الأذواق، وإرضاء العواطف، واستثارة الاعجاب.
صدر الدين شرف الدين
٢٠ آب ١٩٥٤
* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (١).

---

(١) سورة القصص، الآيتان (٥ و ٦).

اللهم
سيختلف القول، وتتعدد النظرة لإهدائي إليك هذا الكتاب يا رب، وفي قول الناس ونظرتهم إلى الأشياء مواضع من الظلم، ومواضع من الإنصاف، ولكنك لم تعلمني أن أجعلها جميعا من همي، ما دام قول ضميري قاصدا معتدلا، عنده من العلم بحقيقتي المستمدة منك ما يصحح قصده واعتداله.

ويا ليت ما بيني وبينك عامر *
وبيني وبين العالمين خراب

صدر الدين شرف الدين
١ تموز ١٩٥٤

صدر الدين
بقلم: أبيه حجة الإسلام
السيد عبد الحسين شرف الدين

إذا كان الحديث على صعيد الحق، فلن أعاب بشهادة أدلي بها إلى الناس في فضل ولد من أولادي وقفت منه على فضل لو رأيته - شهد الله - لعدو من أعدائي لما تمالكت دون الاعجاب به، ولما ملكت إلا إعلان ما أعجبني منه.

وقد قرأت ولدي صدر الدين فيما يقدمه من قصة عمار بن ياسر، أو قصة الإسلام في هذا الكتاب، وقرأته مئات المرات قبل ذلك. ومن مارس كاتبا وكرر قراءته ووقف من حبه والإعجاب به عند حد، فإني أشهد أنني مارست صدر الدين وكررت قراءته ولم يقف حبي له وإعجابي به عند حد، بل كنت - باطراد - أجده ناميا صاعدا كل سطر منه يفتح علي حبا جديدا، ويأخذني منه بإعجاب جديد شديد، بما ينشئ من آفاق ويولد من أبكار.

ولا أحب أن أطلق هذه الشهادة إطلاقا، وأرسلها من غير تحديد ولا كشف عما أخذني منه كما أخذ غيري فيما أقدر. أخذني منه في جانب الفكرة عمقه، وبعد غوره وعدم اكتفائه بالميسور مما يعرض للأذهان التي تؤثر العافية على التعب،

وتقدم الظاهر السهل من الأمور على بواطنها الصعبة، تعرض له معان مما يعالج فيطرح المنحرف منها، والساذج، والسطحي، ويبسط المستقيم الغني العميق، ويطلع به جديدا من هذا الجديد الذي تعرفه وتعجب لنفسك أنك لم تعرفه قبل أن يعرفك هو به.

ثم أخذني منه في جانب الصورة وضوحه، وعذوبته، وتسلسله وشمول استيعابه في صفاء ديباجة، وجلاء عبارة، ورقة حاشية، وإشراق عرض، فما يكاد يتناول أخفى الأفكار، وأشق المسائل حتى يسيلها رقراقة ويدير منها على قرائه كؤوسا لذة للشاربين، فما أدري والله أيهما أطوع له: الفكر، أو اللفظ، ولكني لا أشك أنهما جميعا طيعان له، ما رأيتهما جمحا عليه مرة قط، وإني أعرف أن المواءمة بين اللفظة ومعناها أصعب من قلع الضرس على يد حلاق قديم.

ولا يقف إعجابي به عند هذا الحد الأدبي، فأنا أعلم – لو لم أعرف ولم أبل أخلاقه – أن هذا الصفاء في تفكيره وتعبيره مع جموحه على المبتذل منهما، أمر يتصل أوثق اتصال بنفسه وخلقه، وأنا أعلم أن أثر أديب ما، إنما هو صورة لنفسه وخلقه، فلو لم يكن الصفاء والجموح على الابتذال من شمائله لما وجدناهما في أدبه.

وأكاد أكون فخورا بأدبه من حيث يدل على نفسه أكثر مما يدل على فنه، وأوضح ما يدل عليه منه الصفاء والاعتدال

والصلابة والإنصاف، وصدق الإيمان، وحرارة الحياة، وهي صفات لو لم يثبتها جهاده السياسي والاجتماعي، لأثبتتها آثاره المتفجرة صفاء واعتدالا وصلابة وإنصافا وصدق إيمان وحرارة حياة.
يتناول موضوعا كتب فيه عشرات قبله، ويتناول موضوعا تناوله عشرات بعده، وتقرأه وتقرأ غيره، فتجده ينبض من ذاته الغنية السمحة في هذا الموضوع الذي حاوله غيره معاني تمتاز به.. بعمقه وصفائه، واعتداله وصلابته وبصدق إيمانه وحرارة حياته، وبجموحه على الابتذال: كل ابتذال، فلو عاشرته دهرا لم تسمع له شيئا ثم قرأت بعد دهر أثرا من آثاره بعيدا عنه وجدت بآثاره نفسه وإن تلفت فلم تجد توقيعه.
صدر الدين صحاب مدرسة، ولعلها في طليعة المدارس الأدبية الحرة المعاصرة. وإذا لقي بسبب صلابته عنتا من اضطهاد وحرمان وأكاد أقول وعقوق، فإنه في أمة من معناه وتصونه وأدبه، لا يضره في حقه من تحيف عليه وإنما يضر المتحيف نفسه، ثم أريد أن أعترف أن صدر الدين أبقى ما انحسرت عنه الثمانون من عمري. فهو كنز من قيم شتى كل قيمة منها ترجع بصاحبها على أمثالها في علم ودين ومروءة ونجدة ونضال وفن، فإن كان لي أن أتمنى على الله فأرجوه – عز اسمه – أن يثيب شيخوختي بتوفيق ولدي هذا لإتمام أشواطه صاعدة بعزائمه الإيمانية التي لا تحتاج الأمة شيئا كما تحتاج إليه، والله ولي التوفيق.

وماذا أقول في عمار موضوع هذا الكتاب غير أن أحولك بالقول فيه على ما ستقرأه بقلم صدر الدين، وحسب القول أن يرسمه هذا القلم الرسالي الباعث. نعم أنا أشدد على القول: إن الأمة في مرحلتها الحاضرة لفي أشد الحاجة إلى الانتفاع بهذه الموضوعات التي يبعثها قلم در الدين من الحياة مجندا قلمه لخير المجموع.

ومرة ثانية: أسأل الله تعالى أن يثيب شيخوختي بإرهافها شابة تجدد خدمة الله والأمة، بخدمة صدر الدين لله والأمة.

وما التوفيق إلا من عند الله، (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) (١).

عبد الحسين شرف الدين الموسوي

صور ١ ذي القعدة ١٣٧٣

---

(١) سورة يونس، الآية ١٠.

علامة الهدى
قد تعجب لكهل انصرف من عقده الرابع أو كاد، يسلط عليه من حز الحديد، ومن لفح النار، ومن ضغط الماء، عذاب نكر، فلا يستخذي للعذاب، ولا يحفل به، ولا يباليه بل يقبل عليه مرة بعد مرة في مرات كثيرة، مطمئنا له راضيا به، لكأن أطراف الأسنة، وألسنة النار، وضغط الماء أشياء من دغدغات حبيب تثير الرضا لا السخط، وتدعو إلى الاغتباط لا إلى الحزن وتحيي الرجاء لا اليأس.
وقد تعجب لشيخ ينصرف من عقده العاشر أو يكاد، يسلط هو على عدوه من سيفه نارا تشبهها النار، ومن عزمه حديدا أصلب من الحديد، ومن اندفاعه سيلا أعنف من السيل.
وقد يبطل عجبك من هذا وذاك، حين تعلم أن هذا الشيخ الفتى المستطيل، إنما هو ذلك الكهل الشاب المضطهد نفسه، وأن هذا الإنسان الراسخ في حاليه لم يستقبل الفتنة المنكرة كهلا، ولم ينزل فيها العذاب الشديد الغليظ عن بدنه، إلا من أجل عقيدة كانت ما تزال طرية الغرس في نفسه، وأنه لم يمتشق في شيخوخته سيفه العاصف المتأجج المرهوب

المحبوب إلا من تلك العقيدة، وقد توطنت في نفسه وامتدت واستمكنت، فإذا هي روحه الذي يتنفس ودمه الذي يجري.
وماذا تنتظر من شيخ تتيم كهولته عقيدة نيرة وتبصره على العذاب الشديد الغليظ فيها، وهي طرية الغرس لما تنشر عروقها في أنسجته وشرايينه، غير أن تنتضيه ذلك السيف العاصف، وقد هبطت جذورها إلى أخمصيه واشتبكت خيوطها في مشاشه، وفشت منه في كل غدة وفي كل حجيرة، حتى استحال دمه كله إيمانا وإخلاصا وحقا من الحق الصريح.
لم يكن الكهل الشاب يتلقى حز الحديد، ولفح النار، وضغط الماء، بلحمه ودمه، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه، فإذا لقي جلده: هذا الثوب من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحا، فقد كانت نفسه: تلك الروح، تجد من التضحية لذة وترويحا.
ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه، فليس هو - في واقعه - جارحة تكل، ولا سيفا يمل، ولا ضربة تنبو، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها انصباب النور على الظلام يمزقه تمزيقا ويمحوه محوا.
فأي عجب بعد هذا في أن يصبر كهل على فتنة، أو يثبت على امتحان، مهما غلا هذا أو تلك في قسوة، أو بالغا فيها؟
وأي عجب بعده في أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين

لها الحق ووضح لها الطريق؟. وما حاجة الشيخ والكهل معا إلى أجسام الشباب، وعضلات الأحداث مما ننتظره لصبر ممتحن أو إقدام مقدام؟ وما الفتوة؟ هل هي سن؟ وميعة صبا؟ هل هي مرحلة معينة من مراحل العمر؟ الواقع أنها ليست كذلك. وإنما هي إيمان يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه، هي حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيوخ كما تلبس إهاب الشبان الأحداث، فتنشئ في هؤلاء وهؤلاء ما ينشئ الشباب الجلد القوي الصبور، وتحرك منه في هؤلاء وهؤلاء ما يحركه من عزم ونشاط ونفاذ وحيوية وتوقد ومضاء، وكم يافع منطفئ الجذور كليل الحد تسقطه القوة من حسابها وإن أعجبك منظره، وكم معمر متوهج الجمرة مشبوب الهمة تحتضنه الفتوة الأصيلة وإن نبأ في العين مظهره.

وكانت الفتوة تزيد في صاحبنا على نفسها في غيره زيادة مضاعفة. كان لا يشك هو، ولا يشك معه عدوه ولا صديقه، في أن لسيفه ميزة، فإذا أهدت السيوف إلى خصومها ضربا واحدا من الموت، فإن سيفه يهدي إلى خصمه وخصم صديقه ضربين: أيسرهما فناء الجسد، وأشقهما لعنة الأبد. ثم كانت تضاعف فتوته ميزة أخرى لنفسه كميزة سيفه. كان يعلم هو، وعدوه وصديقه لا يجهلان أنه مع الحق سلم أو قتل، وأن خصمه مع الباطل انتصر أو خذل، وأية حماسة أدعى للفتوة من حماسة إيمان تهدي إلى عدوها موتين أحدهما أخزى من الآخر، وتدخر لصديقها حياتين أخراهما أبقى من الأولى؟.

كهولة حرة برت بكرت بكهلها على الإسلام. قدمته أحد سبعة سابقين أولين، فنهض بأجسم أعباء الرسالة وأشقها نهوض جهاد متصل وتضحية صابرة، وكفاح مر.

وشيخوخة لم تقصر عن كهولتها حرية ولا براء قدمت صاحبها طليعة وفاء لروح الإسلام فكان من الآحاد الأول الناهضين بأعباء الرسالة نهوض جهاد متصل، وتضحية صابرة وكفاح مر، فما التقت جبهتا صراع إلا كان (علامة هدى) في أهداهما سبيلا، وأعدلهما قضية.

كان في عهد النبي راية للمؤمنين لم يتفقدها الرسول في محنة قط إلا وجدها رفافة تقتحم الهول على (الشرك) عنيفة به، صامدة لعنفه.

ثم ظل بعد النبي راية للمؤمنين لم يتفقدها روح الرسول في محنه قط إلا وجدها هناك رفافة تقتحم الهول على (الردة) عنيفة بها صامدة لعنفها.

قال المحدث: هذا كله جعل من (عمار) بن ياسر (علامة هدى) يموت من يموت إلى جنبه موقنا أنه غاد إلى الجنة، ويهلك من يهلك إلى جنب عدوه موقنا أنه رائح إلى النار.

وكان (عمار) يقول عن النبي: " ثلاث خلال من جمعهن جمع الإيمان كله: الإنفاق من الأقتار والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم ". وكان - ما عاش - هذه الخلال الكريمة

نفسها، فما رأيناه بشرا من البشر، ولكن رأيناه الإيمان بخلاله الثلاث هذه يتحرك بين الناس عطاء وإنصافا وسلاما. هو العطاء والإنصاف والسلام محاربا كان أو مسالما.

* * *

حليف مخزوم
أسمر اللون عجنت طينته بمسك، مديد القامة ولد من عائلة الرماح، بعيد ما بين منكبيه صيغ تجسيدا للمهابة، أشهل أصلع، (في مقدم رأسه شعرات وفي قفاه شعرات)، كما قال معاصره القصاص ذو الإداوة.
طويل الصمت كأنما تحدثه الملائكة، سديد الرأي لا يخدع عن الصواب، راجح العقل (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما). كما تروي عائشة.
زكي النفس، سخي اليد، هباب للحق جرئ به، لا يلوي فيه ولا يصرف عنه
ولد في حي بني مخزوم من (مكة) سنة ٥٧٠ م أو نحوها، فقد كان تربا للنبي - كما يقول هو - لم يكن أحد أقرب إلى النبي سنا منه.
أما أمه (فسمية) بنت خياط، وكانت أمة لأبي حذيفة زعيم بني مخزوم، ولم تكن في إماء قريش حرة مثلها في ذكاء

القلب، وصحة العقل وملاحة الوجه، وعفة النفس وطهارة الذيل.

وأما أبوه، فياسر بن عامر، عربي عنسي مذحجي قحطاني يماني، أقبل من اليمن مع أخويه: مالك والحارث، يلتمسون أخا رابعا لهم كان قذف به قدر من أقدار الحياة الكثيرة المصطلحة يومذاك على اليمن تفرق أهلها، وتبعثرهم هنا وهناك، وتنفرهم من وطنهم الذي ألح عليه الجفاف، وابتلاه فساد الحكم بالقحط والمحل والبطالة ونضوب العيش، فيهاجرون منه أفرادا ويهاجرون منه جماعات بحثا عن الرزق، وتنقيبا عن العمل.

وكانت مكة مهجرا تترى إليه الوفود اليمانية منذ تفرقوا على أيدي سبأ. أمتها جرهم الثانية وأمتها خزاعة، وحكمتاها واحدة بعد الأخرى غالبتين على حكمها أهلها من بني إسماعيل، حتى استعادها (قصي) بن كلاب (٤٠٠ م)، واستأنفها مضرية. وأم غير جرهم وخزاعة غير مكة من الحجاز فعمرت يثرب بالأوس والخزرج، وأم غير هؤلاء وأولئك غير الحجاز من العراق والشام واليمامة ونجد والعروض منتشرين كالجراد يملأون فراغ الجزيرة العظيمة، ويزودون هلالها الخصيب بما حملوه من كثافة، وما نقلوه من ثقافة وأوضاع.

وكانت مكة تمتاز على جميع هذه المهاجر بأنها دار أمن لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه، وبأنها دار رخاء لا

يدنو إليه الجوع من فوقه ولا من تحته، ففيها بيت الله، وعليها سدنته الأسماح المطيبون يبذلون لضيوفها الرفد والكرامة من أنفسهم، ويبسطون العدل في القضاء من حكومتهم، فهم آمنون وادعون كافلون للأمن والدعة، لا يروعون ولا يروعون.

فلما يئس الإخوان الثلاثة من العثور على فقيدهم في مكة، انحسر عنها مالك والحارث، واستقر فيها (ياسر) حليفا لمضيفه أبي حذيفة سيد مخزوم، يحفظه هذا، ويحفظ هو لهذا يده عنده، ويثيب إحسانه إليه وامتناعه به، بالوفاء له أكرم الوفاء وأصفاه وأخلصه. وكان أبو حذيفة كأخيه (هشام) من قبل، وكأخيه (الوليد) من بعد، زعيما سمحا كريما رضيا حافظا للمعروف مثيبا عليه، وكان حدبا على حليفه العنسي بوجه خاص، رؤوفا به رحيما، يؤثره بحب يضيفه إلى ما أخذ به نفسه من حلفه، وربما أضاف إلى هذا وذاك شيئا من احترامه لهذا العنسي الغريب الذي اضطرته الأقدار إلى الاعتصام بغير داره، ورمته إلى دار يطلب فيها الحماية من غير أهله، وعسى أن يكون، بل هو قد كان، ذا دار منيعة عزيزة، وذا أهل كرام أشداء، من أجل هذا حالفه أبو حذيفة، ثم أحبه، ثم احترمه، ولم يخيب ياسر ظن حليفه، فوفى له، ثم تصرف بوفائه وضعف اللاجئ، وبين كرامة النفس واستقلال الرأي. فكان من سلامة سلوكه ومن صفاء معدن حليفه معا أن عرف بعد ذلك مخزوميا له ما للمخزوميين، وعليه ما عليهم. يطوف

بأندية (قريش) ما يطوف حبيبا أثيرا محترما، لا يثقل علي أحد بتكليف، ولا يستثقل أحد له ظلا.

وفي ذات يوم فكر أبو حذيفة بحليفه العنسي، فرآه مستقيما لا تطيف به نزوات الرجال، ورأى أنه رجل لا بد لبيته من مرأة، ورأى أن الحياء والإقلال يحولان بينه وبين ما يطمح إليه كل رجل من زوج تدبر له المنزل، وتكشف عنه وحشة الوحدة، وترزقه خير الأولاد، فزوجها (سمية) بنت خياط أحب إمائه إليه وأحظاهن عنده وأكرم الإماء جوهرا في ذاتها وطهارتها. ثم كان من بره بحليفه وتقديره الدقيق لمشاعره الحرة تحرير أبنائه من (سمية). لم يسأله ياسر ذلك ولكنه هو أحس ما بنفس ياسر، فرفع عنه – بأريحية – صناعة إنتاج العبيد والإماء، وكان أفضل (نقوط) عند ياسر حرية بطن سمية التي وقع منها على كنز أي كنز.

* * *

أوضاع مكة

درج الصبي عمار، ناضج الصبا، خامر الطفولة، يثب إلى النمو وثبا، ويسبق الزمن إلى اكتمال الرجولة واستيفاء الذكاء جميعا، وكأن ما بنفسه من طموح أعانه على القفز، وألغى عنه ما يفرض على غيره من حكم الزمن وانتظار إذنه في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن دور إلى دور، ومن هيئة إلى هيئة.

وشب الصبي الكبير، فهو الآن يقرب من العشرين إن لم يكن بلغها بعد، ذو هدي ووقار وبر بوالديه، ورفق بعشرائه. يعفي الناس من شره، ويعفيه الناس من شرورهم، فهو صامت غاديا وصامت رائحا، ذاهب في الجو من غدوه، ورواحه مطرقا يرفع نفسه عما يدنس غيره من سادة مكة وعبيدها، وبيضها وأحابيشها، ممن أبطرهم الغنى وأفسدهم الرخاء، ومال بهم الطيش إلى سفه ومجون وتشدق ووقوع في أقوات الناس وأعراضهم.

وحسب الذين تعودوا صمت (عمار) أنه صمت الغريب المستضعف يسبغه ويضيفه، فيحس إسباغه وإضفاءه أدبا في

نفسه ووداعة في طبعه، ولينا في مزاجه، وانصرافا عما لا يعنيه. أما الذين عاشروه حق المعاشرة، وبلوا دخائله حق البلاء، فكانوا يعلمون أن لصمته مصدرا آخر أعمق من هذه المصادر كلها، وإن كانت هذه لمصادر حق تؤثر فيه الصمت وتطبعه عليه. أما المصدر الخطير فكان تفكيرا ملحا من تفكير حنيف - كما كانوا يقولون - أو وعي حر - كما تعودنا أن نقول اليوم - من وعي الأحرار المفكرين، وكان الوعي في عهده متململا يبرق إلى الواعين، ويخامرهم، ويؤامرهم، ويحثهم حثا عنيفا على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة، وبهذه العادات الرثة وبهذه الأنظمة البالية، ولكنهم كانوا يخشون الجهر، ويخافون الظهور، ولا سيما مستضعف كعمار، أكبر حجته في بقائه بمكة حلف أبيه لأبي حذيفة، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم، فما أحراه إذا يتخلى عنه أبو حذيفة أن يمزقه السياط، أو تتقاذفه الغلمان، أو تتخطفه الشياطين، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر، موادعا سادة قريش موادعة أحلافهم وعبيدهم منتظرا مع هذا وذاك رجفة الزلزال التي يحسها في نفسه، ويحسها في نظرائه، ويحسها في سير الأحداث.

وكان خلال صمته ينتقد بينه وبين نفسه، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة في عهده، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم، فارتدوا جبابرة يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفا، ويعيدوا بشاشة

الحياة عبوسا، ويردوا رخاء العيش شدة، فهؤلاء سفهاء من أمية وجمح وسهم وعدي لا تكفيهم أفياؤهم ومرابحهم، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهن الشيطان من نساء الحاضرة، حتى يسطوا بتجارة الغرباء، ويغلبوا الزائرين على بناتهم، فيبلغوا حاجتهم من الأموال والأعراض بغزو أبشع من غزو البادية، وأشنع وأشد استهتارا.

قال لأبيه مرة: ويح هؤلاء السفهاء ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة في قدس بلدهم الذي به يحيون، إن لم يتقوها في زكاة أنفسهم، وتقوى ضمائرهم؟ ألا ينظرون إذا تسامع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصرفي التجارة، أن يخلعوهم من (البيت) ويزيلوهم من الحكم؟ أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا إلى خلعهم وإزالتهم سبيلا، فيميتوهم فقرا ومذلة وهوانا؟ ما رأيت طيشا كطيش هؤلاء السفهاء! ولا يرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلة العيش بله عفة النفس وراحة الضمير!

فقال له ياسر: أراك منذ اليوم تكبر على سنك، وتسمو فوق شأنك، أتسوق إلي هذا الحديث من نفسك؟ أم ألقى به إليك ملق أراد بك شرا؟.

قال عمار: لم يلق إلي بهذا الحديث إلا عيني المبصرة، وأذني السامعة نقلتاه إلى نفسي، ثم لم تنقله نفسي إلى أحد قبلك، ولم تنقله إليك إلا هذه الساعة، وإن كنت لأعلم أن نفرا من الصعاليك أمثالي ليئنون أنيني، ويشكون شكواي،

أترى تقر أعين الناس وتطيب نفوسهم بما تنكر الأعين والأنفس، من استرقاق الرقيق، واستضعاف الضعيف وامتصاص الجهود باسم آلهة هي أشد رقا من الرقيق، وأعظم ضعفا من الضعفاء؟.

فقال له أبوه: قد أعلم ما تعلم يا بني، وأوقن بما توقن، وأزيد فأسمي لك نفرا من العبيد والأحلاف وبعض أبناء البيوت يشوكهم ما يشوكك، ولكن أكتم هذا في نفسك ولا تجاوزه إلى أحد ممن في هذا الوادي. إن يذع عنك هذا النقد يثر عليك وعلي شرا لا تقدر على دفعه، ولا تقوى على تحمله، وتعلم يا بني أن لهذا (البيت) ربا يحميه، ويكشف عنه كل ضر، أنت لم تكن يوم الفيل، فقد كنت رضيعا، وكنت أنا وشهدت يومه فيمن شهده، ورأيت كما رأى الناس عجبا.

رأيت سيد قريش: عبد المطلب بن هاشم، يأمر أهل مكة أن يخلوا بين (أبرهة) الحبشي وبين (البيت) ولم يكن له ولا لقريش قبل بلقاء جيشه الجرار المنظم، ورأيته مطمئنا يذيع الطمأنينة في أهل مكة ويعدهم النصر دون قتال، وكنت يائسا – ولا أكتمك – من مكة مع اليائسين، شاكا بوعد عبد المطلب مع الشاكين، ولكني رأيت بأم عيني هذه جيش (أبرهة) ممزقا شر تمزيق، منكلا به شر تنكيل، فما كاد يوعز الحبشي إلى جيشه بالهجوم حتى غام الجو واضطرب، وأخذه مخاض شديد، ثم أقبلت من مجاهله سحب من طير غار تحمل في مناقيرها وأرجلها حصى صغارا ثم ترمي الجيش المعتدي من

حصاها بوباء، فلا ترمي إحداهن الحصاة الصغيرة على رجل إلا خرقته، ونشرت فيه داءين من حصبة وجدري وما هي غير ساعة حتى انكشف العدو مقطعا، وانتصر (البيت) موفورا، وجلت الطير مشكورة، ونزلت السماء تغسل بقايا الوباء ومنذ ذلك اليوم تعلمت أشياء نافعة كثيرة، تعلمت الإيمان برب البيت الذي يعبد عبد المطلب، لا بهؤلاء الأرباب الذين تعبدهم عامة قريش، وتعلمت أن إيمان المؤمن المستضعف أقوى من قوة الظالم المتعجرف، وتعلمت أن لا أزيد بانتصاري للحق على طاقتي، ولا أعدو فيه طوري، نازلا عن قيادته لأصحاب القيادة وأكفائها، كما نزل عبد المطلب لربه عن حماية (البيت) فيما أعجزه من حمايته. دع هذا الأمر – يا بني – لأصحابه، فأنت بالقياس إلى هؤلاء السفهاء أضعف من عبد المطلب بالقياس إلى جيش أبرهة، وبنو عبد المطلب في حرصهم على قداسة (البيت) وأمن بلدهم، وفي قدرتهم على الأخذ بأعراف هؤلاء السفهاء حيث لا تقاس إلا بأحد غلمانهم، فدع لهم أو لواحد منهم أن يتحدث بهذا الأمر، ويفشيه بين الناس فإنه إن يفعل لا يجد أحد في مكة إليه سبيلا، وعساه إن فعل أن يبلغ من تأديب هؤلاء السفهاء ما يرضيك ويرضيني ويرضيه، وسواء أبلغ من تأديبهم الحاجة أم لم يبلغها، فهو من حاليه في حصن من الأذى، وفي قمة طاعة الناس لأمره، أو إصغائهم إلى قوله، أما نحن – يا بني – فليس لنا من الأمر غير الرضوخ والصبر، فإن أبينا سلخوا جلودنا كما

تسلخ الشياه، ثم لا ينتطح في محنتنا عنزان وليتنا إذ نسلخ نبلغ الحاجة من تعميم الخير، وإفشاء العدل إذن يكون ثمنا مغريا، ولكننا لن نجد إذ نحدث الناس بهذه الأمور غير الاستخفاف والسخرية، ولن نجد إذ نضحي غير اللوم والتقريع من جزاء. ألا تعلم يا بني أن التحدث بأمور العامة في نظام كنظامنا الحاضر وقف على الأقوياء من السادة والقادة والأشراف والنبلاء وأنه محرم علينا نحن الضعفاء من الأرقاء والحلفاء والصعاليك والدهماء. وآخر ما أوصيك به أمران: أن تؤمن برب هذا (البيت) إله عبد المطلب لا آلهة قومه. وأن تثق بهؤلاء النفر من هاشم فهم – فيما رأيت وبلوت أصحاب الخير في هذا الوادي، وعسى أن يكون لهم شأن في شكايتك هذه هم بالغوه في هذه الأيام. بهذا تحدثني نفسي حديثا أستيقنه جملة، وأجهله تفصيلا، وما أدري ما يأخذني من تربك: (الصادق الأمين) كلما رأيته. إن له طلعة لمحتها تضمن بشرا عاما وخصبة، وقد كان جده عبد المطلب يتوسم به أعظم الخير، وينتظر أن يكون له شأن من شؤون السماء.

قال عمار لأبيه: لست أعدو لك رأيا، ولا أخالف لك أمرا ولكني رأيتك تخضع الهاشميين إلى إله غير آلهة قريش، فما هو هذا الإله؟ وما مكانه؟ وماذا عساه أن يكون؟ ولماذا لا يظهرونه كما يظهر الآخرون آلهتهم؟.

قال ياسر لابنه: أنا لا أعرف إله الهاشميين معرفة كاملة، ولكني أدرت فيهم وفي قومهم ما يمكن أن أدير من عقلي،

فوجدت لهؤلاء رأيا جميلا في الله، ورأيا جميلا في الحياة ليس لقومهم مثلهما. وليس إله عبد المطلب إلها مصنوعا لا ينصر إلا أن ينصر، ولا يعطي إلا أن يعطى، بل هو إله صانع ينصر ولا يستنصر، ويعطي ولا يستعطي، ألم تر إلى ما حدثتك به من أمر (أبرهة) وجيشه؟ ألم تر إلى تلك الطير الضئيلة التي لا نعرف مثلها في النسور، وإلى حصواتها الصغار التي لا نعرف مثلها في الصخور، كيف أهلكت جيشا لم تثبت له اليمن؟
ذاك كله مظهر من مظاهر القدرة في إله عبد المطلب، فأين منه آلهة الناس مما يصنعون من تماثيل ودمى عمي صم بكم لا تعقل، ولا تدفع عن نفسها شرا إن أردناها بشر، وإله مثل إله عبد المطلب – يا بني – خليق أن يكبر على طاقتنا، فلا يخضع إلى تصرفنا كي ننقله أو نحمله أو نعبث به كما شئنا، كيف شئنا.
قال عمار: لست أعني بإظهاره تجسيده، ولا تمثيله، ولا نقله من عليائه إلى مصاف هذه الأحجار الصم العمي البكر.
فليكن إظهاره بإظهار أمره، وإفشاء سره، وإعلان قدرته.
قال ياسر: لكل أجل كتاب – يا بني – لا يسبقه ولا يتأخر عنه، وكيف يتأتى لعارفي هذه الإله العظيم إظهار أمره قبل تحرير الناس من سيطرة الخرافة، وقيد العادة، وعبادة الذات، وسحر الوهم، وهذه كلها جنون مجندة، لا تكاد تحس المتحرر حتى تأخذ عليه الآفاق، وتسد عليه الطرق، وقد رأيت عبد المطلب برغم ذلك يتأتى الفرصة، ويسعى في مهل إلى

خدمة ربه دون أن يثير حفيظة قومه أو يريبهم، فيفاجئهم شيئا فشيئا بسنن وتنظيمات تعدهم لما يسميه (الحنيفية) من دين جده إبراهيم، ومن حكمته – في تأتيه الفرصة وتحينها – أنه بدأ بنفسه فاجتنب الخمر على أنها رجس، ولم يحرج قومه بحملهم على اجتنابها، مكتفيا بهذه السلبية التي تقبح عادة من عاداتهم، وتسفه حلما من أحلامهم وتنزل من عقول عقلائهم منزل القدرة، ثم فارقهم في حقيقة دينهم كله بسلبية أخرى دون إكراه، وذهب إلى غار (حراء) يتحنث وينسك معتزلا آلهتهم متوجها إلى إلهه بصومه وعبادته، مكتفيا أيضا بسلبية تحقر الأوثان تحقيرا غير مباشر، وتشنع على الوثنية والوثنيين تشنيعا دوى في صدور الأحناف، ثم تجاوز حقل الدين إلى حقل الحياة بثورة أخرى على شكل آخر، فأهان (أسافا ونائلة) إلهي النحر والأضحيات، بحفره عندهما بئر زمزم، وقد تكلف بهذه الثورة بعض الجهد، واحتمل بعض المشقة، ولكنه انتصر، وأعلن من نصره هذا نصرين عظيمين على الخرافة والتقاليد. انتصر على (أساف ونائلة) باستخفافه بهما، وإعلانه ضعف خطرهما، وانتصر على عجز الإنسان باكتشافه ماء زمزم: هذه البئر التي لا تنزف أبدا ولا تذم. ثم كانت له آيات أحدثت في سور القوم المسحور كثيرا من الصدوع، وفتحت به كثيرا من الثغر، في جهاد صادق كان يصرع الأوهام في هذا البلد شيئا بعد شئ، ويؤلب عليها أهله، والأقرب من عشيرته وصديقه، فإذا جاء اليوم الخطير وجد طريقه ممهدا.

قال عمار: ولماذا لم ينصره – يا أبه – ربه نصرا حاسما بآية كطير أبابيل؟ وما باله يؤتيه النصر شيئا بعد شئ كالمدين المطول لا تطيب نفسه بالوفاء جملة، فيسدد دينه أقساطا؟.

قال ياسر: هذه مسألة قد يكون علمي أقل من الجواب عليها، وقد يكون عند أبي طالب حلها أو بعض حلها، ولكني أظن رب عبد المطلب ربا في قدرته الهائلة غنيا في ذاته، وأنه في قدرته الهائلة رب رؤوف حليم غير ذي انتقام، فهو من غناه الذاتي قادر على الامهال، نشيط على الصبر، كالدائن السمح يسدي بالإدانة أيادي عدة لا يدا واحدة: يدا في الدين، ويدا في أرباح الدين، ويدا ثالثة في إمهال المدين حين يدركه يسار النفس ويسار المال، وهو من غناه الذاتي بعد هذا كله حيث لا يضره غي الناس، ولا ينفعه رشدهم، فسيان عنده علموا أو جهلوا، وسيان عنده سفهوا أو عقلوا، وسيان عنده شقوا أو سعدوا، لا يناله من أحوالهم كلها ربح ولا خسارة، وإنما يريد لهم ما يريد من خير، ويأبى لهم ما يأبى من شر، ثم لا يليق بغناه الذاتي فقر التدخل بأحوالهم على نحو الجبر، لذلك لا يكرههم على الفضيلة إكراها، وإنما يخيرهم ويخلي بينهم وبين ما يشاؤون من فضيلة أو رذيلة، في أناة من لا يخيفه الفوت، ولا يعجزه الطلب.

وهو من رأفته بمكانه الألوهة ينظر منه إلى أعدائه نظره إلى أصدقائه، كلهم عباده، وكلهم عياله، وكلهم حري عنده أن يحيا ويعيش ويسعد، لا يأتي التفاوت في هذه الأمور من قبله،

وإنما يأتي من قبلهم، صدره ليس ضيقا كصدورنا – يا بني – بالحقد حرجا بالحسد، فوارا بالنقمة، بل هو صدره الرحب الفسيح الخافق بالحب والرحمة والغفران، فلو قد عجل على المخطئين بالنقمة، وأغلق في وجوه العاصين أبواب التوبة، لم يكن حالذاك إلها، وإنما كان ملكا جبارا تعروه الخطيئة، ثم يجب عليه القصاص، ثم إذا فعل ما تتمناه أنت من معاجلة الناس، قل لي: من يبقى من البشر على وجه البسيطة؟ وإذا أخلى البسيطة من الناس، قل: من ذا الذي يعرفه بعدهم؟ وما الفائدة بعد ذلك من الأنظمة والشرائع والقيم؟ بل ماذا يبقى للحياة كلها من الغايات والأغراض والأهداف؟ تعلم – يا بني – أن رب عبد المطلب رب لا أطول من أناته، ولا أوسع من رحمته، ولا أغنى من ذاته، لا يكره بل يخير، ولا يعنف بل يلطف، ولا يعجل بل يمهل، ولا يعسر بل ييسر، وقلما يظهر من قصاصه، ثم لا يقتص إلا إذا طفح الكيل، وإلا إذا توقفت على القصاص حكمة من حكمه البالغة، أو خيف انقطاع هذا الخيط الضعيف الذي يشد الأرض إلى السماء.

قال عمار لأبيه: لله حرة انكشفت عنك – يا أبتي –!. إنني لأشرب كلامك هذا كما أشرب الرحيق، فينشر في نشوة سأسأل شاربي الخمر عن دبيبها، يخيل لي – يا أبه – بعد الذي سمعت أنك لست إنسانا، وإنما أنت ملك يغرس في ريشا من أجنحته. بقيت عندي مسألة لا أحب أن يفوتني علمها.

قال ياسر لابنه: قل وخلاك ذم إن يكن عندي خير فهو لك.

قال عمار: يا أبتي رأيتك تعظم من بني هاشم ما لا تعظم من بني مخزوم، وقد أعلم أن بني هاشم أرفع مكانة، وأعز نفرا، ولكن مخزوما حلفاؤك، وذوو الفضل عندك، أليس من الوفاء لهم أن تحبس عليهم ميلك؟

فقال له أبوه: وصلتك رحم بابني. أنا إنما أعظم الحق بمعزل عن هاشم ومخزوم، ولو حدثتك بحديث القلب والعاطفة لكنت جديرا بالميل إلى أحلافي كما زعمت، ولكني أعلم أن ميلي العصبي ككل ميل عصبي، لا يغني عن الحق شيئا، ولا يغير منه شيئا، وقد رأيت بعيني رأسي وعيني يقيني – وهن أربع – أن الفرق بين هاشم وبين عامة قريش، وأفضلهم مخزوم، كالفرق بين إله هاشم وبين آلهة قريش، أولئك أرواح برة نشيطة عاملة مدركة، وهؤلاء تماثيل جامدة ثقيلة بغيضة فإذا تحركت لم تأت بخير.

خذ الحق – يا بني – حتى من نفسك، فورب عبد المطلب لو فارقتني أنت فيه لفارقتك، ولكان أعظم بري بك وحبي لك أن أدخلك عليه، أو أدخله عليك ما استطعت، فإن لم أستطع كان أعظم حبي لك وبري بك أن أرثي لحالك من بعيد، هذا قياس وفائي لمخزوم. أهبها قلبي وأمنع عنها عقلي إلا في الحق، فإن خالفت الحق رجوت لها أن تعرفه. وهذا أعظم الوفاء.

وبلغا من حوارهما هذا الحد.

قال المحدث: وكان حوارهما هذا من حديثهما الصباحي، وكان صباح (مكة) صباحا قرشيا مترفا، تحتشد فيه الأندية، ويطيب فيه الحديث، وكان ياسر يتخلف عن نادي بني مخزوم أحيانا ليجلس إلى ابنه يجاذبه كلاما هو أشبه بالدرس منه بالعبث والمفاكهة اللذين تصرف بهما قريش السأم عن الوقت، وكان لياسر من ملاحظته وعقله وتجربته وحكمته اليمانية ما يؤهله أن يقع من ابنه موقع المعلم من التلميذ.

قال المحدث: وقطع عليهما حوارهما ذلك الصباح هتاف هبط عليهما من (أبي قبيس) كما هبط على غيرهما، وعلى غير بيتهما، من متحدثة (مكة) وأنديتها، وقطع من الأحاديث كلها ما قطع من حوارهما ذاك، وأنصتا فإذا الهتاف يهبط من (أبي قبيس) نقيا صافيا حارا مثيرا يبعث الروع والروعة جميعا، وتابعاه بكل حسهما وبما اقشعر من بدنيهما، فإذا هو يردد هذه الأبيات في نقاء وصفاء وحرارة وإثارة:

يا للرجال لمظلوم بضاعته * ببطن مكة نائي الحي والنفر
ومحرم أشعث لم تقض عمرته * يا أهل (فهر) وبين الحجر والحجر
هل منصف من بني (سهم) فمرتجع * ما غيبوا؟ أم ضلال مال معتمر

قال عمار: أرأيت - يا أبتي - إلى ما حدثتك عنه من سفه هؤلاء؟ لقد بلغت الشكوى منهم رؤوس الجبال!.

فقال ياسر: ما شككت - يا بني - أن طفولتك تنفتح عن شباب رشيد، ولكن احفظ عني ما يمرتك به في صدر حديثي آنفا وانهض الآن فاقتص لنا أثر هذا الخبر، ما خطب هذا الهاتف يصابح (مكة) بهذه الشكوى المرة؟ وما عسى (مكة) أن ترد على هذا المظلوم من مظلمته الصارخة؟

ولما عاد ياسر قال لأبيه: لم يخطئ علمك ببني هاشم من صلاحهم شيئا. كان الهاتف رجلا من (زبيد) أقبل إلى الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه أبو عمرو العاص بن وائل السهمي، فآواها إلى بيته ولم يدفع ثمنها لأخي زبيد، ثم غيب وجهه. ويطلبه الزبيدي فيعجزه الطلب، ويبتغي متاعه فيمتنع عليه المتاع، ويلتمس بني سهم يشكو إليهم أخاهم فلا يجد وجوها، بل يجد أقفية، ويبلي في طلب حقه بلاء حسنا فيطوف على أندية قريش من ظهراء (سهم) فلا يجد غير اغتصاب على الاغتصاب، وغير ممالاة على الغزو المجرم، وغير عفو من الجميع عن العاص يشتري منه عفوا عن مثلها يأتيها حرب بن أمية، وأبي بن خلف وغيرهما من فتاك مكة وعصابتها وانتهى آخر الأمر إلى (أبي قبيس) يشكو أمره إلى قريش مجتمعة بعد أن شكا إلى أكثرها متفرقة راجيا أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير، ويرسله - كما سمعنا - صوتا يهوي من العلياء كما ينزل الصوت من السماء.

قال عمار متابعا: ولقد جهدت أن أحس وقع هذا الصوت العادل، وأرى إلى أثره المرجو في هذا الحرم من وطن

السلام، فلم أجد غير قفر يبسط ظله الصحراوي على كل مكان، إلا واحة تنشز فتهتز للنداء اهتزاز نجدة وأريحية وإيمان.
قال ياسر: لعلك انقلبت عن نادي الزبير بن عبد المطلب.
فقال عمار: ما أعلمك بهؤلاء النفر يا أبتي. وقد تركته يتحرك في اتجاه حلف يضع حدا لهذه المهازل، لكأنك تنظر إليه بما حدثتني عن رجل الانقلاب وصاحب الساعة.
قال ياسر: ما ظننته هو بالذات، وما ظنه صاحب الساعة التي أعني، وإن كان لمن معداتها وأسبابها. وما لك تعجل ولك أجل كتاب؟.
قال المحدث: وولع الصبي بعد ذلك ولوعه الهائم بالعدل، ويولعه العدل بالهاشميين ذلك الولوع الهائم أيضا. وكان بكر اهتماماته اهتمامه بنتائج صفقة الزبيدي.
غدا على أبيه مرة عاديا، وقص عليه قبل أن يلفظ أنفاسه النبأ التالي:
أثمر سعي الزبير بن عبد المطلب، فاجتمع له مؤتمر عقده في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وألفه من بني هاشم وبني أسد وبني زهرة وبني تيم، وحضر معهم تربي (الصادق الأمين) فتماسحوا بأكفهم، وتحالفوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا له حقه، ما بل بحر صوفة، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب،

ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم، وتحالفوا على التأسي في المعاش، والتساهم بالمال أيضا وقد أسمى الزبير حزبه هذا (حلف الفضول).

وكانت أولى ثمراته إنقاذ حق الزبيدي من فرعون بني سهم.

وأقبل على أبيه ذات يوم يقص عليه: دخل السوق تاجر من بني بارق فباع بضاعته من أبي بن خلف الجمحي، وهو – كما تعلم – مطول سيئ المخالطة، فاضطر البارقي لرفع أمره إلى حلف الفضول ويقول له الزبير: أخبر أبيا أنك أبلغتنا شكواك، ثم عد إلينا إذا لم يخرج إليك حقك. فأتاه فأخبره فأخرج إليه حقه.

وقص عليه مرة فقال: قدم خثعمي إلى مكة تاجرا، ومعه بنت اسمها (القتول) وهي أوضأ فتاة، وأصبح نساء العالمين. ويراها نبيه بن الحجاج السهمي فيرى منها ما يبهره، ويطير نفسه حولها فيؤالي أن يطبق عليها، وينزعها من يد أبيها، ويقتحم عليها وجه أبيها وصدره ثم يتركه بعدها خزيان أسفا، يقلب في أثرها طرف خاسر حائر خائر. ويقال له – وهو سادر –: عليك بحلف الفضول. وكأنما أدركه الفرج، فينشط ويعود من حلف الفضول ومعه رسل الزبير إلى نبيه يأمرونه بإخراج الفتاة إلى أبيها، فيناشدهم نبيه أن يمتعوه بها سواد ليلة، فيقولون له: قبحك الله ما أجهلك! والله ولا شخب لقحة. أخرجها وإلا.. فيخرجها صاغرا، وتخرج مكرمة.

ويقول ياسر لابنه: كان عبد المطلب قبل الفضول، وكانت رسله تحل هذه المشكلات. أغرى حرب بن أمية مرة أحد رجاله باغتيال ثري مستضعف، واغتيل المسكين فاحتاز حرب تركته، ورفعت القضية إلى عبد المطلب، فأعاد سيد قريش التركة إلى الورثة، وغرم حربا دية القتيل مئة ناقة.
ثم تمر الأيام آخذا بعضها برقاب بعض، وعمار يغدو على أبيه من أطرافها ويمسي بخبر من هذه الأخبار، وبفكرة من هذه الفكر، لا يمل هو، ولا يمل أبوه، ولعل أباه أعرف منه بهذه الأخبار وهذه الأفكار، ولكنه يصغي إليه إصغاء المشجع، ويعلق على أخباره تعليق المربي، وكان بعد كل إصغاء، وبعد كل تعليق يأمره بالتحفظ، ويوصيه أن يحفظ ما يأمره به. وكان الصبي يختتم كل قصة وكل فكرة بقوله: لله أبوك يا أبتي لم يخطئ علمك ببني هاشم من صلاحهم شيئا.

مؤتمر قريش

بلغني أن ابن أمتكم (سمية)، أفاق ذات صباح، فوجد نفسه بمعجزة من معجزات محمد سيدا كالسادة! بل بلغني أنه وجد نفسه سيدا فوق السادة، ابتنى في بيته كعبة، واتخذ فيه محرابا، في سابقة ذات خطر عند هؤلاء الصابئين! فليس هو اليوم ابن سمية، وليس هو عمارا، وإنما هو أبو اليقظان!. وهو منذ اليوم رفيق إله عظيم يتجلى له في كعبته ويشرق عليه في محرابه، يسمع منه، ويلقي إليه، ويحب كل منهما صاحبه، فلو عاد أبو حذيفة – إن كان لميت عودة – لوجد نفسه صعلوكا، فما أدري أيأذن له ابن أمته أن يكلمه، أم يزويه هذا ويقصيه، ويعرض عنه كما يعرض عن غيره من كبراء قريش الذين عادوا صغارا، وحلمائهم الذين عادوا سفهاء، وسادتهم الذين عادوا أهون من الرقيق أمرا، وأضعف من الإماء شوكة؟!.

قال ذلك أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية، لأبي جهل عمرو بن هشام طاغية بن مخزوم. ولم يمهله أن يرد عليه جوابه، بل تابع تهكمه المثير فقال: ليت لنا عبدا عملاقا كعمار يسفر لنا عند محمد ورب محمد، إذن يكون لنا منه

جسر نضمن به خط الرجعة حين تؤخذ علينا الطرق، وتغلق بوجوهنا الأبواب، هنيئا لك - أبا الحكم - إنك في أمان ابن سمية، وأمان سمية، وأمان زوج سمية، تعرف الأمن حيث توجهت، ولا أمان لنا في دولة العبيد!.

قال أبو جهل - وكان يكنى أبا الحكم -: أراك اقتصرت على العبيد، ونسيت حظنا من الأحرار؟! لئن أتخذ عبدنا عمار من بيته كعبة ومحرابا لنفسه، فإن ابن عمي أرقم بن الأرقم أنشأ من بيته على الصفا دارا للإسلام، فهي منذ اليوم تنسخ الكعبة بنشاط محمد، وتصرف وجوه الناس عنها إلى الشام، ثم تلغي (الندوة) من دار (قصي): شيخنا الصالح!. وما لك تبدو حزينا كئيبا كاسفا يائسا بائسا؟ ألا تطمع بشفاعة أبي حذيفة هشيم بن عتبة أخي هند وعبد الله بن سهل، وعثمان بن عفان؟ كل هؤلاء جدير أن يمد لك سببا إلى محمد، حين يملأ علينا البطحاء بحوافر وأخفافه؟!.

وكان اجتمع في (الحجر) وجوه الشرك من قريش، وقد ضاق ذرعهم بأمر النبي صلى الله عليه وآله وانتشار دعوته بين البيض والحمر انتشارا قسم مكة شطرين، وأمسى خطرا تخشاه طبقة النبلاء على نفوذها، وترفها واستثمارها واستئثارها، وتوافي إلى هذا المؤتمر رهط من قادة هذه الطبقة أبلغني المحدث من أسمائهم: الوليد بن المغيرة كبير مخزوم، وابن أخيه عمرو بن هشام طاغيتها، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، والنضر بن الحرث لواء

بني عبد الدار، والأسود بن المطلب بن هاشم وأبو لهب بن
عبد المطلب، و عبد الله بن أمية، وأبو عمرو العاص بن
وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف
الجمحي، وعقبة بن أبي معيط.
فلما انتهى صخر وعمرو إلى ما سمعت انبرى لهما عقبة
يقول لهما: أتتهكمان متباريين في التهكم؟ لكأننا إنما اجتمعنا
لنشهد سباقا نحكم فيه للمجلي منكما بالعارضة وسرعة الخاطر
وتوقد الذهن!. والذي يحلف به عقبة لئن خليتم بين محمد
وبين الناس ليستأثرن بهم دونكم، وليغرين أوباشهم بسادتكم،
ثم لا تجدون في هذه البطاح مكانا إلا أن تنزلوا على أمره
أذلاء صاغرين، لا يزيد أبيضكم على أسوده، ولا حركم على
عبده ولا غنيكم على فقيره، إنكما ومعشر أهل الحل والعقد
من قريش لا أحذق منكم بصناعة الظرف والتهكم إذا خلا
بعضنا إلى بعض، فإذا أقبل علينا محمد أخذنا منه مثل
الإفكل - الرعدة - وإن أشدنا منه حفيظة، وأكثرنا عليه موجدة
ليتهدم متخاذلا بين يديه إذا ابتسم، و (يرفؤه - يسكنه - متملقا
بأحسن ما يجد من القول) إذا غضب، حتى ليقول له:
(انصرف أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا)!.
وقال أمية بن خلف: على هونكما أبا حنظلة - وهي كنية
أبي سفيان أولا - وأبا الحكم، لا تلوما حرا، ولا تغلظا إلى
عبد بعد الذي سمعناه عن رأي أكابرنا بمحمد وقد أحدث ما
أحدث من تفريق جماعتنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا،

فكفا منذ اليوم عن لوم من تلومان ما دام ابن المغيرة، وابن ربيعة لهما في محمد وفي بدعته رأي كريم!.
وكان أبو خالد الوليد يتصدر المؤتمر، ذاهبا في متابعة الحوار بابتسام رقيق، عاقدا يديه على صدره، مستندا إلى وسادة خلف ظهره في استرخاء وكسل، فلما بلغ بن خلف من لومه ما بلغ استوى في مجلسه دون أن تفارقه ابتسامته الرقيقة قائلا:
ماذا تنكر يا ابن خلف من مولاك بلال بن رباح؟ أيخرجه إذلالك إياه عن طوره أكثر مما أخرجك صدى ظلامته عن طورك؟ أتظن سعي بلال للتحرر من ربقة ابن خلف والتخلص من أسره، أعظم إثما من تجاوز ابن خلف على محمد، وأوخم من التنكر لعبد المطلب بحفيده وسيد بنيه؟. شد ما تتعامون عن الحق يا إخوان قريش، وتتعصبون لأنفسكم!.
وأقسم لو سستم عبيدكم وإماءكم سياسة إنسان لإنسان، وأعطيتموهم النصفة والرعاية، لما فارقكم منهم مفارق، ولما انتقض عليكم منهم منتقض، ولكنكم سستموهم ونسيتم أمرا واحدا، نسيتم أنهم بشر مثلكم، لهم رؤوس فيها أعين وآذان وآناف وألسنة، وفيها عقول تعرف الكرامة معرفة عقولكم لهذه الكرامة، فليتكم حين ملكتموهم لم تنسوا في سياستكم إياهم هذا الأمر البسيط، إذن لا تجدوهم إلا حيث تحبون. وأما وقد نسيتم هذا فقد نسوا هم حبكم، وقابلوا نسيانكم بنسيان مثله، أظهروا لكم طاعة باطنها العصيان، وأضمروا معصية ظاهرها المداراة، ولم يكن شئ أكثر طبيعية من إسراعهم إلى إنقاذ

كرامتهم، حين دعاهم محمد إلى إنقاذ هذه الكرامة. فلوموا أنفسكم إذا كان لا بد من لوم، واغضبوا عليها إذا كان لا بد من غضب. هذا رأيي فيما أنتم فيه من أمر هؤلاء المستضعفين، أعلنه إليكم على حقيقته وليس فينا غريب، فتدبروا الخطة على نوره، وأما ما رماني به ابن خلف، فلا أعتذر منه، ولا أرجع عنه إذا خلونا للحقيقة، إن لمحمد بعمه وجده فينا لمكانا لا يرقى إليه أحد في قريش، وله بنفسه مكان فوق ذلك، وهما مكانان لا يستقيم الارجاف بهما قبل الإعذار، ولا ينهض التنكر لهما إلا بالإنصاف. وقد زعمتم أن محمدا شاعرا، وأنه كاهن، وأنه ساحر، وأنه مجنون، وهي مزاعم لا تلبث إلا ريثما يخرج محمد إلى الناس، فإذا خرج تبينوا بطلانها، ثم تبينوا ببطلانها افتئاتكم على محمد وعلى حقه ثم خرجوا من هذا وذاك أصدقاء لمحمد، وأعداء لكم، وهكذا تنصرون محمدا من حيث أردتم خذلانه، وتنفعونه من حيث أردتم ضرره، لهذا أنكرت أن يكون ما يلقيه محمد شعرا، وأنكرت أن يكون ما يلقيه محمد سجعا، وأنكرت أن يكون ما يلقيه محمد نفثا، وأنكر أن يكون ما يلقيه محمد هذيانا، وأردت من إنكاري المكرر أن تكونوا في حربكم محمدا عقلاء تزعمون زعما يقف على قدميه بين الناس، وأن تقدروا قوة صاحبكم حق قدرها لتتجهزوا لها بما يفوقها أو يكافئها، فإن حربا تقوم على الغرور والغباء في جانب، وعلى التواضع والدهاء في جانب آخر، لحرب منتهية قبل الاشتباك.

حدثوني أفهم عني ابن خلف أم هو بحاجة إلى مزيد إيضاح؟
على أنني لولا ابن أخي عمرو لما وجدني محمد إلا حيث يحب، فوالذي أحلف به لقد سمعته، وما سمعت أعذب ولا أصفى ولا أندى، ولا أحب مما سمعته منه، ولقد رأيته فما رأيته أحق بالتصديق في وقت منه به وهو يدعو إلى ما يدعو إليه، ولكن عمرا أبى فأبيت.
وحاول أمية بن خلف أن يتكلم فسبقه عتبة فقال: أبو خالد أشبع القول، وأحكمه ووفق فيه إلى أبعد الصواب، ولقد سمعت ما سمع، ورأيت ما رأى، فوجدت في محمد ما وجد، ولا أعتذر مما رماني به ابن خلف ولا أرجع عنه، نصحت إلى قومي – وما أنا بالذي يفارقهم في حال – أن يخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، واخترت لهم سلامة الحياد، وتل العزلة، موقنا بأن القول الذي سمعته منه سيحدث صدى في أوساط العرب، فإن تصبه كفتنا شره، وإن انتصر هو على العرب فملكه ملكنا، وعزه عزنا، ويومئذ نكون به أسد الناس، فما كان جوابهم إلا قولهم: سحرك الساحر وأقسم ما هو بساحر، ولكنه يقول قولا ما سمعنا مثله قط.
وقال ثعلب قريش النضر بن الحرث: يا معشر قريش إنه نزل بكم خطب ما أتيتم له بحيلة بد، كان محمد فيكم غلاما حدثا، وكان أرضاكم لكم: أصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا ابيض صدغه، ووخط الشيب عارضيه، وجاءكم بما جاءكم به كذبتموه، والله خصمكم عند الناس، وخصمتم

أنفسكم في تكذيبه اليوم بأربعين حولا قبل اليوم سجلتم على أنفسكم خلالها ملايين الشهادات بصدقه وأمانته، تقولون: ساحر. لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وتقولون: كاهن. لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وتقولون: شاعر لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه: وتقولون: مجنون: لا والله ما هو مجنون. قد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوته، ولا تخليطه. يا معشر قريش إنه نزل بكم خطب عظيم ما أتيتم له بحيلة، ولا اتخذتم لدفعه أهبة فتدبروا الأمر على سراج أبي خالد الوليد، أو أطيعوا أمر أبي الوليد عتبة مشكورين.

وخرج أبو جهل من صمته فقال: ما دمتم تتبارون بمعرفة محمد على وجه الحق، فليس أحد منكم أولى مني بالإنصاف. ألا فاشهدوا أن نبأ محمد هزني هزا شديدا عنيفا، ومناني بزلزال أي زلزال، ورأيتني ذات ليلة أرقا يتغولني السمر، ويقلوني الفراش، ثم رأيتني مسوقا بدافع خفي يركبني فلا يدع لي فضل إرادة. ولا حرية خيار، فإذا أنا ماض لأمره الحازم الصارم، أسعى على رؤوس الأصابع، متسللا تحت الظلام إلى ركن أرى منه مصلى محمد وأسمع فيه صوته، ويا ويحي من سحر يبدل وظائف الحس في جوارحي! لقد عهدت الفم بابا للنشوة، يسكبها الخمر منه، ويصبها فيه، ثم يشيعها الفم دبيبا في الأوصال، وانتعاشا في الروح، فما

بال النشوة من صلاة محمد، تغير مدخل النشوة فتنسكب في الأذن وتصب فيها وتشيع منها دبيبا وانتعاشا لا والله ما عرفت مثلهما في نشوة خمر، ولا نشوة نصر، ولا نشوة من هذه النشوات التي ألفناها، ومارسناها وطال بها عهدنا، أفتعجبون؟ لقد أسرني محمد في ركني ذاك بحبال من صلاته إلى الفجر. وما نبهني إلا النور يفتح علي عيونه ويلقي علي القبض متلبسا بالجريمة، وخفت الافتضاح، فحملت نفسي ورجعت أدراجي، وبينما أنا في منصرفي لاح لي من هنا رجل يتسلل ومن هنا رجل يتسلل، فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا عمرو! هذه قريس تتجسس عليك، وأسقط في يدي، ثم تبينت فإذا أبو حنظلة نفسه من هنا، وإذا الأخنس بن شريق الثقفي من هنا، ساعيان إلي في مثل ما بي متمايلان كأنهما خارجان من حانة، ويفرخ روعي حين أعلم أن زلزالي حل بهما، وأرسلهما كما أرسلني يرشفان من سحر محمد وخمره، ثم تتلاحى، ويوصي بعضنا بعضا أن لا نعود إلى مثلها، وإلا كنا قدوة للسفهاء نطمعهم باتباع محمد والتهافت عليه، ولكني أفقد من زمامي في ليلتي الثانية ما فقدته في ليلتي الأولى، وأجدني مسوقا بدافع خفي، متسللا تحت الظلام إلى ركن أرى منه مصلى محمد وأسمع فيه صوته، فأشرب بأذني من خمره نشوة ما عرفتها للخمر، وما عرفتها للنصر، فإذا نبهني الفجر التقيت صاحبي، ولحوتهما ولحواني، وتوصينا ثم انصرفنا، وفي فجر الليلة الثالثة التقيت صاحبي كما التقيتهما مرتين من قبل،

وأقول لهما هذه المرة: لا نبرح حتى نتعاهد على الانصراف عن هذه الزيارة، ثم لم ألتقهما على حال من هذه بعد. وأشهد لقد سمعت ما سمع عمي، وسمعت ما سمع أبو الوليد، وعرفت مما سمعت مثل الذي عرفا، فإن كنا اجتمعنا لنصرح بما في أنفسنا من محمد وحقه، فهذا ما بنفسي، ولكننا إنما اجتمعنا لأمر آخر فخوضوا فيه مشكورين.

ضحك أبو سفيان وقال: لقد أذكرتني أبا الحكم، وكنت ناسيا كيف وجدت ما سمعت؟ ويقول أبو جهل: أكنت غائبا وحضرت الساعة؟ لقد أنبأتك عما سمعت منذ لحظة!.

قال أبو سفيان: كنت شاهدا – وحقك – وقد سمعت وصفك الرائع كله، وشربته بأذني وعيني جميعا. ولكني أسألك من جديد خائضا فيما اجتمعنا من أجله. كيف وجدت ما سمعت؟

قال أبو جهل: وكيف وجدت أنت ما سمعت من محمد؟

فقال أبو سفيان: سمعت أشياء يفهم أقلها، ولا يفهم أكثرها ولا يعرف ما يراد بجملتها!.

قال أبو جهل: ورأيي أنا فيما سمعت من محمد أننا تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ فوالله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه!.

قال أبو سفيان: نعم ما رأيت – أبا الحكم – ولكن اهبط من

عبد مناف إلى هاشم، فأنت جدير إذا هبطت أن تكون أكثر ناصرا، وأقرب إلى ظفر، ونحن من عبد مناف تنازعنا وبنو هاشم الشرف أطعموا وحملوا، فأطعمنا وحملنا، فلما كنا كفرسي رهان أو كدنا، قالوا: منا نبي! فمتى ندرك مثل هذه، فوالله لا نؤمن به أبدا، ولا نصدقه!.

قال أبو لهب: ولا هذه! لقد آثرتكم على أهلي وهم من تعلمون ارتفاع كعب، وسعة نفوذ، وتقدم شرف، وكثرة أنصار فلا تجعلوها هاشمية مخزومية أموية، فإنكم إن تجعلوها كذلك، لا تقفوا لأبي طالب وإخوانه وبنيهم وأنصارهم، ولكن حاربوا محمدا وأنا عمه معكم. فقد سفه أحلامنا، وعاب آلهتنا، وسب آباءنا، ولم يأت فتى إلى قومه بشر مما أتى به محمد إلينا.

فقال العاص بن وائل: القول ما يقول أبو لهب. ألم نعذر بابن أخيك يا ابن شيخنا؟ لقد وضعنا تحت قدميه أموالنا، ونزلنا له عن مكان السيادة المطلقة فينا، وتقدمنا إلى سيد الهاشميين، وسيد مكة أبي طالب، أن يشفع لإلهتنا وآبائنا عنده بما يشاء من ثمن، ولكنه أبى إلا المضي في أمره، قائلا: " والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، ما أنا بتارك أمري أو أموت دونه ". فأعلنها حربا سافرة، وأعلنها أبو طالب معه حربا مقنعة، في عناد يهدد كياننا، ويقتر أرزاقنا، ويقلص نفوذنا، أترانا بعد ملومين في التألب عليه، والتنكر له، والإغراء به؟

قال أبو لهب: وصلتك رحم يا أبا عمرو. أرأيتني أخف منك وطأة على ابن أخي؟ أو أكثر حلما في مجابهة دعوته؟ إنما أريد الخير لكم بتوجيهكم نحو شخص محمد، وإعفاء عشيرته من وزره، لتكونوا أخف حملاً في ميدانكم الذي تشقونه منذ اليوم.
قال أبو جهل: إذا لم تسلموني لمكروه، ومنعتموني من بني هاشم قتلت محمدا وأرحتكم منه.
قال العاص: لست أنصر هذا الرأي. فقتل محمد خرق في طمأنينة هذا البلد ليس أغلظ منه خرق محمد، إنما تعودنا أن لا يعنف بعضنا بعض في قول، ولا يقسو بعضنا على بعض بجدال، فكيف بالقتل، وقتل محمد بالذات، فوالله لو أجمعنا عليه لما استطعناه، إلا أن تكون فتنة لا توفر رأسا من هذه الرؤوس المجتمعة لهذا المؤتمر، أترى أصلحك الله – أبا الحكم – بني عبد المطلب تاركيك أو تاركي مانعيك، وقد قتلت من يرجون به فوز اليوم والغد؟ خذ بغير هذا الرأي، فإنه رأي فائل يجرد على مكة أشقى الشقاء.
قال الوليد: أصاب أبو عمرو شاكلة الرأي، واهتدى سواء السبيل، وليس قتل محمد إلا مما نأباه وإن فعل ما فعل.
قال أبو جهل: مرنا يا عم إذا بأمرك، واجعل لهذا المضطرب حدا ننطلق منه إلى عمل رشيد.
تأمل الوليد لحظة عبث خلالها بلحيته، ثم قال: أضعفوا

أمر محمد بالإرجاف، وقولوا: إنه ساحر!. صغروا إليه – إذا شئتم – نفسه بالهزء والاستخفاف، وتجاهلوا قرآنه، لا تسمعوه ولا تدعوا أحدا يسمعه، فإذا سمعتموه أو سمعه أحد في هذا البلد مرغما، فاعجبوا من استغلاقه وغرابته وحيرته وانبهام أغراضه. اجعلوا محمدا في سلامة من بدنه، ولكن سلطوا على روحه ما شئتم من عذاب، وإذا أبيتم إلا النكال، فليأخذ كل منكم عبيده وأحلافه ممن تبع دين محمد فأنزلوا بهم نقمة الشيطان، بهذا توفقوا بين الدفاع عن آلهتكم، وبين المحافظة على تقاليدكم، ثم لا يجد بنو هاشم المحصورون في شعبهم طريقا إلى الثورة بكم والغضب عليكم.

قال أبو جهل: دعوا لي تعذيب العبيد والسفهاء، وسترون غدا ما يحل بآل سمية من أبكار الكوارث.

وقال عقبة بن أبي معيط: ودعوا لي أن أتتبع خطوات محمد، فأهلك الناس ضحكا عليه.

وقال أبو سفيان: بلغني أن محمدا يتعلم قرآنه من رجل في اليمامة اسمه الرحمن، وهو رجل معتوه لا يعرف من خرفه ما يقول.

وقال الحرث بن النضر: أما أنا فسأستقبل كل جماعة يفارقها محمد فأحلقها وأقص عليها مما حفظته في (الحيرة) من أخبار رستم وأسفنديار وأيام الفرس، وأريهم أينا أحسن حديثا، وأروع منطقا أنا أم محمد؟ وسيرون أينا أحفظ للأوابد هو أم أنا!.

وقال عتبة: سلوا محمدا في طريقكم أن يأتيكم بمعجزة إن كان نبيا كما يزعم، فليكشف عن (مكة) هذه الجبال التي تضيق علينا الأرض، ويبسطها سهولا كسهول العراق، ويفجر فيها ينابيع وأنهارا كدجلة والفرات وبردى، أو ليحول هذه الجبال ذهبا وكنوزا تغنينا عن التجارة وتجشم الأسفار، أو ليبعث لنا من مضى من آبائنا نسألهم عما يقول، أصدق هو أم كذب، وحق هو أم باطل، فإن استكثر بعث آبائنا كلهم، فاكتفوا منه بقصي فإنه كان شيخ صدق، فإن أبى فسلوه أن يسقط علينا كسفا من السماء، أو يأتينا بعذاب أليم كما يزعم.

وشهد الإسلام بعد هذا اليوم اضطهادا لم يعهد في التاريخ، خرج محمد فوجد التراب جريئا عليه، فما لقي حرا ولا عبدا إلا آذاه، وسخر منه، وحاكى منطقه، وقلد مشيته، وما كان الهواء في يومه ذاك إلا منتنا عفنا كريها، ولكنه على ذلك نشيط يدعو ويعظ، ويقرأ، ويقبل على السفهاء رضيا باشا يضع أصابعهم على أخطائهم، ويفتح أجفانهم على جيفهم، فإذا انتهى النهار، وانطفأت جمرته المتوهجة، وأقبل المساء مشعشع النجوم، رجع أبو القاسم إلى بيته منهكا لو كانت الأثقال تنهك نبيا مثله، حزينا مثخن النفس بجراح ليس له بها عهد، ولا يعود إلا محموما تمشي الحمى في أوصاله مشية راجفة تضطره تلك الليلة أن يزور فراشه ويتدثر ببرده الحضرمي الأخضر.

عمار وأبو جهل

كان عمار بن ياسر قائما يصلي في مسجده من بيته، عندما طرق الباب، وكان الطارق رجلا قصيرا أفطس الأنف، أسمر اللون، تضرب سمرته إلى السواد، وخفت أم عمار إلى الباب مرحبة بالقادم الكريم: أهلا بأبي أسامة مولى رسول الله وابنه وحبيبه. زارتنا الرحمة، وعبق بيتنا بأنفاس النبوة. قالت ذلك وهي تقود زيد بن حارثة إلى مصلى عمار، ثم وقفت حين أخذ مجلسه، تحدثه ريثما ينفتل عمار من نافلته وكان الوقت أصيلا، عذب النسمة، شاحب النور، فإذا سلم عمار من صلاته، نهض فحيا زيدا ورحب به، ولم يكد يجلس إليه حتى ابتدره زيد قائلا: هل لك - أبا اليقظان - أن نخرج معا إلى (البيت) ونلم بأندية قريش؟

قال عمار: ولم لا نذهب إلى (دار الإسلام) فنستمع إلى حديث رسول الله، فيما بقي من الوقت، ونصلي الفريضة إذا مالت الشمس؟.

قال زيد: أقبلت إليك من (دار الإسلام) وقد حملت إليها بشارة أرسلني (أبو القاسم) أتحقق منها، ورأيتني على بابك،

فأحببت أن ندخل (البيت) معا، ثم ننقلب إلى رسول الله في (دار الإسلام) بالخبر اليقين، ولن تفوتنا الجماعة.
قال عمار: وأية بشارة تعني؟ هل من جديد في الإسلام؟ شد ما يصبر الله على هؤلاء القوم!.
قال زيد: جاءنا في (دار الإسلام) أن أبا عمارة ضرب أبا جهل على ملأ من قومه ضربة سقت الأرض من دمه، وأنذره إن تعرض بعدها للنبي ليحدثن به ما يحدث. وأعلن لقريش أنه مسلم منذ اليوم.
قال عمار – في ابتهاج طفح به وجهه –: حمزة فعلها! والله كنت أتوقع من فتى العرب أن لا يقر جهل أبي جهل، إن هذا الخبيث ينشط منذ أيام لمناوأة النبي، والتسور عليه نشاطا أقل جزاءه الموت.
قال زيد: ما تزال قوة مكة بأيدي هؤلاء الطواغيت، ولا يرى لنا أبو القاسم صلى الله عليه وآله أن نحدث فيهم أمرا، فإنه مأمور بالسلم، ما أمكنت السلم، أما العنف فليس من ديننا إلا إذا كان أداة للسلام، ولولا ذلك لكان من أيسر ما نأتيه أن يقتل أحدنا أبا جهل وليقتل به بعد ذلك.
قال عمار: هلم إلى (البيت) إن أمرنا بعد إعلان حمزة إسلامه وضربه أبا جهل لمختلف عن حالنا قبل ذلك. الآن حمي الوطيس. ولكن ألا تخبرني – أبا أسامة – كيف ضربه أبو عمارة، وأين؟

قال زيد: بلغنا أن أمة لعبد الله بن جدعان، بصرت أبا عمارة اليوم وهو عائد من صيده، وأنها عابت عليه انصرافه إلى الصيد بين جبال مكة، وابن أخيه يهان فيها، وأنه سألها عن خبر النبي فحدثته بصنيع أبي جهل، وإغرائه السفهاء برسول الله، فما كان من أبي عمارة إلا أن جاء الكعبة، وطاف بها طوافه المعتاد، ثم خرج حتى وقف على رأس أبي جهل في حلقة مخزوم، ويقول له: أنت تشتم محمدا وأنا على دينه، ثم يهوي عليه بالقوس لا شلت يمينه.

قال عمار: وكيف كان وقعها في نفس أبي جهل؟ وصداها في رهطه؟ هل استكانوا وصبروا أم استنكروا ونفروا؟.

قال زيد: الذي بلغنا أن نفرا من مخزوم هموا بلقاء الحمزة ولكن أبا جهل فاء إلى عقله، فأقعدهم، ولا يستطيع أبو جهل أكثر من ذلك حين يخاصمه فتى العرب ألا يعلم أبو جهل أن الرد على أبي عمارة بالضرب معناه الحرب المهلكة، والانقسام الضاري، والشقاء الذي لا تخرج منه قريش سعيدة، ما شك أن الإسلام اشتد ساعده بإعلان حمزة إسلامه اشتدادا يحسب له المشركون ألف حساب. فهلم نتحسس أثره، فلا بد أن يكون لأثره دوي في ألسنة الناس وصدورهم، وكأني أرى مكة ماضية فيما نمضي فيه من الاهتمام بهذا الحدث البكر الذي لم تتعوده قريش، فأما المسلمون فيرونه - كما نراه - انتصارا خضد من شوكة الشرك شيئا ما، وأما المشركون فيرونه هزيمة سجلت للمسلمين نصرا ما، ثم لا أظن المسلمين والمشركين

مختلفين بأنه فاتحة لصراع ترتفع حماسته في جبهتيه جميعا، وما أدري - والله - ما يمنع هؤلاء السفهاء من تصديق النبي والإيمان به، والله ما خلق الله أبر بهم ولا أعطف عليهم ولا أنفع لهم من محمد صلى الله عليه وآله. والله ما خلق الله أدل على الحق، ولا أهدي إليه، ولا أنهض به من محمد صلى الله عليه وآله فلو رجعوا إلى عقولهم، ودخلوا فيما دخلنا لأراحوا إذن واستراحوا، وضمنوا لهذا البلد المقدس ما شاؤوا من الدعة والاستقرار.

قال عمار - وهو ينهض آخذا بيد زيد متوجهين إلى البيت -: أصلحك الله يا أبا أسامة أتشك بذكاء هؤلاء المشركين من وجوه قريش، وسلامة أفهامهم؟ أما والله لا أراهم أقل منا إدراكا، ولا أبعد منا عن فهم، فهم يعرفون عن أبي القاسم صلى الله عليه وآله ما نعرف، ويعلمون أنه لا ينطق عن الهوى، وأنه إنما جاء بالحق من ربه، ثم يعلمون أن من حقه ما يمحو التفاوت بين أبيض وأسود، ويهدم الحواجز بين غني وفقير، ويلغي الحدود بين أجير وأمير. الناس عنده سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب، لا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والكفاءة، أنا وأبو جهل مثلان، وأنت وحمزة نظيران، وبلال وابن خلف ندان، كلنا إخوان لا سيد ولا مسود إلا الحق فإنه سيد الجميع، يرفع ويضع بموازين وأقيسة منه لا من المال، ولا من الإرث، ولا من هذه التقاليد البالية، هم يعلمون هذا

كله – يا أبا أسامة – كما نعلمه أو أكثر، وهم إنما يحاربون هذا كله في محمد لا محمدا في شخصه، فلو ضمن لهم امتيازاتهم، وأقر لهم الاستعباد والامتصاص والاستبداد، لما اختلف منه اثنان في محمد وشأنه. لقد بلوتهم فوجدتهم تجارا لا فيما يرسلونه من هذه القوافل إلى الشام واليمن، تذهب بعروض، وتأتي بعروض، بل بآلهتهم التي يعبدون، لقد رأيتهم لا يضمرون (لهبل) وصويحباته من بنات الله، كما يزعمون، إلا السخرية والهزء والتغامز، ولكنهم يخدعون بها هذا السواد عن عقولهم، ويشترون بظاهر احترامها سيادتهم وامتيازاتهم، فلو اصطدمت هذه التماثيل الجوف بشئ من أنا نياتهم لرأيت مكانها تحت أقدامهم، وهي هشيم، هم إنما يعبدون أنفسهم بعبادتها ويدافعون عن أنفسهم بالدفاع عنها. رأيت أبا جهل يؤدب أحد عبيده مرة فيبرح به، وسمعت العبد يحلف بهبل إنه لبرئ، ويحيل سيده إلى هبل بالسؤال عن براءته. أتعرف جواب أبي جهل؟ قال له: وما هو هبل يا لكع! هل هو إلا عبد أقطع منحوس مثلك، اشتراه عمرو بن لحي سيد خزاعة (١) من بلقاء الشام ونصبه عليك وعلى أمثالك

---

(١) عمرو بن لحي سيد خزاعة انتزع الحكم من جرهم، وتولى (البيت) وأقبل بهبل من الشام، ثم أشاع عبادة الأصنام يجهل بها العامة استدامة للملك وكان جبارا خليعا مستهترا عمر طويلا وطمس خلال حكمه (حنيفية) إبراهيم عليه السلام، وأفضى الحكم بعده إلى قصي. وهبل كبير الأصنام في الكعبة صيغ من العقيق على هيئة شيخ ضخم وقور طويل اللحية قطعت يمينه فعوضته عنا قريش بيد من ذهب.

إلها؟. وأدب عبدا آخر مرة، فذكر له العبد (إسافا ونائلة) (١) فقال له: صه يا ابن اللخناء! هل كانا الإزانيين من جرهم، مسخا حجرين، ويلك أتريد أن تدس عقلك في رأسي؟ وتأخذني بقدس ما أصنع ويصنعه أمثالي؟ ألا فلتعلم أن هذه الآلهة إنما هي من إمائنا البلهاوات، وضعناها فوقكم لتعلموا مكانهم منا، فأنت لست عبدي فقط بل عبد لأمتي، ونظام هذه الإماءِ من آلهتك عبد لي كعبوديتك، فإذا تمرد سطته كما أسوطك حتى يستقيم لي، إنما نشترعه لنؤدبكم به، فإذا استقام لكم علينا فقد أبق، وحل لنا أن نمزقه كما نمزق ظهوركم!. انصرف فإذا عدت إلى ذكر شئ من هذا بوجهي لا تعرف كيف تخرج روحك الخبيثة من بدنك.

وأبو جهل - يا أبا أسامة - سر هؤلاء الطواغيت، لا يأخذه ولا يأخذهم في هذه الأصنام ذمام، ولا يثيرهم بأبي القاسم صلى الله عليه وآله عداء شخصي، وإنما هي نفوسهم تظهر لهم في هيئة هذه الأصنام، فيحتشدون حولها، ويخيفها من محمد دينه ومساواته فيتألبون عليه ولن ينصفوه إلا إذا خرجوا من نفوسهم المظلمة هذه، ولا يخرجون منها إلا أن يخرجوا وبالله المستعان.

وكانا يدخلان المسجد عند آخر كلمة قالها عمار، فإذا أندية

---

(١) تزعم الميثولوجيا أن (إسافا ونائلة) كانا رجلا وامرأة من جرهم فجرا بالبيت في عهد عمرو بن لحي فمسخا حجرين.

قريش مكتظة، ولكنها واجمة، ترى فيها ضربة حمزة ملونة تتخذ منهم أشكالا مختلفة، فيها الذل، وفيها النقمة، وفيها الحذر وفيها الثورة، وفيها العزم، وفيها الحيرة، وهي على تناقضها هذا هادئة هدوء البركان يلتمس المخرج، وأبو جهل ما يزال في مجلسه لم يفارقه، ودمه إعلان مثير، ينسب إلى حمزة التطرف والاعتداء، وإليه التعقل والإعذار، وينهض إعلانه - كما تصور - حجة لما عزم عليه من إجراء غير ملوم، ولعله يطمع أن تعطف عليه القلوب، وتثور لظلامته العصبيات، فيكون أولى بالقوة، وأجدر بالظفر.

وما لاح عمار يصاف زيدا على ملأ من قريش حتى تنفس الصمت، وكأن البركان وجد الثقب، فأخرج أول ألسنته، وصرخ أبو جهل بمن حوله: أرأيتم أشد صلفا من صلف هذا المقبل؟ سلوه هل استل زيدا من عبيد بني هاشم وأقبل به إلى نصرتي ومواساتي؟ أم استله زيد من عبيد مخزوم وأقبل به يسدد إلي ضربة أخرى: تالله ما رأيت كاليوم تغيرا في مكة! لا الأرض أرضها ولا السماء سماؤها!.

وابتدر غلمان يستبقون إلى عمار يدعونه إلى سيدهم، فقال زيد: ماذا يبتغي أبو جهل من أبي اليقظان؟ قولوا له عني: إن عمارا مشغول عنه بواجب، وسيلقاه حين يفرغ من واجبه. فقال أحد الغلمان: لا تدخل ذنبك يا زيد بين عمار وحليفه، عسى إن أدخلته أن يطبق عليه الفخ، وتتحمل تبعة ما أتى حمزة قبل سويعة. قال زيد: ويحك يا هذا ما أجهلك!. نحن

المسلمين ذمتنا واحدة يسعى بها أدنانا، ونحن يد على من سوانا. أتراني أتخلف عن تحمل تبعة من تبعات حمزة أو عمار دون فرق؟! امض إلى سيدك بأمري ودع عمارا. قال الغلام: أجئت مثيرا لفتنة؟ واللات والعزى لئن لم تنصرف لينزلن بك ما تكره، ولن تجد سيدك قادرا على منعك. خل بين عمار وبين حليفه، كفى بني هاشم ما أراقوه من دم أبي الحكم.

وخشي عمار أن يتطور الموقف فيؤخذ زيد بسببه، فقال له: دعني - أبا أسامة - أكابد الرجل، ولا تخش علي من بأس. إني أخاف إن بقيت أن نحدث أمرا لا نعرف فيه رأي النبي، فانصرف - أبا أسامة - راشدا، وأخبر النبي بما رأيت، وكل إلي النهوض بتبعة حمزة.

ويقول زيد: لن أسلمك وأنا في عافية، إن القوم سيقعون بك وقوعا شريرا بسببي، وأخاف الله وأخاف حبك إذا أنا أسلمتك وفررت بعافيتي. فيقول عمار: ولكني أخشى من بقائك فتنة لا نعرف فيها رأي النبي، فإنهم إن وقعوا بك فقد وقعوا ببني هاشم، وهناك لا بد من الحرب. أما أنا فإنما يقعون مني بعمهم أبي حذيفة، وأبو حذيفة لا يسمع إلا حين يسمع أهل القبور. إمض - يا سيدي - راشدا ودعني أكابد الرجل.

ولم يكد يحمل زيد نفسه حملا على الانصراف، حتى أقبل عمار مع الغلمان إلى أبي جهل، مديد القامة عالي الرأس.

فلما كان منه خلف الحلقة المحدقة به من رجاله، قال:
هل لأبي الحكم من حاجة إلى حليفه عمار؟
قال أبو جهل: وأنت يا ابن سمية!.
قال عمار: وهل في مخزوم نساء كثيرات كسمية يا أبا الحكم؟ لقد كانت سمية أمة فتحررت، ثم من الله عليها بحرية الإسلام العظمى فهي اليوم تنعم بحريتين خيرهما الحرية من رق الكفر، وعبودية الأوثان، فما أراك إلا تمدحني من حيث تريد أن تسبني.
فقال أبو جهل: ويلك..
فقاطعه عمار قائلا: الويل لي إذا أشركت وكفرت وعبدت غير الله!.
قال أبو جهل: صدق صخر إذ أخبرني أنك أفقت ذات صباح فوجدت نفسك بمعجزة محمد سيدا فوق السادة!. عجبا لصمتك كم خدعنا عنك!. ولكن سأريك مكانك اللائق بك أيها العبد اللاجئ فأمهلني حتى أعذر بك، فإن لم تنته فأعد هذه الجرأة لمواجهة الشياطين!.
قال عمار: تعذر بي؟!. أو تملك عذرا لتعذر أصلحك الله أبا الحكم؟.
قال أبو جهل: وما يمنعني من العذر؟.
قال عمار: تمنعك الوثنية. العذر يملكه المسلم الذي يسلم

الناس من يده ولسانه على أديانهم وأموالهم ودمائهم وأعراضهم، وأما أنت لست من المسلمين فلست هناك. قد تعنف بي، وقد تأمر غلمانك أن يمزقوا علي إهابي، ولكنك إنما تفعل ذلك ظالما ملوما لا عادلا معذورا. وحسبي الله كفيلا.

قال أبو جهل: أترى إلى هذا الدم يخضب وجهي، ويسقي الأرض من رأسي؟

قال عمار: أرى إليه.

قال أبو جهل: أتعلم من سفكه مني، وانتهك بسفكه حرمتي؟

قال عمار: ربما بلغني.

قال أبو جهل: ما صحبتك إذا لمولى بني هاشم، وقد شهروا علي ما شهروا من أنواع الحرب؟.

قال عمار: إنه أخي في الله ولا شأن له بما حل بك.

قال أبو جهل: لو انعكس الأمر، فكنت أنا الذي ارتكبت من حمزة ما ارتكبه حمزة مني، أكان زيد يصاحبك ويماشيك ويمالئك على سيده؟.

قال عمار: اللهم لو كنت مسلما وكان حمزة مشركا فنعم.

قال أبو جهل: ولكني لم أظلم حمزة ولم أعتد عليه، بل صبرت على ظلمه إياي واعتدائه علي.

قال عمار: ولكنك آذيت نبيه، وسببت دينه، وحاولت وما زلت تحاول الوقوف بوجه الحق، والصد عن سبيل الله.

قال أبو جهل: ومحمد ألم يسب ديننا، ويسفه أحلامنا؟

قال عمار: أبو القاسم – صلى الله عليه وآله – إنما أراد إنقاذكم من خرافة أنت تعلم أنها خرافة، وإخراجكم من ظلام أنت تعلم أنه ظلام، فلو صحبتني إليه الليلة لرأيت من حقه ما يجعلك تشكر لحمزة انتفاضته لله ورسوله، ولكنت جديرا، يا أبا الحكم، أن تحتفظ – إذا حسن إسلامك – بتقدمك وشرفك وطاعة عمار وأمثال عمار لقولك، واحترامهم لشخصك، وإني لأرجو – إن اهتديت – أن تكون لك سابقة لا ينساها لك الله، ولا ينساها لك الرسول.

قال أبو جهل: ما رأيت كاليوم لجاجة من عبد سوء! ويح أبي حنظلة ما أعرفه بالناس، ويلك يا بن سمية ألست حليفا لمخزوم تحارب من يحاربون، وتسالم من يسالمون؟

قال عمار: وليس شئ أدل على وفائي لهذا الحلف من دعوتي إياك إلى أبي القاسم، فوالذي نفسي بيده لم أنصح إليك فيما مضى من عمري كما نصحت إليك الآن.

قال أبو جهل: أو تشفع لي عنده إذا أتيته الليلة معك؟

قال عمار: لا تسخر – أبا الحكم – ولا تأخذك العزة بالإثم. إن محمدا نبي رحمة، ورسول خير يبسطهما لمن شاءهما،

ويعطيهما عن أمر ربه دون أن يشق على طلابهما بمن أو شفاعة. وقد سمعته غير مرة يرجو لك الهداية، فكن له - أبا الحكم - كما هو لك، تنصفه - إذن - ويعل مقامك بيننا علو زعيم يسنده الحق، وتسنده المبادئ، لا علو زعيم تمسكه الجهالة، ويفرضه الطغيان، ولا أكذبك أبا الحكم، إن الجهالة والطغيان يلفظان الآن آخر أنفاسهم، فلا تكابر إذا شئت أن تظل زعيما. ولك علي من حلف عمك أن لا أغشك.
الزعامة - والله - بين شفتي النبي، وليس بينك وبينها إلا أن تسلم.
قال أبو جهل: ها أنت توفر لي العذر أيها الأحمق!. أملوم أنا الآن إذا سلخت جلدك كما يسلخ جلد النعجة؟ إنما أنت سيئة من سيئات محمد الذي أدار لسانك بمثل هذا السحر العجيب.
قال عمار: وأين كانت هذه الشجاعة حين عمك قوس أبي عمارة؟ أم خشيت سطوة فتى العرب، وأشبال عبد المطلب، وأمنت عمارا وياسرا الغريبين اللاجئين؟ لو كنت رشيدا، لنهاك الاستخذاء بين يدي حمزة عن الاستفحال أمام عمار. وحسبك من شريعتك أنك تعق عمك وتخفر جواره في قبره.
قال أبو جهل لغلمانه: خذوا هذا الأحمق عسى أن يبدل رأيه إذا مسه السوط.
وبينما كانت السياط تتناوح فوق ظهر عمار بين يدي أبي

جهل، كان الله يبارك روحه في (دار الإسلام)، وينزل فيه وفي أبي جهل هذه الآية: {أومن كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}. يقول ابن عباس: الرجل النير في هذه الآية إنما هو عمار، والرجل المظلم إنما هو عمرو بن هشام.

محنة المستضعفين
قالت سمية بنت خياط لزوجها ياسر: بؤسا لهذا الطاغية لقد امتلأت مكة بحديث قسوته على عمار، وسطوه به، وشدته عليه، ويلي لعمار ولهفي عليه، يقولون: إن أبا جهل منعه من صلاة المغرب والعشاء، ثم أمر السياط أن تصلي عليه في هوي وارتفاع طويلين كهوي عمار وارتفاعه في الأسحار، ويلي لعمار ولهفي عليه. ثم إنهم ليرجفون: أن أبا جهل غير مكتف له من ضرب وحشي يفلق الصخر، فهو مدخر له وراء عذابه الليلي مفاجأة من عذاب النهار تنكشف عن وحشية ما سمعت الغابات بمثلها. ويلي لعمار ولهفي عليه، ألا يقبل هذا الطاغية به بدلا؟ قم – أبا عمار – سله أن يوثقني مكانه، ويجعل من جلدي وقاء لجلده الرقيق ولحمه الطري. قم أبا عمار، إن عمارا لم يتعود مس السياط، ولا خشونة الهراوات.
قال ياسر: احتسبي – يا أمة الله – عذاب عمار عند الله، فقد أمرنا النبي بالصبر، ووعدنا الجنة، ولا تعجلي، فغدا ستقرن أم عمار ويقرن معها أبوه إلى عمار، ويساقان مع ابنهما إلى عذاب النهار، ذلك وعد الله الحق، وليس هو الارجاف ولا

التهويل، وماذا على عمار وأبويه إذا دفعوا من أجسامهم هذا الثمن الزهيد لجنة عرضها السماوات والأرض؟ وماذا على عمار وأبويه إذا كانوا فداء لكلمة الله وسبيلا إلى إنقاذ العامة مما يرهقها بأشد من جلد عمار وأعنف قسوة!.. إلى إنقاذ العامة من الرق والظلم والظلام؟ ماذا علينا إذا دفعنا بهذه التضحية ثمنا لخلود ينعم أرواحنا، ويطيب أسماءنا في الدارين؟ لا تجزعي أم عمار، واطفئي هذه الجمرة الوارية من حزنك ببرد الإيمان واليقين، وليكن عزاءك أنك صائرة منذ الغد إلى لقاء عمار تقاسمينه السياط، وغير السياط من وحشية هذا الذئب الذي يسمونه أبا جهل، وتأسي فليس آل ياسر وحدهم في محنة الإسلام، فهناك طائفة من المستضعفين منوا بمثل ما منينا به فصبروا واحتسبوا، وثب كل مشرك من الطغاة بأحلافه وعبيده من المسلمين فسطحوهم للهموم والأحزان، وأطعموهم للسياط والنيران. لبلال بن رباح أمية بن خلف الجمحي، ولجارية بني مؤمل من عدي عمر بن الخطاب (١) ولسالم مولى أبي حذيفة، وخباب بن الأرت، وصهيب بن سنان، وعبد الله بن مسعود، وعامر بن فهيرة، وأبي فكيهة، وأم عنيس، وزهرة، وغيرهم من إخواننا وأخواتنا.. طواغيتهم من

---

(١) كان ابن الخطاب قبل الإسلام من الأشداء على المسلمين، وكان يعذب هذه الجارية ليفتنها عن دينها. يقول ابن هشام: كان عمر يضربها حتى يمل هو الضرب، فإذا مل قال: (أعتذر إليك لم أتركك إلا عن ملالة). ولم ينقذها منه إلا أبو بكر إذا اشتراها وأعتقها فيمن اشترى وأعتق من عبيد قريش وإمائها وتبلغ عدتهم ثلاث عشر.

سهم، وجمح، وأمية، وزهرة، وتيم، وعدي، فما بالك تقلقين على عمار، وهو مع هذه الطليعة من الفجر؟. هؤلاء الطيبون يؤنسون طريقه إذا استوحش (يا سيدتي) وينيرون ليله إذا أظلم، فله بهم أسوة حسنة، وحسبهم جميعا أنهم بعين الله، والله ولي ثوابهم.

قالت أم عمار: جزيت (أبا عمار) عن الإسلام خير جزاء الصابرين، والله لقد ربطت على كبدي وأطفأت نارها، وكنت أجد فيها أوار الوجد، وشعار الحنان، وكان يخيل إلي أنني أسمع هوي الأسواط وهي تختلف ضارية على جسم ولدي الناحل، فأكاد أحترق، جزيت خيرا، – أبا عمار – وها أنا أسمع هويها ولكني أرى معها اختلاف الملائكة تخلف كل سوط منهم طائفة فتمسح أثره بمناديل من رحمة الله ورضوانه، قم بنا إن ليلنا لطويل ولا يقصره شئ مثل الصلاة. وانسلا إلى مسجد عمار يحييان ليلهما قائمين قاعدين، راكعين ساجدين.

وما أفاقا! فقد كانا مستيقظين عندما طرق عليهما الباب من صباحهما الباكر. وتقول أم عمار في ابتهاج حزين، وابتسام شاحب: أتراها دعوة إلى زيارة عمار؟ فيقول ياسر: ألا تسمعين إلى الطرق الحاقد يضعضع الباب بجنونه، كأن الباب جلد له ابنا أو سب له أبا!، أو كأنه يسلفنا الرعب، ويسبق إلينا العذاب!. انهضي (أم عمار) على بركة الله، فقد طال غياب عمار، وقد هزنا الشوق إليه. ولم يكد يتم كلمته الأخيرة حتى تداعى الباب تحت الهجوم المنقض، واندفع منه غلمان كأنهم

الجن، وفي أيديهم مشاعل توقد أطرافها بالخرق المغموسة بالقطران، ومن ورائهم غلمان آخرون يعتلون أحمالا من الحطب، وكالطيف المزعج أبصر الشيخان غير ذاهلين ولا مكترثين إلى النار ترسل ألسنتها في أطراف الدار، وتأخذها من كل جانب، ثم تمتد إليهما أيد غلاظ شداد فتخطفهما من موقفهما في باب مسجد عمار، وترميهما رميا سريعا فلا يعرفان كيف شد وثاقهما، ولا يشعران إلا وهما يجران جرا بأرجلهما، ورأساهما يعلوان وينخفضان على عنف السحب، في حفر الطريق ونواتئه وأمامهما جماعة من السفهاء، وخلفهما جماعة من المولدين، يرسل أولئك من أمام، ويرسل هؤلاء من وراء في عرضهما ألسنة حدادا فاحشة تسلقهما بأبذأ ما عرف من السب والهجاء، وهما على ذلك يستغفران الله ويسبحانه، ويذكران محمدا أجمل ذكر وأرضاه.

ولم تكن مكة تجهل هذا النبأ، ولكن ضجيج السفهاء أزعج صباحها، وأخرج الناس من بيوتهم يهرعون، وفيهم من محنة آل ياسر عواطف مختلفة تخوض هي الأخرى في أعماق الصدور معركة هائلة.. معركة صامتة إذا نبست في صف الأجلاف، فإنها خرساء في صف المحايدين والمنصفين، ولعل لتعاكس الأهواء هذي يدا في جمع حشد في الفريقين جد غفير، توافوا من هنا وهنا ولكل حافز، ولكل هوى، وخيل لأبي جهل أن هذا الحشد العظيم كله مجند لرأيه، زاحف تحت لوائه، فزها وورم وانتفخ وبذل أقصى ما عنده من فنون

الجفاء والغلظة والقسوة، وزين له ما جهد ببذله ظنه أن التنكيل المنكر الفاحش يرفع معنوية هؤلاء الأنصار، ويخيف من ورائهم المسلمين والميالين إلى الإسلام فيصدهم عن الإيمان، ويردهم إلى الشرك ولو كشف له الغطاء لرأى غير ما قدر، ووجد أكثر هؤلاء المحتشدين من أنصار آل ياسر، وممن يتلقون عبرة الصبر في سبيل الحق، وممن تغريهم الفتنة بذوق هذه الحلاوة التي تصبر هذا الكهل وتصبر أبويه الشيخين على مثل هذا العذاب، ولكن أنى لرعونة الطاغية – كل طاغية – أن تستشف مثل هذه الحكمة، أو تنفذ إلى قرار هذه النفوس.

ولما قدم الزوجان الصالحان إلى جلادهما قال: كيف وجدتما وعد محمد أيها الخائنان؟ فقال ياسر: هذا ما وعد الله ورسوله. وقالت سمية: صدق الله وصدق المرسلون، ثم لم يزيدا. قال أبو جهل: أتلعنان محمدا وتثنيان عل آلهتنا فتسلما؟ أم تغدوان على عذاب لم تسمع بمثله الأذن، ولم تر مثله العين؟ قال ياسر: هذا ما وعدا الله ورسوله. وقالت سمية: صدق الله وصدق المرسلون. قال أبو جهل: لا تطيلا اللجاجة. أنا أخير كما بين عبوس العذاب، وابتسام السلامة فكونا عاقلين ولا تتبعا هذا الأحمق الذي ولدتماه شؤما عليكما وعلى بني مخزوم، قال ياسر: هذا ما وعد الله ورسوله. وقالت سمية: صدق الله، وصدق المرسلون.

قال أبو جهل لغلمانه هذه المرة: أذيقوهما صبوحهما الطيب، ثم ارفعوهما إلى مثوى عمار، لينتظرا معه غداءهما

الشهي إذا اشتعلت الهاجرة. فامتدت الأيدي الغلاظ الشداد بالأسواط تتلوى على جسمي الزوجين الصالحين تلوي الأفاعي، ولكن الأسواط كانت تئن ولا يئن الزوجان الصالحان، فإذا كلت السواعد، وغلب أبو جهل غيظا أمر بإخراجهما سحبا، فسحبا إلى مثوى عمار ينتظران معه اشتعال الهاجرة.

فإذا كانا من ابنهما غير بعيد هش لهما، وهشا له مغتبطين جميعا، كأن ليس بهم إلا العافية، وكأن الجنة التي بها وعدوا نشرت عليهم ظلالها منذ لحظتهم فهم فيها منعمون. قال عمار من قيوده: كيف تجد أنكما يا أبوي؟ فقالا بلسان واحد: كيف تجدك يا بني. قال: إن كان إيماني وكنتما بخير، كنت كذلك. وقالا: إن كان إيماننا وكنت بخير كنا كذلك. وقال ياسر: هنيئا لك يا عمار: ألا أبشرك ببشارة تثبتك فيما أنت فيه، لقد بلغني أن الله أنزل قرآنا يذكرك عامرا لمسجدك الذي حرقه المشركون فقال: {أمن هو قانت آناء الله ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب}

فاستقبل عمار بشارة أبيه بعينين تفيضان دمعا من فرح ورحمة، وتومئان بالسجود شكرا وامتنانا.

ثم تأخذ هذه الأسرة الأسيرة في حديث من هذا يشد عزمها على الاستخفاف بما ينتظرهم من عذاب أبي جهل، مهما بلغ من الوقاحة والنكر والنكال.

* * *

الدهر هكذا
خرج النبي من (دار الإسلام) ذلك اليوم وقت الظهيرة، وكانت الشمس تسلط من نارها على مكة سعيرا: ترسله في الهواء فإذا هو لهب لافح يشوي الوجوه، وتنشره عل الرمال فإذا هو لظى يؤجج بعضها بعضا، ويبعث من توقد بعضها ببعض سعيرا آخر أحمى من السعير.
النبي سائر غير عابئ ولا مكترث، يتقدم نحو (البطحاء) هشا بشا ثابت القدم مستقيم الخطو، ويتقدم ثم يتقدم حتى يطل على (الرمضاء) فيرى، وهول ما يرى: يرى فوق سعير الرمضاء نارا مشبوبة، وإلى جنبها أحواضا من الأدم منزعة تتفايض ماء، ويرى رماحا مشرعة بأيدي عصابة، ومشاعل لاهبة بأيدي عصابة، والعصابتان تدوران حلقة أفرغت، ونطاقا ضرب حول الماء والنار. ويتقدم أبو القاسم صلى الله عليه وآله هشا بشا، ثابت القدم، مستقيم الخطو، حتى يخرق النطاق ويرى إلى شيخين وكهل طرحوا عراة، على ظهورهم بين النار والماء، قد شدت أطرافهم بالحبال، وجثمت على صدورهم صخور ثقال، والجلادون من حولهم يخزونهم من

هنا بأطراف الحراب ويلذعونهم من هنا بأطراف المشاعل، وأبو جهل قائم على رؤوسهم يقول لهم: لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا ثلاث: سب محمد، والبراءة من دينه، والرجوع إلى (اللات والعزى). وهم أرسخ ما كانوا، يسبون اللات والعزى، ويذكرون الله والرسول أطيب ذكر وأرضاه ويستزيدون من عذاب أبي جهل، فإذا رأوا الرسول مقبلا إلى مواساتهم بنفسه، عقد الحب والإيمان لساني عمار وسمية، وانطلق لسان ياسر متوجها إلى النبي يهون عليه ما نزل بهم فيقول: (الدهر هكذا). ويجلس النبي القرفصاء عند رؤوسهم يمسحها بيده الكريمة ويقول رفيقا حنونا: " صبرا آل ياسر، إن موعدكم الجنة " ويرفع طرفه إلى السماء فيقول: " اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت ".

ويجلس النبي ما يجلس إلى جنبهم، ثم ينهض لشأن من شؤون الإسلام، فيودعهم متجلدا صابرا، وإن الألم لهم ليحز في نفسه ما يحز الحديد في جلودهم، فإذا انصرف جن جنون أبي جهل واحتدم غيظه، وأمرهم بخصاله الثلاث: سب محمد، والبراءة من دينه، والرجوع إلى اللات والعزى. ولكنه وجدهم أثبت ما كانوا، وما ندري ما الذي أخرجه عن طوره بعد انصراف أبي القاسم - صلى الله عليه وآله - تثبيت محمد قلوب هؤلاء الأبطال بتفقده إياهم، ودعائه لهم؟ أم كبرياء هؤلاء الأبطال على العذاب وتمردهم على الألم؟ أم استخفافهم بأبي جهل، وسبهم لآلهته؟ أم هذه الأسباب كلها

مجتمعة؟ ما ندري ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن أبا جهل جن بعد منصرف أبي القاسم - صلى الله عليه وآله - فأمر بالسياط - وقد أزيحت الصخور عن صدور فرائسه - فاختلفت قبضاتها الشداد الغلاظ على رؤوس المساكين وصدورهم وجنوبهم لا تبالي أين تقع، ثم أمر بالحراب والمشاعل فشرعت هذه من هنا، وتلك من هناك لا تبالي هذه ولا تلك أين تقع، فإذا عجز الجلادون ولم يظفروا من المجلودين بغير الصبر والثبات، قال أبو جهل: نحوا هذه الآلات من سياط ورماح ومشاعل، وغطوا هؤلاء الأشقياء بالماء، أخمدوا أنفاسهم غرقا.

ويخرج آل ياسر من الماء، ويلتقطون من جحيمهم أنفاسا تلهج بحمد الله والصلاة على نبيه، وعيب اللات والعزى، وذكر أبي جهل بما يكره. عند ذلك تناول أبو جهل إحدى الحراب، - خارجا عن طوره - وغمدها في (سمية) وانثنى هائجا محموما فرفس ياسر، وظل يرفسه حتى لفظ الشيخ آخر أنفاسه. وكان الزوجان الصالحان طليعة الشهداء في الإسلام، وربيئة (١) قافلته إلى الجنة.

زف ياسر وزوجه إلى الجنة بموكب ملائكي أهداهما إلى الرضوان الخالد في جوار الرفيق الأعلى. وبقي عمار للمحنة ينسج من خيوطها بطولته الخالدة في التاريخ، ويضرب منها

----

(١) ربيئة القوم: عينهم ورائدهم. وربيئة الجيش: طليعته.

المثل لأعظم الصبر، وأعظم التضحية، وأعظم الإيمان، وكان بعد أبويه نصب عيني أبي جهل، لا يريحه إلا ليتعبه، ولا يفرج عنه إلا ليعتقله، اتخذ منه الخبيث لعبة رهيبة كلعبة الهر والفأر. يطمعه بالحياة، ثم يريه الموت ألوانا، ولكن انتهى الأمر بينهما نهاية رائعة حين استقام لعمار من الثبات ما جعل بيده سوطا يجلد به نفس أبي جهل بأقسى من السوط الذي يجلد به أبو جهل بدنه، الأمر الذي أغاظ أبا جهل وأحنقه وأنشأ في نفسه عقدة مركبة من الحقد والانتقام دفعته إلى الغلو بتعذيب فريسته غلوا همجيا لا يطاق، وعمار مقيم على صبره، معتصم بثباته، يجد النبي مواسيا له في محنته، يزوره كلما ألم به عذاب أبي جهل، فيمسح رأسه، ويؤنس وحشته ويسأل الله تخفيف ما به فيقول: " يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت بردا وسلاما على إبراهيم ". ويجد عمار برد هذا الدعاء في قلبه، فيعتصم بالثبات ويقيم على الصبر.

وبلغ به مرة حز الحديد، ولفح النار، وضغط الماء مبلغا لم يدر معه ما يقول: فلما أطلقه أبو جهل، أقبل على النبي كئيب الوجه، منكسر النفس، دامع العين، فقال له النبي: ما وراءك؟. قال عمار: (شر يا رسول الله، والله ما تركوني حتى ذكرت آلهتهم بخير، وذكرتك بما تكره). قال النبي: " فكيف تجد قلبك؟ " قال عمار: (أجده مطمئنا بالإيمان) قال النبي: " فإن عادوا فعد " ونزلت في عمار آية جديدة: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من

شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم}.
ولم ينجه من أبي جهل إلا أمر الله بالهجرة إلى الحبشة.
فكان من أهل القافلة الثانية إلى دار النجاشي، وظل فيها ينعم بالدعة والاستقرار حتى عاد فيمن عاد إلى المدينة بعد هجرة النبي إليها.
قال المحدث: وكان صدى ثباته هذا - من بعد - أن كان علامة الهدى، يقول له النبي: " تقتلك الفئة الباغية " ويقول فيه: " إن عمارا ملئ إيمانا إلى مشاشه " ويقول: " من يعاد عمارا يعاده الله، ومن يبغض عمارا يبغضه الله " ويسميه: " الطيب المطيب " وتقول عائشة: (ما من أحد من أصحاب رسول الله أشاء أن أقول فيه إلا قلت إلا عمارا، فإني سمعت رسول الله يقول: " إنه ملئ إيمانا إلى أخمص قدميه " وهو أحد أربعة اشتاقت لهم الجنة: أولهم علي، وبقيتهم سلمان الفارسي وبلال بن رباح. وسئل حذيفة بن اليمان - وهو يحتضر - في فتنة عثمان بن عفان. عن الإمام الحق إذا اختلف الناس فقال: عليكم بابن سمية، فإنه لن يفارق الحق حتى يموت، وقيل: إنه قال: هكذا سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وآله -.
قال المحدث: وصلى عمار إلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، وهو من أهل بيعة الرضوان، ومن رجال بدر وأحد

والخندق. شهد مشاهد رسول الله كلها، وكان إحدى راياته في كثير منها، وشهد حرب (الردة) في أيام أبي بكر، وولي الكوفة في عهد عمر، وكان بطلا في معارضة عثمان، ثم كان راية من رايات علي يومي الجمل والصفين، وكان مصدرا من مصادر العلم والحديث، روى عنه ابن عباس وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن جعفر وأبو لاس الخزاعي وأبو الطفيل وجماعة من التابعين.

قال المحدث: ذلك خصم أبي جهل أمس، وضيف الحبشة اليوم ولنا مع بعض أخباره لقاء في بقية قصته.

* * *

يوم التأسيس

كان الإسلام مستقرا في المدينة يوم هاجر إليها النبي. سبقه إليها بعد بيعة العقبة على أيدي نقباء الأوس والخزرج من أنصاره اليمانيين، فحياة النبي فيها تختلف عن حياته في مكة اختلافا عظيما، كان هناك (داعيا) فقط لم يتح له عناد قريش أن يجتاز مرحلة الدعوة القاصرة على الوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، وهو هنا مؤسس يفرغ من مرحلة الدعوة أو يكاد، ويبدأ مرحلة التنظيم والتعمير والإدارة واستيفاء التشريع، وقد عظمت حاجته إلى الانشاء عندما تلاحق به مسلمو مكة، ومهاجرو الحبشة، واجتمعوا حوله مشكلين نواة دولة في داره الآمنة، وسلطانه الجديد.

غصت بيوت المسلمين من الأنصار بمن استقبلت من المسلمين المهاجرين، ولم تثقل ضيافة هؤلاء على كرم أولئك وأريحياتهم، ولكن القادمين لم يفدوا في موسم ينقضي، ولم يقبلوا على زيارة لها نهاية، وإنما هم منذ اليوم مواطنون كتب على (المدينة) أن تكون لهم دار إقامة، وكتب عليهم أن يؤثروا المدينة على مساقط رؤوسهم فلا بد – إذا – من حل يجعل لهذه

الضيافة حدا، ويجعل الضيف والمضيف كلا في حل من صاحبه، يملك كل منهما حريته مستقبلين واجباتهما الثقيلة في تأسيس حياة مستقرة مستمرة.

من هنا انطلق النبي إلى ميدان التأسيس فبدأه ببناء مساكن صحابته المهاجرة، وبدأ تأسيس هذه المساكن ببناء مسجده: بيت الإسلام المعنوي.

وكان عمار ضيف مبشر بن عبد المنذر حتى أقطعه رسول الله مكان داره وأعانه على بنائها.

وكان في المسلمين جماعة لم ينفذ الإسلام إلى أعماقهم، ولم يجاوز شفاههم إلى صدورهم، وإنما هم ممن دخل الإسلام طمعا، أو انحاز إليه بعدما تبين له أنه صفقة رابحة، يغنم من ورائه مالا ونفوذا، أو يطمح منه إلى منصب عظيم، وكان هؤلاء قوما غير قليلين، ولا ضعفاء ولم يكن الله ورسوله غافلين عنهم، أنزل الله فيهم قرآنا في سور كثيرة منه، أجمعها وأحصاها سورة براءة والمنافقين والأحزاب. لم يجهل النبي نفاقهم ولكنه عفا عنهم، بل متعهم بما متع به المؤمنين من الحقوق والواجبات عملا بمبادئه السلمية، التي لا تقول لمن ألقى السلم: لست مسلما، ولا تدوس حرمة الإسلام بتعزير معتصم به، محافظ على حدوده وقوانينه. وإن كانت هذه الحدود والقوانين قلقة في نفسه، مزعزعة في إيمانه.

وما كان عمار إذا ذكر هؤلاء إلا من صفوة المؤمنين، وجد

أمنة في المدينة، ونجا إلى جنب النبي فيها من الفتنة والعذاب، ولكن حماسته للإسلام لم تخف، وسورته الإيمانية لم تهدأ، تحول استبساله الضاري في تحمل العذاب من الميدان السلبي، إلى استبسال ضار في تحمل الأعباء من الميدان الإيجابي، يرهق نفسه بما لا يرهق المسلمون به أنفسهم من الإخلاص المضاعف لله ولرسوله، ولكنه ذلك الصامت البعيد عن الرياء والثرثرة والفضول صمته طويل، وهو صمت تأمل ومعرفة، لا يقطعه إلا الضروري من الكلام، فإذا طال ولم تقطعه ضرورة، قطعة هذا التنفس المؤمن يرسل هذه الكلمة: (عائذ بالله من فتنة) ثم يتصل. وكأنه كان ينتظر الفتنة – وقد ذاق أمرها طعما – من هؤلاء المنافقين الذين يرى صدورهم ما تزال حرجة بالإسلام، تنفس عليه وعلى غيره من المعذبين تقدمهم وارتفاع شأنهم، وتنكر على الإسلام أن سوى بينهم وبين أتباعهم، فهدم الفوارق، ومحا العصبيات، وأذهب النعرة، وآخى بين السود والبيض، وبين السادة والعبيد. كان عمار ينتظر الفتنة من أجل هذا كله، فيقطع صمته، إذا طال صمته، بهذا النفس المؤمن: (عائذ بالله من فتنة).

وأقبل النبي ذات صباح على (مربد) سهل وسهيل يتيمي عمرو النجاري، وقد أرضاهما بثمن قيم كافلهما معاذ بن عفراء ليكون مسجدا للنبي ومسكنا. فشمر النبي عن ساعديه يعمل في بناء المسجد كواحد من العمال المسلمين، وكأن هذه المساواة الإسلامية دعوة بلسان الحال لكافة المسلمين، أن

يشاركوا بالعمل دون استكبار ولا أنفة.
لئن قعدنا والنبي يعمل *
لذاك منا العمل المضلل
هذه كانت أنشودة المسلمين في جواب عمل النبي، تحدوهم إلى جد العمل في نقض الأساس، وبنائه من جديد، ونقل اللبن والطين وجذوع النخل يرفعون بها الجدران، ويمدون السقوف، ماضين جميعا في عملهم مرحين فرحين، يحمل كل مسلم لبنة واحدة، وعمار يحمل لبنتين اثنتين، ويبذل كل مسلم جهدا واحدا، ويأبى عمار إلا أن يبذل جهدين اثنين، وهو ذاهب آيب مستعينا عل جهده المضاعف – وقد سكنت الأنشودة الأولى – بتلحين أغنية قيل: إن عليا عليه السلام وضعها له، يبدأها ويعيدها، والنبي خلفه يحمل لبنته ويعيد بعده آخر الأنشودة.
يقول عمار: لا يستوي من يعمر المساجدا
ويقول النبي: المساجدا
يقول: عمار: يدأب فيه قائما وقاعدا
ويقول النبي: وقاعدا
يقول عمار: ومن يرى عن الغبار حائدا
ويقول النبي: حائدا
ويطلع على العمل من بيته أثناء هذا النشيد عثمان بن عفان ويثور في وجهه غبار من هدم أحد الجدران المتداعية فيمنع

أنفه منه بطرف ثوبه، ويحيد عن طريقه، ثم يستقبل عمله في المسجد، فيسمع إلى عمار يتغنى:

لا يستوي من يعمر المساجدا *
يدأب فيه قائما وقاعد *
ومن يرى عن الغبار حائدا

ويسمع إلى النبي يردد قوافي الأغنية، فتحز الأغنية في نفسه شيئا بعد شئ حتى إذا هو يجدها تعنيه، وتعرض به، وتمسه مسا مباشرا، ولا يستطيع أن يقول لعمار - والنبي خلفه - شيئا، فينتظر فرصة يخلو به فيها، وتسنح الفرصة فيقول له: (قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا بن سمية، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك أيها العبد). وتبلغ الحكاية رسول الله فيغضب ويقول: " ما لهم ولعمار!. يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عمارا جلدة ما بين عيني.. إن عمارا جلدة أنفي، فإذا بلغ ذلك - يعني قوله - الرجل - يعني عثمان - فلم يستبق فاجتنبوه ".

وشكا عمار ذات يوم فتأخر عن العمل، فقيل: إنه ميت من وعكته تلك، وسمع النبي مقالة المنافقين هذه، فنفض النبي لبنته وقال: " ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية " ولما عاد عمار إلى عمله أقبل عليه رفيقا به، مشتاقا إليه، وجعل يمسح رأسه ويقول: " تقتلك الفئة الباغية "، ثم طال بعد ذلك تعريض المنافقين بعمار، والتحدث عن موته، وطال تطمين النبي

لعمار، وتكريره قوله: تقتله الفئة الباغية: إنما تقتله الفئة الباغية.

وكان لهذه القولة من بعد أثرة عظيم في نفس عمار، كما كان لها شأن خطير في الإسلام.

* * *

يوم الخندق
خمس سنوات مضت على الهجرة حفلت بجسام الأحداث، ودفعت الإسلام خمسة قرون إلى الإمام، أذل النبي خلالها (قريشا) وأذل (اليهود) وأذل (غطفان) وأذل (هذيلا) ولم تبق جمرة عربية إلا أطفأها، ولا شوكة عصبية إلا كسرها، مهاجما تارة، ومدافعا أخرى، وداعيا إلى الله والسلام في كل حال.
وكان من هذا أن عظم أمر الإسلام، وامتد صوت النبي.
وكان مع هذين أن نما عدو الإسلام، وتألبت القوى على النبي كل قوة لها عليه ثأر، وكل عدو له عنده طائلة.
قريش من عشيرته في مسقط رأسه تطلبه بتسفيه أحلامها ثلاثة عشر عاما، من مبعثه حتى الهجرة، تجاهده ويجاهدها، وتكابده ويكابدها، وتبذل خلال المجاهدة والمكابدة من أنفسها ومن أموالها ما يشاء، فيأبى عليها، ويثير بها، ويفرق عنها، فإذا فصل عنها إلى مهجره في عافية وأمان، لم يكد يغيب عنها إلا شهورا حتى ينقض عليها في (بدر) وغير (بدر) من أيامه الغر، وغزواته المحجلة، بجيشه الكامل مرة،

وبسراياه مرات، فيزهق من أرواحها ما يزهق ويغنم من أموالها ما يغنم، ويعود إلى (مدينته) المنورة منصورا موفورا. كانت قريش تحاربه على تسفيه أحلامها في ظاهر الأمر، وهي اليوم تحاربه ثأرا لأموالها ودمائها ونفوذها في ظاهر الأمر وباطنه معا. واليهود من جيرانه في مهجره وأصحاب الأطيان والصنائع فيه، يطلبونه بإجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير عن المدينة، وهم ما هم مكانة بين اليهود، ورسوخا في أرض تلك الربوع وثرواتها. رأوا به يوم هاجر إلى بلدهم خطرا على نفوذهم، فحاولوا الفتنة، وأخذتهم كبرياء المال، وظنوا أن حظهم من المعرفة يسندهم في حربهم محمدا، وأن لهم من الرسوخ في بلدهم، والنفوذ والانتشار في ضواحيه، قوة لا يملكها محمد اللاجئ إلى بعض مواطنيهم، الفار من أهله ولما يسلم على حياته، هذا كله أغراهم بالنبي وبالمسلمين، وما كان للنبي أن يقر اعتداء يهود، أو يذعن لتحكمات متحكم، فإنه إن يقر أو يذعن حكم - إذن - على دعوته بالفشل، وكتب على نفسه الهزيمة، ولم يكن له - إذن من القوة المعنوية نصيب يثبت أقدام أصحابه في ميدان. لذلك أنذر بني قينقاع أولا، وأنذر بني النضير بعد ذلك، وكان من نتائج استخفاف هؤلاء وأولئك إجلاؤهم جميعا أذلاء صاغرين عن (المدينة) لا ينقلون منها غير سلامة أبدانهم، وقليلا من متاع لا يزيد على زاد الطريق من (المدينة) إلى (خيبر) من الحجاز، أو إلى (أذرعات) من الشام.

وهذه (غطفان) و (هذيل) وغيرهما من قبائل الحجاز القريبة، وقبائل نجد وحدود سورية البعيدة، تطلبه بثارات فوضاها التي يرعبها شبح نظامه، وتنقم عليه وضعه العمل والكسب موردا للعيش موضع الغزو والسلب، فتكشر له عن أنياب أغوال، وترهف له مخالب ذئاب.

قريش من عشيرته في مسقط رأسه، واليهود من جيرانه في مهجره، وغطفان وهذيل وغيرهما من قبائل الحجاز القريبة، وقبائل نجد وحدود سورية البعيدة. دنيا العرب كلها تألبت عليه. عظم أمر الإسلام ولكن نما عدوه نموا هائلا عظيما، يضاف إلى هذا أن النبي ممتحن في بيته الإسلامي بمنافقين يكاد يكون نفاقهم عورة تشف من صفوفه عن نقاط الضعف، وتدل على هنوات حصونه وثغوره. آيات نبوة محمد كثيرة، ولا شئ أدل منها على المعجزة من اطمئنانه إلى النصر في هذا العالم المهتاج المتزاحف نحوه من جهاته كالنار تشب مجنونة في دائرة عظيمة، ويمشي بعضها إلى بعض، ثم تلتقي مطبقة إطباقها الرهيب على النقطة.

ولو كشف الغطاء لرأيت عمارا ذلك الأسمر الطويل العريض الأصلع الصامت يلزم النبي كظله، يبين مكانه منه خلال الأحداث الكبرى هذه التي أعزت الإسلام في خمس سنوات، وأنمت عدد عوده في الجزيرة، فابن سمية الذي ذاق الموت حارا وذاقه باردا، ولم يبال به باردا كما لم يبال به حارا يذوقه الموت خلال هذه المعارك فيباليه ويأبه له ويحالفه وينصب من

يديه على عدوه حارا تارة، وباردا تارة، فيصيب به مقاتل قوم كانوا بالأمس القريب يعرضونه على الموت جبارين.

أقبل ذات يوم على المسجد كعادته يسمع إلى النبي فيتعلم، ويمضي لأمره فيما يأمره به فيطيع. ولكنه يرى في طريقه وجوما يغير مظهر النصر على وجوه المسلمين، ويرى في المسجد حركة كئيبة لا تلائم ما عهده في أمسه من استعداد النبي للراحة بأصحابه بعد معاركهم المتواصلة، وتفرغه لتنظيمهم وتعليمهم وإنشاء قواعد الاستقرار في (مدينتهم). فيرتاب عمار ويهم بأن يسأل، ولكن حكمة لقمان: - حكمة الصمت - تمنعه وتأمره أن يتريث حتى يساق إليه الحديث، أو تسنح له المعرفة، دون فضول، ولم يخطئ فقد كان من النبي حيث لا تكتم عليه أخفى الأسرار، فما بالك بسر انتشر حتى أظلمت له وجوه يعرفها بالنفاق؟ وشاع حتى خيم على أحياء المسلمين في المدينة كالكابوس! وها هو يعلم فور جلوسه في مكانه من الصحابة المقربين، أن اليهود من بني النضير يسعون سعيهم الخبيث لتأليب الأحزاب العربية على النبي، ويمشون بوسائلهم المجرمة كلها إلى تأليف جبهة تجمع غير المسلمين في ديار العرب، وهم الكثرة الكاثرة، وتتجه بهم إلى المسلمين القلة في (المدينة) فتضربهم الضربة القاضية.

علم أن حيي بن أخطب وسلام بن الحقيق، ونفرا من بني النضير وزعماء اليهود ألبوا قريشا، فساق أبو سفيان صخر بن

حرب أربعة آلاف محارب حملهم على ثلاثمائة فرس وخمسمائة وألف بعير، وعلى لوائه عثمان بن طلحة، وألبوا بني فزارة، فساق عيينة بن حصين بن حذيفة جيشا كثيفا حمله على ألف بعير، وألبوا بني أشجع، فساق مسعر بن رخيلة أربعمائة محارب، وألبوا بني مرة، فساق الحارث بن عوف أربعمائة محارب، وألبوا بني سليم، فساقوا سبعمائة محارب، وألبوا بني أسد وبني سعد، حتى جمعوا من كل هؤلاء، وممن انحاز إليهم جيشا لم تعرف العرب مثله من قبل، وزعموا عليه أبا سفيان، وهو الآن في طريقه إلى المدينة، ثم ضمن حيي لقريش إفساد بني قريظة من يهود المدينة، ودفعها إلى نقض ما عاهدت عليه النبي من السلم والوفاء لقاء بقائها. وبذلك ينشر الفوضى في صفوف المدينة من داخلها، ويسهل على هذا الجيش الجبار مهمة الانقضاض الخاطف في فصلهم الشتائي القارس.

وعلم عمار أن من حق المسلمين أن تظلم وجوههم لهذا الخطب وأن من حقهم أن تكتئب حركتهم لهذه النازلة، فهم مستقبلون قوة منظمة تظاهرت العرب على حشدها، وانتخبت الأشد فالأشد مقبلة على يوم فاصل. ولكنه تعود أن يستمد حكمه على هذه الأمور من مظهر النبي، فلا يكتئب مع المكتئبين قبل أن يرى الحزن في وجه النبي، وها هو يرى إلى أسارير أبي القاسم منبسطة ترتسم عليها نفس مطمئنة، ويرى إلى وجهه مشرقا يتحدث في أمر الجيش اليهودي (الصخري)

كما يتحدث في أمر من أمور الحياة الواقعة التي لا تقلق البال ولا تشوش الخاطر، ولا من شأنها أن تشوش خاطرا أو تقلق بالا، فيطمئن عمار كما يطمئن الذين خلصت قلوبهم للإسلام، واستقرت بإيمانها استقرارا لا يرى الهول هولا مهما عظم.

ويعقد النبي مجلسه يشاور فيه أصحابه، ويرى ما عندهم لرد ما دهمهم من اليهود والمشركين، ويحضر المجلس فرسان الرأي وفرسان الحرب من مهاجرين وأنصار، فيطرح على البساط رأيان: أحدهما – لقاء العدو في (أحد) أو في مكان يلاقونهم إليه خارج المدينة، وثانيهما – التحصن بالمدينة (العذراء) فما غلبت في عقرها قط، ويفوز الرأي الأخير ثم يزيده رجحانا وأصالة انضمام سلمان الفارسي إليه بخطة أدهشت القوم حتى علت الصيحة بعد بسطه تتداعى سلمان، يقول المهاجرون: سلمان منا، ويقول الأنصار: سلمان منا، ويحجز النبي بين الفريقين فيقول: سلمان منا أهل البيت.

قال سلمان: أرى أن نستقر في المدينة، نحصن ثغورها، ثم نسورها بخندق يحول بيننا وبين القوم، فإذا حجزوا وراءه غلبناهم بالمطاولة وهزمناهم بالتدبير. وكان الوقت معنا دونهم، فنحن في مآمننا فلا تزعجنا هذه الرياح، ولا تربكنا هذه الأمطار، ولا يعادينا من (الشتاء) ما يعاديهم منه في مخيماتهم التي لا تكاد تثبت لعاصفة، ثم إن عندنا من الذخيرة والمؤن ما يكفينا إلى ما شاء الله، فلنلبث في بيوتنا، ولنغلق على مدينتنا

بخندق يكبح جماحهم، فإذا تمرد عليه منهم متمرد كان الموت له بالمرصاد.

ولم يتفرق القوم إلى بيوتهم بل نهضوا – وعلى رأسهم النبي – إلى مباشرة الحفر، وأمر النبي بالفؤوس والمساحي والمكاتل من آلات الحفر، وبدأ باسم الله، فكان أول ضارب في خط الخندق، وأول مغبر بترابه، وأول مالئ مكتل (قفة) من حفره. وكان – وهو ماض في الحفر – يشجع المسلمين على المضي وبذل الوسع في العمل بهذه السجعة

" اللهم إن العيش عيش الآخرة

فاغفر إلى الأنصار والمهاجرة "

فأما الذين خلصت قلوبهم للإسلام، فيمضون كما يشاء النبي سراعا خفافا ينفذون إلى أحشاء الأرض، وأما المنافقون فيمضون وأنين متثاقلين، لا يرسلون أيديهم في العمل إلا رياء، فإذا سنحت لهم غفلة تسللوا من الخندق إلى بيوتهم لواذا، واستخفوا بين جدرانها متساقطين هما وإعياء، حتى حكى الله قصة هؤلاء لنبيه وحيا فقال: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب ليم). كما حكى قصة المؤمنين الذين لا ينصرفون من عملهم إذا عرضت لأحدهم حاجة إلا بعد إذن النبي فقال: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم).

وتمضي أيام ستة يتم في آخرها سور للمدينة لا تشبهه الأسوار التي ألفتها العرب، تلك ناهضة في الجو، وهذا ذاهب في الأرض، في بدعة كانت مفاجأة إسلامية بهت لها الذين كفروا. ولا تتم هذه الأيام إلا وقد بلا فيها عمار بلاءين اثنين، إذا بلا كل مسلم بلاء واحدا، ثم لم تتم الأيام الستة هذه دون أن يشهد المسلمون جميعا نبيهم العظيم يسعى إلى عمار ينفض التراب عن رأسه قائلا كلمته الخالدة: " ويحك يا بن سمية تقتلك الفئة الباغية ".

قال المحدث: وماذا أقص عليك من يوم الخندق وراء ما يتصل بعمار؟ إنني إذن أخرج من حكاية إلى حكاية، نعم لك علي أن أجمل إليك القول لئلا تظل من هذا الاستطراد في شوق محير.

قال: يوم الخندق كان من أغر أيام الفتح المحمدي، وأبعدها أثرا في نصر الإسلام، وكان أعنف أخطاره العنيفة ما يهب من بطانة النبي أولئك المنافقين، كانوا يخذلون الناس، ويشيعون فيهم أن محمدا وعدنا كنوز كسرى وقيصر، وها هو يخط قبورنا في خندقه هذا الذي لا يرد عنا ظلمة القبور!.

أكان يعني بوعده من كنز كسرى هذه البدعة الأعجمية التي لن تغنيه من جيش أبي سفيان، ولا تمنعه شيئا؟ لقد وعدنا بكنز وها هو الكنز!. أما جواهره فليست غير جثثنا وأشلائنا. وذهبوا ماضين من هذا بلحن من القول مختلف اختلافا شديدا، ولكنه يتفق على إذاعة الرهبة والجزع في أحياء المدينة، وقد بلغوا من إذاعة هذا مبلغا أشاع من الرهبة والجزع ما لا سبيل إلى تصويره بأروع وأدق مما صوره القرآن الكريم به، إذ يقول: (إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسف منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا).

وكانت أدوات النصر القاهرة على هذه المحنة ثلاثا: خطة سلمان وسيف وعلي، وتدبير النبي، وأعظمها هذا التدبير، إذ أرسل نعيم بن مسعود - وكان يكتم إسلامه - يسعى بين قريش واليهود حتى قضى على روحهم المعنوي، وأفسد ما بينهم من تبادل الثقة والتعاون، غارسا في نفوس الأحزاب من القلق والشك والحذر ما ساعده على تفتيت قواهم، وبهذا أجهز عليهم، فولوا الأدبار في ليلة لم يحاربهم فيها غير نفوسهم والرياح!.

قال المحدث: وبقيت بنو قريظة بعد نقضها المعاهدة في حصونها ومعها حيي بن أخطب. وهل تنتظر إلا أن تلقى جزاء خيانتها؟ لقد احتكمت - وهي محصورة - إلى حليفها سعد بن معاذ زعيم الأوس، فحكم عليها سعد بالفناء.

* * *

يوم السقيفة
قال المحدث: وقد خير عمار بعد النبي بين الراحة والغنى، وبين الفقر والتعب، فاختار أشق الحياتين عيشا، وأثقلهما عبئا، وأوعرهما طريقا، وكان مع ذلك سليم العقل سديد الاختيار، موفق الرأي. كان الرجل من رفاق الإسلام الأولين، فهو يعرف أسرار حقه، وأهدى سبله، ثم لا يجهل ما عرف ولا يتنكر لما ألف، وهو رجل حق، فيه منه صلابته واندفاعه وعدم مبالاته بالأهوال والمشاق، وهو فوق ذلك مركز ثقل في نظر المسلمين يرون إليه من زواياهم المختلفة، ووجهاتهم المتباعدة علامة حق: تقتله الفئة الباغية. وهذا رصيد لا يضيعه رجل كعمار ثابت الإيمان، واسع المعرفة، راسخ العقيدة، بظاهر من الرخاء وقليل من العافية، ألم يكن ابن أول شهيدين في الإسلام، وأشد مسلم بلاء في المبدأ؟ إنه لن يسمح للتاريخ أن يسجل عليه ردة بعد إيمان، وأعرابية بعد هجرة، وضعفا بعد قوة، وانخذالا بعد نصر، إن آثار العذاب ما تزال منقوشة على ظهره بقعا برصا تضحك من أبي جهل وتهزأ به، ولم يمض عليها إلا عشرون سنة، أتراه احتمل

ما احتمل، ونهض بما تنوء تحته الجبال ثمنا لهدى عشرين سنة فقط؟ خسر - إذن - عمار وضل وفأل رأيه!.

قال المحدث: هذا كان من حساب عمار عندما خير واختار، منحازا إلى أصغر كتلة حجما وأكبرها معنى، وكان الناس من مهاجرين وأنصار أحزابا، إذ ظهرت بعد النبي معلنة تعافس وتشاكس، فقد كانت قائمة في عهد النبي يعرفها، ويعلم ذوات صدورها ويعلن من أمرها ما حفظه عمار، وأدرك مغزاه، ووطن نفسه على احتمال شدائده. وقد علم فيما علم أن المدينة تنغلق على أربعة أحزاب، ثلاثة منها زمنية أتم ما تكون الأحزاب السياسية في كل عصر، فهي أحزاب مصلحية تتضارب حين تشاء لها مصالحها أن تتضارب، وتتصافح حين تشاء لها مصالحها أن تتصافح، وعلم أنها متفقة في مكمنها من عهد النبي اتفاق طريق، فهي مجتمعة على مصلحتها المشتركة التي بدت لهم في إزاحة علي عن مركزه. ثم رآها من بعد مختلفة أشد الاختلاف، يفئ أكثرها إلى علي، وينادي باسمه، ثم ينحرف بعض، ويستقيم مستمرا في الاستقامة لعلي بعض آخر، وعلي ماض لشأن الحق لا يحزنه من انحرف. ولا يفرحه من استقام.

قال المحدث: أما هذه الأحزاب الأربعة التي رآها عمار واختار أضعفها دنيا، وأقواها آخرة.

فأولها حزب أبي بكر وعمر، وكان هذا حزب الساعة بمن

اجتمع له من فلول قريش كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وبما يتخذ زعماؤه من مظهر الخشونة والشظف والتقشف، وبما يعتمد عليه من مكان أمين من أمهات المسلمين في بيت النبي: هما عائشة بنت أبي بكر، وناهيك بها امرأة حزب، وحفصة بنت عمر. وبمن استدرجهم هذا الحزب من الأنصار، واستخدمهم عيونا على إخوانهم مكتشفا بهم نقاط الضعف في هذه الكتلة الضخمة، كعويم بن ساعدة، ومعن بن عدي، وهما من ذوي الملكات السياسية المرنة، وممن يملكون دموع أعينهم (١).

ثانيها: حزب الأنصار وهذا يلي ذاك قوة ونفوذا بمن اجتمع له من وجوه ورؤساء ومفكرين، وبما يملك من حجة الإيواء والنصرة والتضحيات التي لا تحصى، وبما يؤيده من أصالته في المدينة ورسوخه فيها، وبما يراوده من أطياف إرثه المنحدرة إليه من تاريخ اليمن. وكان زعيم هذا الحزب سعد بن عبادة الخزرجي ولسانه المنذر بن الحباب بن الجموح، ونقطة الضعف فيه منافسة الأوس وحسد الرحم، على أنه لم يلتق مع سابقه وتاليه من الأحزاب إلا في الطريق، فلما خاب أمله بالخلافة عاد علويا، واستمر علويا.

ثالثها: حزب أبي سفيان، وهو حزب لعله أعلم هذه الأحزاب بالسياسة، ولكن الذي يضعف أمره، يهون خطره،

----

(١) يقول النبي: إذا تم نفاق المرء ملك دموع عينيه.

موقف زعيمه من حركة الإسلام ابتداء، وتواتر نفاقه انتهاء، ووضوح مطامعه في كل حال، لذلك اختبأ وراء ابن عمه عثمان، وخلف صهره عبد الرحمن بن عوف سيد بني زهرة، وأرسل من أفاعيه المغيرة بن شعبة وابنه معاوية، واتصل بأخلاط المشركين ممن دخلوا الإسلام كرها، وراق لهم أن يتخذوه سلما، ومضى يعمل على مهل لا يستطيل الوقت ولا تفوته الفرصة. استكبر بعدئذ أو أظهر استكبار خلافة أبي بكر – وهو أقل حي في قريش – فانضم إلى علي، فإذا رفضه علي، هدأ وتقرب إلى عمر بحزبه على دخل ومداهنة، فإذا قربه عمر وطالت به الأيام دفع المغيرة بن شعبة إلى اغتياله، ودفع هذا غلامه أبا لؤلؤة فاغتال عمر، ودفع عمر الخلافة ثمنا لاغتياله إلى أبي سفيان بيد عثمان. أبو سفيان قتل عمر وتسلم منه الخلافة، وعمر مغتبط محبور، لأن أبا سفيان يتملقه ويتجند لخصمه في ظاهر الأمر، ويتجند عليه وعلى خصمه معا في باطنه، وكان هذا الداهية زعيم حزب قائم في المدينة أيام النبي، يعرفه النبي ولا يجد عليه سبيلا لاستتاره.

ولا يخرج عن هذه الأحزاب في عاصمة النبوة إلا حزب الأقلية: علي ووراءه بنو هاشم، ونفر أحصيناهم فلم يزيدوا على سبعة، هم: سلمان الفارسي، وأبو ذر، وعمار، والمقداد، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي، وفروة بن عمر الأنصاري، والزبير بن العوام. وقد شذ هذا الأخير بعد أن نشأ ابنه عبد الله متأثرا بهوى أمه أسماء بنت أبي بكر.

قال المحدث: وقد اختار عمار هذا الحزب القليل، وبرر قلته عنده كون النبي إلى جانبه، وكون زعيمه علي محسودا بتأييد النبي له، وبفضائل ليس لحاسديه واحدة منها، وكونه الحزب المترفع بالحق، المرجو له، فلا يصطنع الدسائس، ولا يتمرغ في الأوحال، وسائله للوصول شريفة كغاياته، فلو خير بين الوصول منحرفا، وبين التأخر مستقيما، لم يتردد بإيثار التضحية على العافية. وكان استعداده للتضحية من أكبر عوامل قلته وكثرة غيره، وقد رأيناه بعد ذلك مستقيما على طريقته يرى النجاح - كل النجاح - بانتشار الإسلام وعلو كلمته، ثم لا يقيم لنجاحه الشخصي أي وزن، وبهذا كان له أوفر حظوظ الناجحين في التاريخ.

قال المحدث: ولم يكن اختيار عمار حزب الأقلية حبا بالبلاء ولا شهوة للانفراد، وإنما كان نتيجة لانصهاره بوهج الحرارة النبوية، التي نبضت بها دقات حياته منه انتشرت أشعة الإسلام، وقد بلغت هذه الحرارة أقصى درجاتها في آخر سنة من حياة النبي. وما كان عمار غائبا تلك السنة، بل كان كالعهد به قريبا من النبي يمتلئ منه صمته المفكر وعيا وإيمانا وعلما، وكان النبي في هذه السنة قلقا على مصير الإسلام، مؤرقا تزعجه فتقسو في إزعاجه فتن يراها مقبلة كقطع الليل المظلم، وكان يهب أنشط ما كان لدفع هذه الفتن لا يرى أحدا قويا على دفعها بعده غير (علي) فيحصر همه من سنته تلك، ويفرغ جهده لا للنص على أبي الحسن فقط، بل على إيصاله

إلى مركز الخلافة رغم تلك الأحزاب صيانة لحقوقها بالذات، وحفظا لبيضة الدين.

قال المحدث: وإليك ما رآه عمار خلال تلك السنة في قصة رائعة العبر:

أطلت السنة العاشرة الهجرية (٦٣٢ م) بفتح عجب، ونصر لم يعهد لحركة تحرير في التاريخ، فقد ظهر الإسلام، وعلت كلمته حتى حج النبي في أخريات السنة التاسعة حجة الوداع وخلفه عشرون ومئة ألف، توافدوا إليه من أطراف الجزيرة: شمالها وجنوبها، وزحفوا براياتهم الإسلامية من اليمن وتهامة وحضرموت ومهرة واليمامة ونجد وأطراف الحجاز، في مظهر لا شئ أدل منه على خضوع العرب في شبه الجزيرة كلها للوحدة الإسلامية، وانقيادهم للنظام الجديد.

بات الإسلام – إذا – منيعا، وبات حكمه نافذا يتلفت إلى تطهير الهلال الخصيب من شرك وتثليث، كما طهر الجزيرة من شرك وتثليث، بل إنه ليتلفت إلى دولة الإنسان في عالم واحد حر، ويسعى إلى تحقيق وحدة معنوية تنتظم هذا الكوكب الأرضي كله، وتفرض عليه توحيدها وعدلها وخيرها، ما بهر الدنيا من فضائلها ونورها.

ولم يكن شئ يسعد النبي أو يدخل على نفسه من الغبطة ما أسعده هذا الظفر، وأدخل الغبطة على نفسه من سيادة الله، وسيطرة أحكامه.

ولكن هذه السعادة – وإنها لخليقة أن تملأ نفسه الكريمة وتفيض – كان يشوبها حزن غير رفيق، وينغصها هم غير موادع، يؤرقانه ليلا إذا أظله الليل، ولا يريحانه نهارا إذا امتد عليه ضوء الشمس، وإذا دعته مهامه على هذا الضوء إلى تصريف الأمور، وتشريع الأحكام، وسياسة الدولة، وتوسيع ظلها، إنه ينشط أتم ما يكون النشاط لهذا كله، فهو ساهر عليه، قوي فيه، ولكنه لا ينسى همه الذي ينغص عليه سعادته، ولا حزنه الذي يشوبها، وإنها لسعادة خليق بها أن تملأ نفسه وتصفو له مما يشوب ومما ينغص.

الدين تم طقوسا وأحكاما وقوانين وتقاليد، وتم إقناعا ونفوذا وقدسية وانتشارا، ولم يبق منه إلا امتداده بعد النبي بخليفة يحافظ على ما تم منه، وينميه كما تم باجتهاد مستوحى من روحه ونصوصه، فيجاوزه بأمانة إلى أمكنة بعيدة، وينقله إلى أزمان جديدة، فهو دين أبد، تنزل آخر صيغة من صيغ الرسالات بشريعة سمحاء تكفل للإنسان – ما عاش الإنسان – أمنه وحريته وكرامته وسعادته ونموه، فلا يخشى عليه من نقص في ذات نظمه وقوانينه وتعاليمه وأخلاقه، وتفاسيره لله والحياة والإنسان، ولكن أخشى ما يخشى عليه من الخلفاء باسمه، والطامعين به إلى العروش والتيجان والمغانم فإذا تركه دون أن ينصب عليه خليفة من معدنه، قويا أمينا عليه خشي أن يرتد نصره الغالي فتنة وتطاحنا وأثرة يكون فيها روح الإسلام نفسه صريعا قبل كل صريع.

كان سلطان الإسلام هذا الذي أحرزه النبي بنصره العظيم يدعوه إلى الحزن من حيث يدعوه إلى السرور، ويجلب له الهم من حيث يجلب له الاغتباط، فهو يعلم أن سلطانه بما أتيح له من موارد الفئ، وسعة النفوذ، سلطان مغر في ذاته، يزل الأقدام، ويزيغ الأبصار، ويحرج الصدور، فلو انتهى إلى صاحبه، أو انتهى إليه صاحبه في مجتمع سليمة نياته، نقيات ضمائره، لم يكد يسلم لصاحبه، ولم يكد صاحبه يسلم له إلا بشق الأنفس، فكيف وهو يعهد في هذا المجتمع أدهى ما يعهد الإنسان من نفاق، ويرى فيه إلى المنافقين مستوفزين متحفزين يأتمرون بالخلافة ويستعدون لها فلا يصدهم عنها إلا وجوده الكريم، يعيد نظره إليهم فيجدهم يغلون بالتحفز والتوفز حتى يروا إلى وجوده هو وقد عاد عبئا ثقيلا عليهم، فهم ينتظرون انقضاءه ساعة فساعة، ويتمنون ارتفاعه لحظة فلحظة (١) ليثبوا إلى مطامعهم من نقل السلطان – كما كانوا

---

(١) مما اتفقت عليه السير والأحاديث أن النبي في مرضه الأخير كان يأبى على زوجاته شرب ما يقدمنه إليه من دواء، وأنهن اغتنمن فرصة إغمائه مرة فسقته في إغمائه ميمونة بنت الحرث بعض الجرعات، فلما أفاق غضب وأمر جميع من حضر أن يشربوا مما شرب وكانت ميمونة صائمة فأمرها أن تشرب ولم يستثن إلا عمه العباس، ولم يغضب هذه الغضبة إلا نتيجة لشكه بمن حوله من عضوات تلك الأحزاب، ثم لم يشك بمن حوله من (حبيباته) إلا نتيجة لنشاط تلك الأحزاب الخارجي، والمعروف أن النبي خولف أمره في هذه السنة أكثر من مرة، ولو اتسعت حياته قليلا لكان له مع هؤلاء تدبير ولكنه عز وجل، ولم يشأ هو أن يعجل حرصا على سلامة الإسلام.

يرونه – من بيته إلى بيوتهم، ويتناقلوه مستأثرين به دون أهله.
ولم يكن النبي يخشى على سلطة الإسلام من عدو وراء الجزيرة، فقد تحصنت هذه السلطة بأسوار من أتباعها داخل الجزيرة فلا تقتحم. ثم لم يكن يخشى على سلطة الإسلام من أتباعها الممتدين في طول الجزيرة وعرضها من ملوك وسوقة، فهؤلاء هم عدتها لكل فتح، وجندها على كل عدو، ولكنه كان يخشى على سلطة الإسلام من أحزاب عاصمته بالذات، وممن يدل عليه وعلى سلطة الإسلام بالسبق أو الإيواء، وممن دخلوا الإسلام والتحقوا بخاصته طامعين بالملك، طامحين إلى الثروة، كان يخشى على سلطة الإسلام هؤلاء ممن يلازمونه حاضرا ومسافرا، ويلازمونه محاربا ومسالما، ويلازمونه يقظان ونائما، ثم لا يخشى عليها منهم إلا تنكرهم لمثلها العليا، وإلا تسخيرهم أغراضها السماوية لأغراضهم الأرضية، ولولا هذه الخشية للحق برفيقه الأعلى قرير عين مثلج صدر.
قال المحدث: هذا مما رآه عمار مقلقا للنبي. يمد طرفه فيرى ميراثه وقد أصبح بعده فتنة تكاد تفسد رسالته التي بها بعث، والتي من أجلها أوذي، والتي في سبيلها لقي ما لقي من عنت وعناء وخطوب.
قال: ولم يكن النبي يتأرق لأنه لم يجد الخليفة الراشد المتمم لرسالته على نحو ما أراد الله، وإنما كان أرقه يطول لأنه

وجد هذا الخليفة الراشد، أو لأن الله أوجد له هذا الخليفة وأمره بنصبه علما وإماما وحاكما، ولكنه حائر بين إرادة الله وإرادة المنافقين، وبين مصلحة الإسلام ومصلحة الطامعين، أراد الله عليا، وأباه المنافقون، وأرادته مصلحة الإسلام وفي ضمنها مصلحة المنافقين أنفسهم، ورفضته أنانيات النفعيين، فهو لذلك أرق مسهد طويل الليل طويل النهار.

قال المحدث: وكان عمار يعلم - فيمن علم - أمر هذا الأرق الذي يلح على النبي إلحاحا طالما أخرجه في هدأة الليل، وروعة الأسحار من بيته طائفا يفرج عن نفسه بشكوى الأحياء من حوله إلى الأرواح الحية من أهل القبور. حدث أبو مويهبة مولى رسول الله فقال: أرق النبي ذات ليلة، وألح عليه الأرق، فخرج وخرجت أسعى خلفه بأمر منه، فلما انتهى إلى (بقيع الغرقد) - مقبرة المدينة - وقف بين المقابر وقال: (السلام عليكم يا أهل المقابر. ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى). فأي هم هذا الذي يرسل هذه الشكوى المرة على لسان محمد.. محمد لا غيره؟ وما هذا الجحيم الذي يهنئ الأموات على النجاة منه؟ وما هذه الردة التي يصفها بأنها شر من الشرك، الواقع أن البوح لا يعرف أصرح بوحا من هذا الذي يبثه النبي للأموات!. أترى أن النبي كان يستوحش من غشيان المقبرة منفردا لو أراد أن يكتم هذه الشكوى؟ ما أظن أحدا يتردد بأنه إنما صحب أبا

مويهبة ليذيع في الناس والتاريخ هذه الصورة الرائعة من صور نضاله الرفيع، وليعلن رأيه بهذه الأحزاب المتحفزة المتوفرة للاستيلاء على سلطانه استيلاء يسوق فتنا كقطع الليل المظلم، وينشئ ردة هي شر من الشرك، ويؤلب عليه جبهة هي أضر من جبهة أبي جهل وأبي سفيان بالأمس.

قال المحدث: وكان عمار فقيها إلى جانب مزاياه الكثر، أدبه النبي فأحسن تأديبه، وأخرجه مثلا للمسلم القرآني الحر، فلا يأخذ عقيدته الإسلامية أخذا أعمى، وقد يجال رأيه في منصب الخلافة، فوجد أنه ملزم ما دام مسلما باتباع رأي النبي قولا وعملا وتقريرا، ووجد أن من رأي النبي في هذا المركز الخطير ربطه بالسماء، وإخضاعه للنص، ولعله رأى من رأي النبي في هذه المسألة أكثر من ذلك. لعله رأى النبي لا يرى نفسه صنع شيئا إذا لم يعين الخليفة تعيينا، ويختاره اختيارا، وهو لم ير هذا من رأي محمد، بل رآه من رأي النبي المعبر عن رأي الله: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

وبعد أن رأى خضوع الخلافة للنص أمرا من صلب الدين في الكتاب والسنة، ورآه من الأمور الثابتة التي لا خيار في نسخها وتبديلها حتى للنبي، بعد هذا رأى النبي يبلغ هذا الحكم أحسن بلاغ ويجهد في النص ما لم يجهد بحكم من أحكام الإسلام قبله، ذلك لأنه نظام الأحكام كلها فإذا انفرط تناثرت الأحكام ضائعة الوحدة، مشتتة الشمل.

ومن كعمار رفيقا للإسلام مخلصا فيه حريصا على أتباعه؟
وإنه ليشهد النبي مفتنا بالنص لا يقف منه على صيغة واحدة، ولا على حال واحد، ولا على زمان معين، ولا على مكان مخصوص وإنما يسوق النصوص بسخاء عجيب، وفن أعجب، ويبثها في أزمنة تبتدئ مع البعثة، وتنتهي في آخر لحظة من حياته فيكون آخر ما تكلم به النبي نصه على أبي حسن، يبتدئ زمان النصوص مع إنذاره عشيرته الأقربين من فجر الرسالة، وينتهي على فراش مرضه الأخير من غروب الوحي، ويبثها في أمكنة لا تحصى بين شعب أبي طالب في مكة حيث بدأ الدعوة، وبين منزله من مسجده في المدينة حيث أنهاها، ثم لا ينص على أبي الحسن فقط، بل يخوله أن ينص هو على من سماهم له من أبنائه الذين أمر بالنص عليهم كذلك، وإذا هذه النصوص المتواترة الملحة تأتي، ومنها قرآني كالذي سمعت من الآية، ومنها نبوي كحديث المنزلة ونص الغدير، ومنها مقالي ككل النصوص القرآنية والنبوية، ومنها حالي كاستخلافه في مكة على ودائعه وتبييته في فراشه يوم الهجرة، وكاستخلافه على المدينة يسوسها ويدبر أمرها يوم تبوك، وكاستخلافه على تبليغ سورة براءة يوم حج أبي بكر، وانتدابه لكل أمر – بعد ذلك – يعضل على غيره من الصحابة سابقين ولاحقين.
قال المحدث: فإذا تجاوز عمار هذه الألوان من النصوص الملفوظة الصريحة المباشرة (للتعيين) رأى روحها هذه تمشي

في أضعافها من ملحوظات أحاديثه المعدودة من أعلام النبوة، وغيبيات الرسالة، ورأى في تعيينه عليا (باللازم) و (الضمن) من الدلالات، تعبيرا أدل على التبليغ، وأوفى بالغرض من النصوص المكشوفة، بما في النص باللازم من حرص على استيفاء أقصى ما يمكن استيفاؤه من وسائل البلاغ. فهم - مثلا - من قول النبي له - لعمار -: " تقتلك الفئة الباغية " نصا غير مباشر على علي، وإن شئت فقل: إنه فهم من هذه القولة أن النبي أقام منه قرينة تفسر صراحة النص على أبي الحسن، وتمنع عنه تأول المتسامحين بفهم النصوص كما أرادها واضعها. وقل: إنه فهم نحو هذا الفهم من قول النبي لعائشة: " لا تكونيها يا حميراء " وهو يحدثها عن خروج إحدى زوجاته على علي وهي له ظالمة، مشيرا إلى يوم الجمل، وفهم كذلك فهما على هذا النحو من قوله - صلى الله عليه وآله - لعلي: " لك مثلها ". حين أبى المشركون الاعتراف له بصفته الرسولية في إحدى معاهداته إلى كثير مستفيض من هذه الأقوال المهتمة بمستقبل علي اهتماما يلزم الأمة بمجرده أبلغ ما تلزمها به النصوص، فلو لم يثبت نص صريح لكان هذا ونحوه كافيا وفوق الكفاية. وما شك في أن عمارا خرج من هذا كله موقنا أن النبي عين خليفته تعيينا لا مجال إلى الشك فيه، وأنه صدر في هذا التعيين عن مبدأ لا يبطله - ولا يغير من إلزامه في النظام الإسلامي شيئا - ما فرضه الواقع بعدئذ على كثير من المسلمين من التأويل أو الانكار أو الانحراف بالتفاسير. كان هذا رأي

النبي ورأي الله، ولا يغير من رأيهما شيئا واقع انحرف عن رأيهما فأخطأ، إلا حين يثبت أن رأي الله ورأي الرسول قد انحرفا، وأن رأي الواقع هو المستقيم.

قال المحدث: ما أدري أعرض عمار – وهو يجيل في رأسه هذه الأفكار – لما قد يتوهم من (تيوقراطية) الحكم الإسلامي بناء على رأي النبي الثابت هذا؟ ما أدري أكان عمار ملما بأنواع الحكم ليذكر الفرق بين الحكم المقدس الذي تمسك به الفراعين في مصر وأثينا وروما من قبل، وبين سماوية الحكم الإسلامي الشعبية الخالصة؟ ما أدري ولكن الذي لا شك فيه أن عمارا أجاب في نفسه عن كل هذا ضمنا، وهو يفسر ديموقراطية الحكم الإسلامي خلال التيار الفكري المنبعث من (السقيفة)، أو المنبعث – على الأصح – من تعيين النبي عليا قبل ذلك. فالواقع أن قصد النبي من تعيين علي لم يفهم على وجهه الصحيح، ولم يكن ممكنا فهمه على وجهه في مجتمع تكثر فيه المطامع، وتشتد فيه العصبيات وكان من أمره أن أحدث مشكلة سياسية حثت أفكار الأحزاب على التفكير بنوعية (الحكم) وهي تلتمس المخرج من أمر النبي وفرضه عليا، فإذا الناس يتحدثون عن (الشورى) وعن الحكم العائلي، وعن حق الشعب بالانتخاب وإذا عمار يدفع كل تلك الشبه بفهمه الصحيح لرأي النبي بهذه المشكلة الأزلية الأبدية.

قال المحدث: وكان جواب عمار الضمني عن (تيوقراطية) الحكم، أن استمداد الحكم، من السماء إنما هو التعبير الأمثل

عن إيثار مصالح الشعب على مصالح (البيوت) وتقديم منفعة الكافة على منفعة الأفراد، ولكن الكافة لم تكن مهيأة في وقت لإدراك مصالحها المشتركة العامة إدراكا صوابيا سليما، وإنما هي خاضعة لآلاف المؤثرات الداخلية والخارجية التي تصرفها عن تعيين الصواب فيما ينفع الجميع أو يضرهم، هي مصروفة عن التفكير بالنفع العام بله إدراك صوابه بانصرافها إلى أعمالها اليومية في أحوالها العادية، وهي مصروفة عن إدراك الصواب في أيامها الكبار، بعصبياتها أو بخضوعها للعقل الجماعي وكثيرا ما يؤخذ ببهرج مزيف، أو بما إلى هذا وذاك من العوامل التي يندر في ظلها الصواب. من أجل هذا تقرر في رأي النبي، – أي في الإسلام – تعيين الحاكم حلا لهذه المشكلة وجبر التعيين – وله مظهر حكم الفرد – باختيار الأفضل عدلا وعلما وتدبيرا وتضحية وتعففا وتحررا من عبوديات الذات، ذلك ليستطيع تنفيذ الأحكام الإسلامية الشعبية الخالصة، وتطبيق خطة الحكم المحمدي الكافلة لهناء المجتمع وخيره.

ثم اتفق أن عليا هو أصلح المسلمين، وأوعاهم لمصالحهم المشتركة، وأقواهم على تمثل روح الإسلام علما وعملا، وما كان للنبي أن يرى الرجل المبدئي الصالح لدين الناس ودنياهم، ثم يتأخر عن توليته عليهم كما لم يكن لنبي أن ينحاز أو يتأثر بميل عاطفي وهو في حرم النبوة. من أجل هذا كله، وبناء على هذه المقدمات المسلمة عين عليا. عدل عن ترك الأمر الشورى لأنه رأى تركه كذلك معناه إلقاء الحكم في بحر

طامي العباب، وتعريضه لأمواج يعلم أنها لن تنتهي به إلى شاطئ، بل يعلم أن التيارات تتحكم به وتستبد بزمامه، فتلقيه في إحدى الجزر النائية رهينا بأمر حاكم يستدر منافعه، ويستثمر اسمه ثم لا يزيد.

وحين عدل عن الشورى، عين (عليا) ولم يعينه إلا لأنه الأفضل بالاتفاق، وإلا لأن قدرته على التجرد من ذاته تأتي في طليعة فضائله، فهو الرجل المتوفرة فيه خصائص الشخصية النبوية التي تستطيع النهوض بأعباء الحكم القرآني، تبذل السلام وتزيل أسباب العقد، وتهدم جدارات التفاوت.

ولم تكن حقائق هذه النظرة خافية على الناس: كل الناس في عهد عمار، ولكن للأحزاب التي ورمت آنافها يوم ذاك شأنا في التغافل عن نبيل هذا القصد، ولا يستبعد على من لم يتعمقوا الإسلام أن يسيئوا فهم هذا القصد ظانين أن النبي كان كأحدهم يؤثر بيته بالمنفعة، ويحصر الحكم في آله على أساس عائلي، الأمر الذي يفتح أمام الرأي هوة رهيبة بين عقلية النبي، وعقلية كثير من صحابته وأنصاره، وهم نظروا أو شاؤوا أن ينظروا إلى الخلافة نظرهم إلى الملك، وأسبغوا على هذه النظرة ما بأنفسهم من شوق الوصول، وأمنية النفع الشخصي. ونظر هو إلى الخلافة نظرة حرة تسخرها لنفع الجميع، فاختار لها بطلها الذي اتفق كونه عليا، ولو اتفق أن يكون أبا سفيان مثلا لما عدل عنه والله، ولا يصور هذه الهوة شئ كما يصورها اعتذار أجلائهم بعد إقصاء علي عن الحكم

إذ قالوا: أبت العرب أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد، في صيغة من الاعتذار إذا كان عليها لمعان وبريق من الروح الديمقراطي، فإنها معجونة بالتحدث لنيل القصد النبوي، والإباء على فهمه إباء يحدث تلك الهوة الرهيبة. ولو رجعوا إلى بينة من الأمر لرأوه بطبيعة دينه وخلقه أبعد الناس عن أنانيات الحكم المطلق، وعنجهيات السلطان العائلي، ولو أراد شيئا من هذا لكان جديرا أن يعهد إلى عمه العباس فيبطل كثيرا من حججهم لإقصاء علي، فالعباس على أنه أقرب إليه ليس حدث السن، ولا والغا في دماء العرب – كما شاؤوا أن يعيبوا عليا – ولكنه الحق من مصلحة الجميع هو الذي فرض عليا ولم يكن للنبي في فرضه خيار.

قال المحدث: وكان عمار يراقب الأحداث، ويحاكم حركاتها فيصدر عن معطياتها واعيا يقظا سديد الحكم على الأشخاص والأشياء وقد رأى أعمق أسباب الهوة بين النبي وكثرة الأحزاب في هذه المشكلة، أن كثيرا من المهاجرين والأنصار حديثو عهد بهذه الحركة، وأنهم دخلوا يوم دخلوها مغامرين، وأقبلوا عليها طامعين، ثم تبنوها فدافعوا عن أنفسهم وعن مطامعهم حين دافعوا عنها بمعزل عن حقها وخيرها وما انبعثت من أجله، فلما انتصرت كانت نفوسهم أكياسا لرواسب كثاف من تركات التقاليد والتاريخ المهزومة من الميدان إلى الاختفاء في ثانيا الصدور، وخلايا الأحشاء وإلا فبماذا تفسر النقمة على علي لقتله من قتل من آبائهم وأبنائهم، في حين

أنه لم يقتل أحدا في صدد ثأر، ولا صدد اعتداء، وإنما كان أداة والقاتل المعنوي إنما هو الإسلام، إنما هو المبدأ، وهي حال لو سلمت فيها النفوس للإسلام لسلمت من مثل هذا الحقد المثقل بتركات التقاليد المهزومة من الميدان إلى ثنايا الصدور وخلايا الأحشاء.

وفي حال من هذه يعود طبيعيا أن يقصر القوم عن إدراك السر النبوي في استخلافه عليا، ويعود طبيعيا أن يتهم النبي بالميل العاطفي في هذا الاستخلاف، ثم يعود طبيعيا أن يجمعوا على صرف الأمر عن علي ليهبوا لأنفسهم فرص الحكم أولا، وفرص الثأر ثانيا، ومن السهل إذا صرفوا الأمر عن علي أن يتقدموا إلى الناس بما شاؤوا من أعذار، وقد تقدموا بعد ذلك، فإذا علي حدث السن، وإذا علي محب لآل عبد المطلب، وإذا علي واتر العرب، وإذا علي رجل دين وعلم وعدل وحرب وسبق، ولكنه ليس رجل سياسة. وإذا هم بعد كل هذه الأعذار يخصمون أنفسهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون، ففي جملة هذه الأعذار مجابهة للنبي برد فيه كل شئ إلا الأدب والذكاء، وفي آخرها أصح التعاليل لتقديم علي عليهم، فالدين والعلم والحرب والعدل هي كل عناصر الحاكم الأفضل في حكم أمثل، ونقص السياسة - على خلاف جوهري في تفسيرها - إذا سلم، نقص يجبر في الحاكم بتمام الوزراء فيه حين تكون الدولة دولة محمدية راقية، ثم إنهم جعلوا الحكم سياسة، وهو سياسة كما زعموا، ولكن أي شئ

فات عليا من السياسة الحق حين اعترفوا له بالدين والعلم والعدل والحرب؟ أفاته الكذب والدس والاحتيال والخداع والرياء؟ نعم فاتته كل هذه المواهب وفات هو كل هذه النعم، أتراهم حين سلبوه إياها – وهو منها برئ حقا – أرادوا أن يرجحوا بها عليه؟ الحق أنهم ظفروا، إن كانوا إلى هذا قصدوا، ولكن النبي إنما عين عليا ليجبهم مزلقة هذا الفخر، ويحملهم على السياسة بمعناها التعميري القائم على الدين والعلم والعدل والحرب، لا على الافتراض والاقتناص والامتصاص.

ولعل من أغرب ما يواجهه الإنسان في هذه الأعذار أنها لا تكلف نفسها عناء المنطق، ولا تلزم أصحابها بشئ من معرفة الحساب ولعمري إن أربعا ثقالا من خلال الحاكم كالذين والعلم والعدل والحرب يرجحن في الميزان على واحدة خفيفة كالسياسة في عرفهم لو كان لحساب شأن، ثم إن إتمام نقص واحد كهذه السياسة، أسهل من إتمام أربع كتلك لا يعوض عنها في الحاكم شئ لو كان لمنطق شأن كذلك، ولعل أوجه ما وقفوا إليه من منطق ما عرضوا له من أمر (الشورى) ولكن هذه لم تستقم لهم أيضا، إذ كانت – على الصعيد الزمني – بيعة أبي بكر فلتة، وكانت بيعة عمر عهدا قبلوه من أبي بكر في عمر ورفضوه من النبي في الوصي، وكانت بيعة عثمان تزويرا انتهى عمليا بفساد نظرية الانتخاب في مجتمع غير حر، ثم عادت الخلافة وراثة في تقليد روحي مداره مصلحة (البيت)

لا مصلحة الشعب، ولا حياة الدين. ولم تستقم الشورى لهم على الصعيد الديني كذلك لأنها معارضة للنبي في مفهوم الإسلام العلمي.

قال المحدث: وما نسي عمار أن يستعرض وسائل النبي إلى إلزام المسلمين بولاية علي، وإلى تذليل عقبات الوصول إليها. فرأى عمار من ذلك شيئا كثيرا، وجهدا عظيما، رأى من ذلك أشياء هي من أركان الدين وأسسه في الحياة الواقعة، وأول هذه الأشياء وأدلها روح الإسلام القائم على المساواة. واعتباره الكفاءة والعلم أساسين للتقديم في صميم مبدأ المساواة، وثانيها إلغاؤه أنظمة العصبية ومحاربته للعقلية القبلية، واستبداله هذه وتلك بالأخوة الإسلامية، والتربية القرآنية بأوسع معانيها الإنسانية، وكان هذان الركنان من مبادئه كافيين - لو استقام لهما المسلمون - أن يدفعا عن النبي مأساة الخلافة التي كان لها من بعد أسوأ الأثر في تاريخهم الذي لن ينجو من شر هذه المأساة إلى آخر لحظة من الدوران. وكان هذان الركنان كافيين لتقويم ما التوى في أفهام البعض من صحابته مهاجرين وأنصارا من تعيينه عليا، واكتفى عمار من الأصول الإسلامية المتصلة بموضوعه هذا، بهذين الركنين لأنهما دلاه على (إلهية) التعيين، ودلاه فوق ذلك على أن تأثر المسلمين بالنظام الإسلامي ما يزال ضعيفا محدودا، وأن سلطان النظام العتيق ما يزال نافذا له عليهم إمرة، ولصوته في نفوسهم سحر، اكتفى عمار من الأصول العامة بهذا القدر،

وانصرف يحصي مظاهر نشاط النبي خلال سنته الأخير لإقرار علي في مركز الخلافة فقد أوشك النبي أن يدعى ويجيب.

قال المحدث: ورأى عمار هذه السنة من حياة النبي بالغة الجهد، بالغة الحكمة، يكاد يكون أهم أعمال النبي فيها ما يتصل بالخلافة، إن لم يكن عمله قاصرا على ما يتصل بها، وقد اتخذ نشاطه العظيم هذا مظاهر تختلف منحى، وتتفق مغزى، وتلزم المسلمين بعلي في كل حال إلزاما يكاد يكون الخروج منه فاضحا وأبرز هذه المظاهر عهده يوم الغدير وهو راجع من حجة الوداع، واتجاهه إلى إشغال المسلمين بالغزو، وتأميره أسامة بن زيد على مشيخة المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم، ومحاولته تدوين عهده إلى علي بكتاب لا يضل المسلمون بعده، كما قال وما أصدق وأخلص ما قال، في خطة مقدرة مدبرة تجتمع لها هذه الأحداث عن تقدير وتدبير، ولكل حدث من هذه الأحداث حكاية نكتفي منها بذكر مغزاها.

قال المحدث: أما يوم الغدير فكان قمة أيام الإسلام في عهد النبي - كما رأيت في أول هذا الفصل -. وكانت نصوص النبي قبله نصوصا صريحة واضحة ولكنها كانت مرسلة يرسلها النبي إذا عرضت المناسبة، فيلقيها على من اتفق حضوره من أهله وأصحابه، ولم يكن في شئ من ذلك عمل رسمي، ولا جهد مركز، ولا قول شائع مما يأخذ بالمنصب، ويدين به على وجه حاسم قاطع لا يمكن التأول به، أو الفرار منه، وربما

سمع النبي مع لغط الأحزاب همسات تند بائتمار على إنكار نصوصه السابقة، أو انحراف بتفسيرها، فرأى أن يحتفل بالنص احتفالا رسميا يبطل فيه من العناية الخاصة ما يسكت نأمة القوم، ويرسل النص منفجرا في شبه الجزيرة كلها بصوت يمتد إلى أبعد مدى إسلامي فدعى إلى حجة الوداع، وعمم الدعوة حتى انتهى إليه عشرون ومئة ألف يمثلون أقطار الإسلام كلها، ثم حج بهم وانتظر - كما أمره الله - حتى انقضى الحج وانتشر الناس كل وفد سلك طريق بلده. أتدري لماذا؟ لأنه لم يؤمر بأن ينص على علي عرضا، وإنما أمر أن يبذل في النص عناية مستقلة فيعيد الناس من مسالكهم إلى غدير (خم) ليكون الحدث أعلق بالذاكرة وأجدر بالاهتمام. وكذلك فعل، فإذا أقبل الناس من منصرفهم متشوقين إلى خبر السماء الخطير، وصنع له منبر من أحداج الإبل، وأخذ بضبعي علي، وذكر للناس أهم ما جاءهم من خير وتنظيم واستشهدهم بعد كل حادثة من حوادث تجديده على صدق تبليغه. إذا فعل هذا كله رفع عليا بكلتا يديه الكريمتين حتى بان سواد إبطيه فنص عليه النص خالد، ولم يكد يتحرك من مكانه على أحداج الإبل حتى بلغ الناس ما أوحي إليه تعليقا على تعيين علي، فإذا الله يبارك الاحتفال بهذا (الموسوم): (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) ولو كشف لك الغطاء لرأيت هذا الجمع الغفير يتحلق حول علي، ورأيت عليا يتقبل التهاني ورأيت أبا بكر وعمر يصافحانه وهو يتقبل

التهاني فيعينانه على تقبلها قائلين له على الملأ: (بخ بخ لك يا علي لقد أصبحت مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة). وليس قولهما هذا إلا الاعتراف له بالإمارة منذ لحظته أو شيئا آخر لا تعسر عليك تسميته!.

قال المحدث: وبعث أسامة يأتي بعد حجة الوداع حركة تهدف إلى هذا الغرض، وترمي إلى هذه الغاية وما يدريك؟ فعسى أن يكون جوابا على نشاط بذلته الأحزاب في معارضة علي صدى ليوم الغدير، ومهما يكن من شئ فالأمر الثابت أن النبي لم يجهز بعث أسامة في مثل هذا الوقت من مرضه الأخير بعينه إلا خدمة لعلي عليه السلام، وأنت تلاحظ أنه ضمن خدمته هذه أكثر من غرض كريم من أغراضه المبدئية الكريمة. ضمنه رفع الشباب إلى مستوى كفاءاتهم مسقطا اعتبار السن من المهام الكبرى والمناصب العامة، وكان هذا واضحا بتأمير أسامة الشاب على أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وغيرهم من شيوخ المهاجرين والأنصار وأجلائهم، كما كان تأمير أسامة ابن مولى خديجة واضحا بإسقاط اعتبار الطبقة والدم بعد إسقاط اعتبار السن، متخذا الكفاءة أساسا دون غيره وهو الأساس الإسلامي الصحيح، وقد شاء من تطبيق هذا المبدأ خدمة علي من طرفي غرضه المبدئي هذين معا، طرف السن لئلا ينقض على علي بها في الخلافة، وطرف الدم الذي لم يلحظه حين ولى عليا. وكأنه يقول لهم: الأساس الذي أمرت به أسامة

في شئ، إلا أنهم الآن واجمون، والنبي واجم يدير في جنده نظرة المطمئن الوادع رغم ما به من أوجاع المرض، وأوجاع الهموم، وإن بعضها لتذيب الحديد ناره، فهو على هذا نظر وادع مطمئن يدور في وجوه القوم زاخرا بالمعاني والذكريات، وهم واجمون وهو واجم مضت على ذلك لحظات قصار طوال، شوهد بعدها النبي يتناهض من مضجعه مستعينا بعلي على ما يقدر عليه من الجلوس، معصوب الرأس بعصابته الحمراء، ملتفا ببرده الحضرمي الأحمر، وتشرئب إليه الأعناق بأسماعها وأبصارها تنتظر الكلمة التي طالما هونت عليهم الموت، وجنحتهم بالعزائم والعظائم، وها هي الكلمة النبوية تلك تنبعث من تينك الشفتين، عذبة رقيقة حنونا فتقول: " أيها الناس - بهذا العتب الجميل بدأ - يوشك أن أقبض قبضا سريعا، وقد قدمت لكم القول - وبهذا الذوق العظيم أنب - معذرة إليكم، ألا وإني مخلف فيكم كتاب ربي، وعترتي أهل بيتي " ثم أخذ بيد علي فرفعها وقال: " هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي - بهذه المخالفة تقديما وتأخيرا أنشأ وحدة القرآن وعلي - لا يفترقان حتى يردا علي الحوض ". وبهذا التأييد خوله كل صلاحياته وأعطاه ولاية من حقها أن تستخلف، ثم أدركه الجهد فاستند، وساد الصمت.

كلمته التي هونت عليهم الموت.. طالما هونت عليهم الموت من قبل، هي هذه الكلمة ذاتها، فما بالها - وهي وارية مؤثرة كالعهد بها تمس هذه النفوس ذواتها فلا تلهبها؟ ما بالها

تنزلق عن نفوس كأنها غير النفوس، وكأنها تمر منها على صخر فلا تنقش فيه أثرا، ولا يرن فيها صدى؟ الكلمة النبوية لم تفقد شيئا من عناصر قدسها وحياتها وقوة تأثيرها. فما بالها لا توحي ولا تهيب ولا تبعث؟. يقول عمار: ولكنها بلغت مني اليوم ما تعودت أن تبلغه مني في كل وقت، أو هي اليوم أعمق ما كانت علي تأثيرا، هذا دلني على أن العيب كان في الصدى لا في الصوت، لأن نفسي التي لم تتغير فلم تطمع ولم تبرح عطشى للحق تجاوبت بكلمة النبي هذه تجاوبا له دوي.

ومضى الصمت بعد الكلمة فوجم النبي مستندا يستعيد قواه واستمر القوم واجمين ويقلب النبي شفته عجبا، ويقول:

" آتوني بدواة وقلم أكتب لكم كتابا لا تضلون به بعدي ".

ومن عجيب الأمر أن صمت القوم قد انفجر! وانفجر قبل أن يتحرك أحد في طلب الدواة والقلم، أتدري لماذا؟ خشي القوم أن يؤيد النبي قوله الذي سمعت في كتابه هذا، وعندئذ تضيع عليهم فرصة التأويل والنكران، بمستند مكتوب يولي عليا ويقطع عليهم الطريق.

قال عمر - وعلى لسانه انفجر الصمت -: حسبنا كتاب الله!.

فقال النبي: " علي مع القرآن والقرآن مع علي "، ويعني أن أحدهما لا يغني عن الآخر.

ويقول عمر للقوم: (إن النبي يهجر) ١ فتعلو ضجة. هذا

على الشيوخ والأشراف، هو الأساس الذي أمرت به عليا على المسلمين. كفاءة أسامة رفعته إلى مداه، وكفاءة علي ينبغي أن ترفعه إلى مداه.

ثم ضمن بعث أسامة مما نحن فيه تفريغ المدينة من مناوئيه (علي) وخصومه والطامعين بمنصبه. وإخلاء الجو له حين يقضي الأمر، فيعود المجندون من جبهتهم وقد استقر الحكم وانتهى كل شئ، ومن هنا رأيناه أشد ما كان حرصا على تجهيز جيش أسامة، يغمى عليه - وهو على فراش الموت - فإذا صحا كان أول ما يسأل عنه تجهيز الجيش، فإذا قيل له: إنه مرابط بالجرف قال: " جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عن جيش أسامة " ثم يتحامل على نفسه فيخرج بين علي والعباس متكئا عليهما، متظاهرا بالصحة، ويعلو المنبر ويحث الناس على تجهيز الجيش، ويلعن المتخلف من المجندين لجيش أسامة. ولكن الجيش لم يتجهز، وتخلف عنه كل الأجلاء ولغطوا بتأمير أسامة عليهم، ورابطوا حتى توفي رسول الله.

قال المحدث: أما كتابه فقد أراد أن يختم به نشاطه هذا فيخلد خلاصة رسالته مجموعة فيه - كما صنع في الغدير - متوجة برأيه في القرآن والعترة، القرآن بوصفه دستورا، والعترة بوصفهم رجال الدستور وقوة تنفيذ وحمل الناس على الاستقامة له، فقد كانا في رأيه صنوين أحدهما يتمم الآخر فلا يغني أحدهما عن الآخر، ولا يجزئ في الإسلام فك وحدة ما

بينهما، فمن أخذهما معا أخذ بالهدى ومن اكتفى منهما بواحد فقد أضاع الجميع. فهما معا من الإسلام كالأجزاء من الحقائق المركبة، نقصان جزء منها يخرج المركب عن حقيقته، فيغير طعمه في المذاق ويذهب فائدته في الأثر، ناظرا – صلى الله عليه وآله – من هذا إلى أن الأمة أحوج إلى رجل القانون منها إلى القانون، بداهة أن القوانين سلطات معلقة لا تتنجز إلا أن ينجزها رجالها، ولا تثيب ولا تعاقب ولا تعلم ولا تربى إلا بعلمائها الأقوياء النافذين المسموعي الكلمة فإنها تهيأت القوانين ولم يتهيأ لها رجالها المخلصون بقيت معلقة لا تمنع فسادا، ولا ترد طغيانا.

قال المحدث: وشهد عمار في قصة هذا الكتاب أعجب ما يرى من بني حكيم حليم يبذل أقصى ما عنده من نصح، وأعجب ما يرى من أمة تبذل أقصى ما عندها من رفض هذا النصح ولكنه يرى النبي – وهو في ساعات النزع – يمضي إلى أمر ربه كالعهد به غير مصدود ولا منثن ولا متردد، لا يهوله الموت ولكن يهوله أن يرى إلى أمته تجمح، ويشفق عليها من جماحها ثم لا يملك لها من ساعاته الأخيرة إلا أنصح النصح وأهدى الهدى.

كانت الغرفة غاصة بالصحابة من مهاجرين وأنصار، وكان صدره الكريم غاصا بهموم الخلافة، ومصير العترة، وفتنة الأمة، وضياع الرسالة. ولم يكن القوم أقل اهتماما منه بهذه المشاكل وإن فكروا بها من زواياهم التي لا تلتقي وتفكير النبي

يقول: قربوا الدواة والقلم، وهذا يقول: القول ما قال عمر: فيقول النبي: أخرجوا إنه لا ينبغي عند نبي نزاع.
ويخرج عمار وهو يقول: ما خلتني أسمع مثل هذه الكلمة يواجه بها النبي بعد أن قتل أبو جهل، وما كنت أحسب أن الخؤولة تترك مثل هذا الميراث!
قال المحدث: استعرض عمار في نفسه كل هذه الأحداث والمحاكمات قبل أن يعين موقفه في مشكلة (السقيفة) وانتهى على بصيرة من أمره شيعيا ينضم إلى سلمان الفارسي وأبي ذر والمقداد من طلائع هذه الكتلة المحتفظة بصلب الإسلام، المكافحة بروحه.
باب النبي مغلق، والنبي مسجى داخل الدار، بنته وأزواجه يعولن ويلتدمن، وعلي في نفر من أهله عند رأس النبي يقرأ القرآن معتصما: بحزنه على النبي، وترفعه على الخوض بطلب حقه الثابت من السلطان، وحرصه على سلامة الدين مما يعرضها إليه العراك من انتكاسه في هذه الفتنة. وإنه ليعلم ما يجري خلف الباب مما تحتقن به نفوس الأحزاب، ومما تهم به المطامع والمطامح، ولكنه آثر الاعتصام بالحزن والترفع عن المطالبة، والحرص على سلامة الدين، متكلا على الله وعلى حقه الواضح الثابت عند عامة المهاجرين والأنصار - كما يقول الزبير بن بكار - فإن احترموا به أمر الله ورغبة النبي - وكان هذا الراجح بل المقطوع به عنده - فبها، وإلا لم يكن هو بادئ

فتنة ومصدر قلق قد لا يسلم من شره الدين، وكان بالإضافة إلى هذا كله موصى: أوصاه النبي بالصبر والتضحية ورعاية مصلحة الإسلام العليا، من أجل هذا صبر علي واستأنى وانتظر الحوادث، فلم يسرع إلى الناس يدعوهم إلى البيعة، مخلدا إلى حزنه على النبي، وترفعه عن طلب حقه الثابت، وإخلاصه للدين، ويقينه أن الناس لا ينحونه عن حقه وإن همت بتنحيته الأحزاب، نعم حاول العباس أن يسرع فيبايع عليا ويبايعه أهل بيته، فيبت بالأمر ويحسمه وتكون بأيديهم المبادرة، ولكن عليا أبى قائلا لعمه: (ومن يطلب هذا الأمر غيرنا).

باب النبي مغلق على جنازته وآله معها. والجماهير دون الباب غفيرة يهولها الحدث، ويسيطر عليها الجزع، ترى إلى نبض الحق وقد سكن فما تدري من هول الصدمة وفداحة الخسارة ما تصنع، وعمر بينها هائج يصرخ، يمثل، إنه يخشى أن يقضى الأمر وتخف الجماهير إلى بيعة علي، وأبو بكر غائب في السنح عند إحدى زوجاته ولما يحضر، فما يدري عمر هو الآخر ما يصنع، وكان أحكم ما بدا له أن يهيج ويصرخ ويمثل ليصرف الناس - وهم ذاهلون - عن الاسراع إلى بيعة علي، ويؤخرهم حتى يحضر أبو بكر فيتدارسان الخطة، وإنها لتبدو لعمر كما يبدو لأبي بكر بعيدة المنال، صعبة المرتقى، ولكنه فليحاول. واستوى له هذا الرأي فمضى هائجا يصرخ في الناس، والناس ذاهلون تسيطر عليهم روح

الجماعة فيسلس زمامهم لكل قائد يمس منهم وترا، وها هم يرون إلى رجل مقرب من الصحابة يصرخ، فيجتمعون حوله فيسمعونه يقول بلهجته القاسية العنيفة: (إن رجالا من المنافقين يرجفون أن رسول الله قد مات، والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال أرجفوا أنه مات، وأرجلهم، لا أسمع رجلا يقول: مات رسول الله إلا ضربته بالسيف)!. وما ظنك بجمهور ذاهل يسمع إلى صحابي مقرب يسبغ عليه رجاء كرجاء عودة محمد، بلحن ديني، فيه شدة غليظة على من يصدق موت النبي. ما ظنك بجمهور ذاهل يسمع ما يسمع من عمر، ويسمع ما يسمع من عويل النائحات في دار النبي؟ إنك لا تنتظر لهذا الجمهور غير الارتباك والحيرة والبلبال الشديد، وهو ما أراده عمر. ادعى لهم أن النبي غائب في رحلة إلهية فكذب أسماعهم التي يرن فيها صوت العويل، وادعى لهم أن موته إشاعة نفاق مرجفة، ما هي إلا إشاعة يراد بها التشنيع على معجزة نبوية، فأوقفهم من القضية موقفا دينيا حرجا، ثم هز في وجوههم أقصى العقوبات صرامة إذا حاولوا تصديق أسماعهم التي لا تعرف إلا ظاهرا من الأمر، وهم يعلمون أن النبي محاط بالمنافقين فما بالهم لا يصدقون قول صحابي مقرب في شأن من شؤون هذا النفاق الذي يحاول التشنيع على معجزة نبوية؟

الواقع إنها لموهبة في التأثير على الجماهير وضعت بيد عمر من حسن مواتاته للمناسبة بعض الزمام، فبهر الجمهور وبلبله وقطع عزائمه بما أضاع من رشده. وظل قائما عليه خطيبا لا يهدأ ولا يستريح حتى أقبل أبو بكر من (السنح) ورآه كما هو فلم يعارضه، بل أخذ طريقه هادئا وقورا إلى دار النبي، فاستأذن ودخل، وكشف عن وجه النبي فقبله ثم رد البرد على وجهه ونهض إلى الناس، فأومأ إلى عمر أن يسكت، ولكن عمر مستمر، ويقول له: على رسلك يا هذا، ولكنه يستمر، فلما رآه لا ينصت أخذ هو الآخر يتكلم، ويسمع الجمهور خطيبا آخر، فيلتفت إليه في حيرة وارتباك مستطلعا ما عنده وينصرف الناس عن عمر إلى صاحبه، فإذا أبو بكر يناقض صاحبه فيقول: (أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين).

كان هذا هو الكلام المقبول المعقول الملائم للواقع الذي عجب الناس كيف لم يقولوه من قبل، وزاد في قبوله وتعقله وواقعيته وحسن وقعه أنه جاء وادعا بعد عنف عمر، هادئا بعد صخبه، مريحا من قلقه الذي أربكهم وحيرهم، ومناهم من الشرور بمصاب كمصابهم بالنبي، وما يدرينا فلعل عمر لم يقصد إلى غير هذا، لعله أراد – مع الذي أراده من تأخيرهم

عن بيعة علي – أن يجمح بهم، ويضعضع حواسهم، كي يمكن لأبي بكر أن يضع يده على أزمتهم بمثل هذه السهولة، وما شككت في شئ فلا تشك بأن نجاح أبي بكر في السيطرة على الموقف إنما كان – في أقوى اعتباراته – نتيجة لموقف عمر، فلو لم يثر عمر شبهة الإشاعة على هذا النحو الخشن المستهجن الذي لا يستطيع الجمهور رفضه ولا قبوله ولا محاكمته في مثل هذه البغتة، لو لم يصنع عمر هذا الجو العجيب، لما كان لموقف أبي بكر من الصدى ما يجعله رجل هذه المناسبة، ولعل كلامه الذي طلع به، لو جرد من الصناعة العمرية، لا يزيد على كلام أي فرد من أفراد الجمهور إذا ارتفعت عنه هولة الحيرة التي سلطها أبو حفص، فالجمهور كان واثقا من موت النبي، ولم يكن أحد منه متخذا من محمد وثنا، فليس فيهم إلا المسلم العارف من الإسلام بقدر ما طلع به أبو بكر عليهم. هم موحدون، ومحمد رجل منهم يمتاز بالنبوة، وكلهم آسف محزون لفراق نبيهم، يأسفون ويحزنون ثم لا يزيدون، ولا يفكرون بشئ من الانقلاب على الأعقاب، ولكن عمر جاء فافترض هذه الشبهة، وجعل من موت النبي موضوع إشاعة، وبنى عليه ما بنى من موقف، مخترعا هذه الأشياء اختراعا ليلعب بالجمهور فيصده عن علي، ويسوقه إلى أبي بكر ليس إلا. وقد نجح بفطرته أعظم نجاح يصل إليه سياسي فرغ من علمي السياسة والاجتماع، وبرع بتطبيق أدق قواعدهما، ولعل لروح المغامرة يدا في هذا

النجاح. صحيح أن الأحزاب كانت تهيئ في عهد النبي خططها لإقصاء علي، ولكن بيعة علي يوم الغدير وتدابير النبي لتسديد وصيه كانت من الأحكام بحيث يصعب نقضها وذلك هو مرد قول علي لعمه: وهل يطلب هذا الأمر غيرنا، فهو لا يجهل كثرة الطلاب، ولكنه يعلم صعوبة الطلب مع ثبوته له، ومع اعتراف الجمهور له بهذا الحق، ومن هنا كان إقدام عمر مغامرة جد جريئة ولكنه أجادها وأحسن التصرف فيها، فنجح وأعانته على النجاح روح المغامرة، وهيأ لأبي بكر أن يكون رجل الظرف في هذا اليوم الكبير، يتناول المبادرة من أقرب مكان وأسهل طريق.

أما براعة أبي بكر فلا تظهر في كلامه المقبول المعقول الواقعي الذي يدعو إلى احترامه، كما تظهر في قصر موقفه، إذ اكتفى برفع هذه الحيرة القاسية عن الناس ثم تركهم يثوبون إلى نفوسهم، أو ترك نفوسهم تثوب إليهم على مهل، وانصرف عنهم وهم يتمنون بقاءه ليرفع عنهم آخر ظلال تلك الحيرة، ولكنه هو لم يكن يتمنى ذلك بل يرجو أن تمتد آثار هذه الحيرة – بعد – زمنا ما. وحسبه هذه الاطلالة التي أراحت الناس وأعلنت لهم منه الرجل المعتدل المتزن العارف الممتلئ بالتفكير الإسلامي الصحيح.

ويظهر أن أبا بكر بعد إحراز هذه الخطوة من التقدم، أخذ على يد عمر، وخشي أن يورطه نجاحه هذا بموقف من مواقف مغامراته، يفسد خطة حزبه في هذه الفترة العصيبة الحاسمة،

فلما زايل موقفه من الجمهور انحاز إلى جماعة المهاجرين وصحب معه عمر وجلس الجميع على باب النبي، وأبو بكر يرصد الحوادث، ويراقبها ويظهر - حذر الانتكاس - إنه ينتظر خروج علي ليبايعه. ويمر رسول أبي سفيان: المغيرة بن شعبة، يجس النبض ويثير الفتنة ويستطلع لحزبه تطورات الموقف، فيقف على رأسي أبي بكر وعمر ويقول لهما: (ما يقعدكما هنا كما أرى؟) فيقول أبو بكر - ولا تخفى عليه أموية هذا الشيطان -: (ننتظر هذا الرجل - يعنيان عليا - حتى يخرج فنبايعه) فيقول - وهو يعرف رأيهما -: (أتريدون أن تنتظروا حبل الحبلة في هذا البيت؟ وسعوها في قريش تتسع) (١) ولم يجيباه بشئ، فالموقف دقيق دقيق لا يحتمل الأخطاء، ربما كان الأحزاب على اتفاق سابق، أو هم متفقون على إقصاء علي، ولكنهم متنافسون على الجلوس مكانه، فمن الحزم والحنكة التكتم والاحتياط فقد تضطر المنافسة بعض هذه الأحزاب إلى العودة لعلي والانتصار له كراهة بالحزب المنافس.

وكان ملحوظا أن أحدا من الأنصار لم يكن حاضرا، وغياب أقطاب هذا الحزب أمر لا يدعو إلى الارتياح، ولكن أبا بكر كان مطمئنا إلى عيونه فيهم، وكان مطمئنا إلى أن المنافسة بينهم تؤخرهم عن البت ريثما يحضر، كل شئ كان عنده

---

(١) لا يخفى ما في هذا الجواب من إغراء لئيم بالوثبة، فهو يعني أن عليا إذا ولي الأمر عهد به إلى الأجنة في بطون الفاطميات، ومنع غير بني هاشم من قريش أن يصلوا إلى هذا المركز.

واضحا إلا أمرا واحدا هو مدخل المعركة، وكان في الامكان أن يفتحها لولا أن يخشى الهزيمة فيها، ولولا أنه لم يشأ أن يحرك منها ساكنا حتى يحركه حزب آخر، فإنه إذا تأخر كان جديرا أن يستفيد من أخطاء غيره.

وجاء الأمر على حد تفكيره، فهذان مساعداه من الأنصار عويم بن ساعدة ومعن بن عدي مقبلان، فهامسان في أذنه: إن كان لك بالخلافة إرب فأدركها، إن سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، ويوشك أن يكون أميرا، فينسل أبو بكر وينسل خلفه عمر، ويتبعهما أبو عبيدة بن الجراح، يسبق بعضهم بعضا إلى سقيفة بني ساعدة.

وهناك يجدون سعدا مزملا مريضا لا يكاد يبين وجهه، ولا يكاد يرتفع صوته، وابنه قيس واقف على رأسه بقامته المديدة يسمع منه، ويبلغ عنه، والأنصار كلهم مجتمعون له، ولكن نفوس المخلصين منهم تنهار تحت ما تعلم من حق علي بالإمرة، ونفوس الوصوليين تنفس على سعد هذه الإمرة التي ترفع من شأن الخزرج على الأوس ما يفضلون أن لا يرتفع، وإن خسر الأنصار هذا المركز.

وكانت مفاجأة حين أخبر سعد بمجيئ أبي بكر وصاحبيه، لقد كان متضامنا صراحة أو ضمنا مع بقية الأحزاب على إقصاء علي ولكنه لم يتضامن معهم إلا ليسبقهم إلى الإمرة كما فعل، وكان يقدر لنفسه النجاح بهذا السبق فيأخذ غير حزبه على

والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة، والله لا يرد علي أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف).

وتكلم عمر، ثم تكلم أبو عبيدة فبادلا القوم الحجج المتشابهة والقول المعاد، ويطلب الأنصار ثنائية الحكم: منهم أمير ومن قريش أمير، وقد بدا لهم أن هذا النوع من الحكم أقرب في ذاته إلى تحقيق العدالة، واشترطوه بالأساس ليكون ضمانة للأنصار من قريش التي سفكوا دماءها في سبيل الإسلام، فهم مشفقون من سلطانهم أن يرتد ثأريا (١) يسفك دماءهم، ويقتر أرزاقهم، ويضيق عليهم، إلا أن عمر احتج لرفض هذا الاقتراح بأن سيفين لا يجتمعان في غمد واحد، ومضوا في جدل يلين ويقسو ولا يدور إلا في حلقة مفرغة. وخشي أبو بكر أن يمتد الوقت ويمتد الجدل، ويفضي إلى ما يفضي إليه كل جدل بيزنطي، فيعود إلى الكلام، ويعود إلى الثناء على الأنصار ويعود إلى سلطان محمد وإرثه، فيذكر الأنصار بأنهما لقريش دونهم، ويخوفهم أن يفسدوا ثواب خدمتهم لله بالارتداد عليه إذا هم أضاعوا محمدا بإضاعة إرثه واغتصاب سلطانه، ثم لا ينتظر جوابا بل يقول بحزم وحسم: (وقد اخترت لكم أحد هذين – ويشير إلى عمر وأبي عبيدة – فبايعوا أيهما شئتم). وبهذا سيطر على الموقف وأنهى مشكلة

----

(١) ارتد سلطان قريش ثأريا كما توقع الأنصار يوم انتهى إلى الأمويين فاستحل منهم كل حرام إلا من لجأ إلى الأمويين.

الجدل، ومن الواضح أن إرشاده إلى مبايعة أحد هذين لم يكن سوى أمر لهما معا بالتقدم إلى بيعته لينتهي من شوطه إلى غايته، ويسبق عمر فيبايع، ويليه بشير بن سعد الخزرجي، فيتبعه أسيد بن حضير الأوسي، وكانا من رفاق أبي بكر في جيش أسامة وحساد سعد بن عبادة، وتنهار ببيعتهما جبهة الأنصار، فلا يثبت منها ابن الحباب الذي اخترط سيفه وهجم، ولكن الناس تكاثروا عليه وانتزعوه منه، فيقف يذود المبايعين بثوبه يضرب به وجوههم ويسبهم، أما سعد فقال لأبي بكر: (والله لو أن لي ما أقدر به على النهوض لسمعتم مني في أقطارها زئيرا يخرجك أنت وأصحابك حتى يلحقك بدار كنت فيها تابعا غير متبوع، خاملا غير عزيز) ثم حمل وترك الأنصار يبايعون، والمنذر يذودهم بثوبه ولسانه فلا يقدر منهم على شئ بعد طغيان التيار.

وعلت في المسجد ضجة زفة، فالتفت علي من حزنه المقدس إلى جنب الجثمان العظيم يسأل: هل عاد النبي ونحن لا نعلم؟! أم الناس في عرس من هذا المأتم؟. فقيل له: نشبت معركة بين الأنصار وبين بعض المهاجرين في السقيفة، دارت رحاها على الخلافة فربحها أبو بكر، وها هو محمول على أجنحة الغوغاء يخبطون به كل عابر، ويمسحون يده على أيدي الناس ببيعة طوقوا بها الأعناق، وأرعبوا في سبيلها كل آمن.

وإذا كان في الابتسام ما يجانس الحزن في أصعب

غرة، ثم يبرر خروجه بينه وبين نفسه على علي بهذا الربح العظيم، ولكن الأحداث خيبت ظنه، وأفسدت تقديره، وهذا أبو بكر يطلع عليه بصاحبيه في وقت يناسبه، ولا يناسب سعدا، سعد ما يزال يدير القول مع الأنصار، ويريدهم على البيعة له فيجدهم غير خفاف ولا سراع، ولو أبطأ أبو بكر ساعة لراض سعد الجامح من قومه فارتاض، ولكن سوء حظه، أو سوء نيته، أو هما معا رمياه بأبي بكر في لحظة تناسب أبا بكر، ولا تناسبه.

وكان الأمر مختلفا بين سعد وبين أبو بكر، هذا مقبل من موقف ملأ نفسه معنوية، وسلحه بقوة المبادرة، وزاده هذا الغزو للأنصار في سقيفتهم قوة على قوة. أما ذاك فلم يكن ضعيف النفس ولا مفلول الرأي، ولكن إيمانه بحق علي (١) في عقله الباطن أوهن عزمه، فهو مهزوم بسبب خفي لا يبين في مظهر طموحه، ولا في سير الحادث وحواراته، هذا السبب هو تقدمه لغصب حق يعلم أنه لعلي بعد ممالاة قديمة على غصب هذا الحق، ولعله كان يتبين هذا السبب ويحسه ولكنه قد تورط، وتطوع هو بشق الطريق إلى هذا الغصب - كما كان يعتقد - فلم يعد قادرا على تراجع أو نكوص. وكان حتما عليه أن يتحمل التبعة، ويتابع المعركة مهما كانت النتائج. يضاف

---

(١) قال سعد لجلسائه بعد ظفر أبي بكر: أشهد لقد سمعت رسول الله عهد بالخلافة لعلي، فقال له قيس ابنه: أسمعت ذلك من رسول الله وقعدت عن نصره؟ والله لا أكلمك الفصيح من رأسي حتى أموت.

إلى الإحساس بالخطيئة تصدع صفوفه بمنافسة الأرحام، وحسد المواطنين ولؤم المزاحمين، فهو من هنا وهنا مضعضع مهزوم.
في هذا الجو الملائم أتم الملاءمة أطل أبو بكر وصاحباه، بخطة من الحزم الحسم وسرعة البت، كانوا ينتظرون أن يتقدم حزب ما لتذليل المحاولة بالجرأة على الوثوب، وها قد تقدم حزب الأنصار، وعاد الامهال والأناة مضرين مضيعين للفرصة، فلا بد من الحزم والحسم وسرعة البت.
وحاول عمر أن يتكلم، ولكن أبا بكر أشار إليه إشارة صارمة خنقت الكلام في صدره، وتكلم أبو بكر فلم ينكر على الأنصار شيئا من فضل النصرة والإيواء، ولكنه أنكر أن يكون لهم حق الإمارة التي هي من حق قريش: أهل النبي والسابقين إلى نصره، ثم وعدهم أن يكونوا الوزراء وأهل الرأي النافذ، ولم يكن بخيلا بالرفق، ولا ضنينا بالملاينة، ولكنه لم يعطهم إلا رفق الأمير وملاينة القوي، ولم يتكلم سعد فتكلم باسمه المنذر بن الحباب، وكان شديد اللهجة، يوجه القول إلى الأنصار فيأمرهم بالإعراض عن أبي بكر وصاحبيه، ذاكرا لهم فضل نصرتهم للنبي وإيوائهم للمهاجرين، ملما بمظاهر قوتهم من ثروة وعدد وعدة وأصالة في هذا الموطن، ثم متجاوزا هذا كله إلى تهديد صريح فقائلا: (لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه أنتم والله أولى بهذا الأمر منهم فإنه دان للإسلام من لم يكن يدين له بأسيافنا، إنا جذيلها المحكك، وجذيلها الموجب، أما

الأحوال، فقد ابتسم علي في استقبال هذا النبأ ابتسامة هادئة وادعة صافية تشف عن أسمى نفس وأكرم صدر، وأقبل من نفسه يتسأل الحكم في علياء حياده، لا يعنيه من الأمر إلا الحق فيقول:

وماذا قالت الأنصار؟

فقيل له: قالت منا أمير ومنكم أمير.

قال: فهلا احتجوا عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم،

فقيل له: وما في هذا من الحجة عليهم؟.

قال: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم قال:

وماذا قالت قريش:

فقيل له: احتجت بأنها شجرة رسول الله.

فقال مجاريا هذا المنطق -: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة؟

بكلمات قصار محملة بالعلم والعقل والخلق العظيم أعلن الحق بهذه المشكلة، وعاد إلى قرآنه يتابع قراءته من حيث انتهى قبل هذا الفاصل، وآله وأتباعه - وبينهم عمار - من حوله يتميزون غيظا، ويحمحمون ويغمغمون، يعضون الأنامل ويضغطون على الأضراس، ثم يتحولون إليه يحملقون بوجهه، ويحدقون به أشد تحديق وأطوله، عسى أن يروا بوجهه ما يأذن لهم بالحركة، ولكنهم لا يرون من هذا شيئا، فهو ماض في

حزنه وترفعه وقراءته وربما جرؤ بعضهم أو تقدموا إليه بأجمعهم يحركونه، ويستأذنونه بالحركة واجدين في أنفسهم القوة على خوض المعركة والنصر فيها، ولكنه يشكمهم بحزن قائلا: حسبنا سلامة الدين. ولعله أعلم منهم بقدرته على خوض المعركة، ولكنه أحس منهم كذلك بالمسؤولية الكبرى وأعرف بنتائج المعركة التي كان يختصرها بقوله: حسبنا سلامة الدين.

ولم تكن النقمة على إغفال الناس والإسراع إلى الأخذ بناصية الحكم على غرة محصورة في بني هاشم من قريش، بل كانت شائعة في السواد من المستضعفين الذين أخذوا بالشدة والعنف والإرهاب، وفي أشراف قريش ممن يرون أنفسهم أولى من تيم: إخوان أبي بكر وعدي: فخذ عمر، وأحق بالتقديم على هذين إذا كان لا بد من تأخير علي.

وارتد التفكير يومئذ، أو برز على حقيقته - بتعبير أدق - عشائريا محضا يجتر عصبياته الأولى، وذلك أخشى ما خشيه علي فألزمه بالتضحية وأرضاه بالقعود، وليس أحد أعلم من أبي بكر وعمر بهذه الخصلة العلوية التي استغلاها أبعد استغلال عن الرفق والهوادة. كان الحزب الأموي، وهو يمالئ غيره من الأحزاب على إقصاء علي، يرجو أن تؤاتيه الفرصة كما رجا الأنصار لأنفسهم مثل ذلك. فينصب عثمان إذا أزف الوقت أو عبد الرحمن بن عوف وأبو سفيان وراء أحدهما، وكان يظن أن المنافسة ستعرض في ميدان أوسع من هذا الميدان

الذي غلس إليه الأنصار في عتمة، ووثب عليهم منه أبو بكر في عتمة وانتهى الأمر فجأة فإذا تيم وعدي أسياد قريش، ندم هذا الحزب على ما فرط، وحاول أن يقوم بمسعى لا حساب فيه للإسلام، وإنما أساسه العصبية، وهدفه الفتنة، فاجتمع الأمويون حول عثمان، وبنو زهرة حول عبد الرحمن بن عوف متحلقين في المسجد النبوي تحلقهم القرشي في مسجد الكعبة، وخرج أبو سفيان يطوف في أحياء المدينة. ويؤلب الناس باسم علي، والناس مأخوذون ينتظرون خروج علي نفسه لا يخدعهم من تكلم باسمه، فقد نبه فيهم موقف عمر من موت النبي غريزة الحذر، وظل أبو سفيان يطوف حتى وقف على البيت الذي فيه علي هادرا بهذه الأبيات:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكمو
ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكمو وإليكمو
وليس لها إلا أبو حسن علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم
فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي

ثم يدخل عليه فيقول له: أبسط يدك أبا حسن أبايعك والله إن شئت - لأملأنها عليهم خيلا ورجلا. ولكن عليا يعتصم ويقول له قوله مبدأ ناسيا فيها ذاته: (لا حاجة لنا ببيعتك، إنما تريد الفتنة ولطالما بغيت للإسلام شرا). فينصرف أبو سفيان غير يائس، راجيا أن يجد عند العباس ما فقده عند علي، على

أنه لا يجهل أن أبا الفضل يدين لابن أخيه بالرئاسة، ويعطيه من نفسه الخضوع. فإذا تقدم إليه بالعرض، وبذل له البيعة قال له العباس: أصلحك الله – أبا سفيان – ألا تعلم أن ابن أخي أمير علي؟ توجه إليه بما تقدمه إلي أكن معك، فقال أبو سفيان: ولكنه رفض. فضحك العباس وقال: لقد تقدمت إليه قبلك بالبيعة فأباها لأن النبي عهد إليه بالصبر، وهو مقيم على عهد الرسول يضحي بمنصبه ليحفظ الإسلام، ويطبق مبادئه، ولا يسع العباس أن يطلب شيئا يرفضه علي.

وكان يعلم أبو سفيان أن النصر في يومه ذاك لا يرجى إلا بعلي، وكان من الطبيعي أن يعود إلى حزبه بعد رفض علي بتوجيه جديد في انتظار فرصة جديدة منكفئا إلى حجره، ويأتي عمر إلى هاتين الحلقتين فيحملهما على البيعة، فتبايعان معتقدتين أن قعود علي كان أقوى دعامة في بيعة أبي بكر. وقد لا يجهلون أن سبب قعوده إنما هو الحرص على الوحدة في مواجهة المرتدين من العرب خارج المدينة، وأنه لو نهض لانشغل بجاد الحزب الظافر، وأشغل الحزب الظافر في تلك الجبهات المفتوحة، ومكن آخر الأمر للردة أن تجتاح المدينة وتطفئ نور الإسلام، فكانت مصلحة الإسلام عنده مقدمة على حقه الذي أقعده عنه هذا الظرف الدقيق الحرج.

بقي النبي مسجى يومين والناس يختلفون على ميراثه، ويتقارعون بالحجج والسياط باسمه، وهو لقى بين وارثيه الحقيقيين. نساؤهم يلتدمن وينحن، ورجالهم يذكرون الله

ويقرأون القرآن، فلما فرغ الناس من أمرهم نهض علي لغسل النبي ومعه عمه العباس وابنا عمه الفضل وقثم، وأسامة بن زيد وشقران مولى النبي، وتولى علي غسله بنفسه وأمر أسامة وشقران أن يصبا له الماء، وعلى النبي قميصه، لم يجرد منه، فلما فرغ من غسله صلى عليه، ثم عرضه في حجرته للمسلمين يودعونه أفواجا من رجال ونساء وصبيان، ثم انتظر به حتى منتصف ليل الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول ودفنه في موضع سريره من حجرته.

وفي اليوم التالي شهدت المدينة روعا أنساها دهشها لوفاة النبي، شهدت حطبا يلقى في فناء بيت فاطمة: بضعة الرسول وسيدة نساء العالمين، وشهدت شرطا على رأسهم عمر بن الخطاب يقتحمون هذا الحرم، وشهدت المدينة فاطمة نفسها محصورة بين الباب والحائط، وشهدت عليا آخر الأمر يساق بحمائل سيفه، أو يقاد بعمامته. كان بعض هذا لا يحمل ولا يطاق، ولكنها الأحكام العرفية.

وتفصيل الحكاية أن عمر غدا من صباحه بعد دفن النبي على أبي بكر فوجد عنده خالد بن الوليد من قريش، وأسيد بن حضير من الأنصار، وغيرهما من حاشية الحكم الجديد، وهم يتذاكرون أمر أقطاب المتخلفين عن البيعة، ويذكرون عليا وسعد بن عبادة، فيرى عمر أخذهما بالشدة. ليبايعا، فإذا امتنعا ضربت عنقاهما. ويرى بعض الحاضرين إعفاء سعد من الدعوة فإن تخلفه بعد أن بايع الأنصار ليس بذي خطر، بينما

الخطر كل الخطر في أخذه بالشدة ذلك أنه غير مبايع حتى يقتل، ولا يقتل قبل أن يقتل أولاده، ولا يقتل أولاده إلا أن تقتل الخزرج، ولا تقتل الخزرج والأوس في عافية. قال صاحب الرأي: وهو – بعد – رجل يتمنى أن تعرضوا له بسوء ليتخذ من تحرشكم حجة لإعلان الحرب. أما علي فإنه أمنع من ذلك وأشد خطرا لو كان من أهل الطيش، ولكن الذي يعين على علي حلمه وعقله وحرصه على مصلحة الكل، فالذي منعه من التقدم إلى الدعوة لنفسه يمنعه عن الثورة إذا أخذتموه بالشدة، من أجل هذا ينبغي أن تبدأوا به، ولتعلموا أنكم في أمن من غضبته فإذا ظفرتم ببيعته لم يضركم تخلف سواه من سعد وغير سعد، فإن بيعة علي تعدل بيعة سائر المسلمين.

ويرسل أبو بكر يدعو عليا إليه، فيمتنع علي ويقول للرسول: أبلغ أبا بكر أني متفرع لجمع القرآن وتدوينه قبل أن تأتي عليه الصروف، أو تعتدي عليه الأيام، وقد آليت أن لا أخرج ولا أضع على كتفي رداء قبل جمعه وتدوينه. ويدعوه أبو بكر ثانية فيمتنع. عند ذلك يتطوع عمر لإجباره على المجئ ويمده أبو بكر بخالد وأسيد ونفر من الحاشية والشرطة، وتتوجه هذه الحملة بقيادة أبي حفص إلى دار علي معلنة، تقدم بين يديها الرعب، وتجر خلفها الارهاب، يتقدمها الحطب والنار بأيدي غلمان كغلمان أبي جهل، وينتشر وراءها المخذلون بإرجاف كإرجاف الحرث بن النضر، فإذا انتهى

الزحف إلى دار علي وكوم على بابها الحطب قبل لعمر: ماذا نراك صانعا يا أبا حفص؟ فيقول: والله لأحرقن عليه البيت إن لم يخرج فيبايع. فيقال له: ولكن في البيت فاطمة؟ فيقول: (وإن)..
قال المحدث: نجح عمر بحمل علي على الخروج، وسوقه من بيته إلى المسجد في مأساة منعه من شرها يومئذ حلم علي والأحكام العرفية ولكنه لم ينجح بحمله على البيعة، بل هيأ له وللزهراء التي لحقت به في جمهور من حفدتها أن يعلنا في أشهر يوم من أيام المدينة وأجمعه للناس، رأيهما بخلافة أبي بكر وهو رأي النبي، ورأي الآلاف ممن استنفرتهم غرابة المأساة، وحشدهم شذوذ الحادث. وقد تهيأ لعلي في هذا الملأ أن يقرع أبا بكر بحجته على الأنصار، ويزيد على حجة أبي بكر تلك بما عنده من حق وعلم ومنطق واعتدال لا ينكر عليه أحد من الحاضرين شيئا منها، كما تهيأ للزهراء – وقد أسدل بينها وبين الحشد ستار – أن تبسط قصة الإسلام حرفا حرفا، وسرا سرا، ومرحلة مرحلة، حتى تنتهي منه إلى المشكلة الحاضرة، فتدين الحاكم الجديد بالاغتصاب، والجمهور بالردة، إدانات بينة تقيم عليها الشواهد، وتدلي فيها البراهين، معلنة أن أباها لم يمت حين مات جسده، ولكنه مات يوم نزا على منبره من لا تحمله إلى هذا المنبر كفاءة، ولا يرشحه إلى ارتقائه حق. ثم توبخ الأنصار، وتوبخ الجمهور جزاء تناسيهم ما حفظوا من حق زوجها، وتجاهلوا ما علموا

من النص عليه، معتزة في الختام بذات الحق فقائلة: (ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم من خور القناة، وضعف اليقين، فدونكموها، فاحتووها مدبرة الظهر، ناقبة الخف باقية العار، موسومة الشعار، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، (وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد).

كان هذا صدى خشونة عمر، وهو صدى لولا الارهاب وحكمة علي لسارت (المدينة) معه في اتجاه آخر من اتجاهات التاريخ المفتحة الأبواب في هذه اللحظة، والواقع أن عمر بفعلته هذه حمل عقول الناس في هذا اليوم فوق ما تطيق، من كسر لضلع الزهراء وسوق لعلي، وإضرام للنار أمام دارهما، فعلي سيف الله ووصي رسوله، والزهراء بضعة النبي وسيدة نساء العالمين، ودارهما مهوى قلوب المؤمنين، وقبلة آمالهم، فأي غليظ من هذه الأحداث يعرض على عقول المسلمين الذين رأوها بأعينهم ثم لا يهزها بزلزال شديد؟ وأي غريب من تسور عمر على علي - في حساب معاصريها - لا يخض العقيدة الإسلامية نفسها في صدور العامة، وبين علي وعمر بعد بعيد في كل حساب، وقد عبر عنه عمر نفسه مرة أبلغ تعبير فقال: كنا ننظر إلى علي في عهد النبي كما ننظر إلى النجم، وما يزال علي في نظر الناس نجما يرتفع فوق عمر عندهم في ميزان السابقة والجهاد والتضحية والعلم والعدل والرأي، يرتفع بهذه كلها قبل القرابة، وقبل الدم والوراثات لا

فرق في هذا الرأي بين الناس أجمعين: مهاجرين وأنصار، وأقوياء ومستضعفين، ومسلمين وغير مسلمين، ومخلصين ومنافقين، أفمن الغريب بعد هذا أن يرعد الشك في صدور أهل المدينة، وتحرج العقول في أمكنتها من رؤوسهم؟

قال المحدث: استعرض عمار مراحل علي في نصوص النبي، فرآه الإمام الحاكم بأمر الدين الذي جاء به نبي الإسلام، واستعرض الأحزاب الإسلامية فرآها سياسية كلها إلا هذا الحزب الديان من إخوان علي ففضله وانضم إليه، وحسب للتضحية في سبيله قبل أن يقبل عليه كل حساب فوطن نفسه على بلاء تعود أن يتلقاه ببدنه، ولكنه لم يخطر له قط أن يمتحن بمأساة يعرض فيها علي والزهراء معه في مأتم النبي بالذات إلى فتنة كهذه ثم لا تهبط السماء على الأرض، ولا يخرق في هذا الكوكب خرق يقذف منه الناس إلى فضاء المجهول، ولا تهب عواصف كعواصف (عاد) فيها ريح صرصر عاتية!.

حاص عمار حين اعتقل علي. هب مع من هب من المجتمعين إلى علي حين أقبل عمر، وحاول أن يشتبك مع القادمين، ولكنه حدق بوجه علي فرآه صافيا لا يشير إلى اشتباك، ولا يأمر بخصومة، وإنه ليقاد فينقاد، ويح عمار! إذا كان علي إماما حقا – وهو إمام حقا – فلماذا لا يدافع؟ وإذا كان إماما حقا – وهو إمام حقا – فلماذا لا يغضب له الله فيهلك هؤلاء المستظهرين عليه بقوى جائرة؟ وإذا كان إماما حقا – وهو

إمام حقا – فلماذا لا يأمرني ويأمر من معي بالقتال؟ وإذا كان إماما حقا – وهو إمام حقا – فلماذا يتظاهر عليه هؤلاء ويسلمه الجمهور؟ وإذا لم يكن إماما حقا – وهو إمام حقا – فما معنى الإسلام، وبماذا تفسر نصوص النبي، وكيف نفهم حرصه على تقديمه وتفضيله؟ أأنا وحدي مؤمن والناس كلهم ملاحدة شذاذ مارقون؟ أم الإيمان شئ مرن يفسره الناس وفق مصالحهم ومنافعهم؟ علام شقينا وامتحنا – إذن – وشربنا كؤوس الموت؟

عمار يعرف أجوبة كل هذه الأسئلة معرفة قديمة، يعرفها وهو ابن عشرين، فهو منذ ذلك العهد كان يدير عليها حواراته مع أبيه وقد رأى النبي نفسه يضطهد أول أمره فلا يدافع عن نفسه، ولا يغضب له الله فيهلك أعداءه، ثم لا يأمر أصحابه بالدفاع عنه ولا عن أنفسهم خشية الفتنة، ثم رأى النبي قليلا ورأى عدوه كثيرا، وعلم بعد ذلك أن الإسلام قدم عليا، ولكن الأحزاب أخرته وأن تقديم الإسلام لا يضره ولا يضر الإسلام في جوهره تأخير الأحزاب، وإنما يضر تأخير الأحزاب الأحزاب أنفسها، وما شك من قبل في أن قلة المؤمنين لا تدل على بطلان الإيمان إذا لم تدل على صحته، وأن كثرة المنافقين لا تصحح النفاق إن لم تؤكد بشاعته!

عمار يعرف هذه التساؤلات معرفة قديمة ثابتة مجربة، ولكن المأساة حملته فوق ما يطيق، فحم وهذى وكان يجن.

ولم ينفرد عمار بهذا الذهول فقد ذهل سلمان الفارسي وهو ما هو رسوخا في المعرفة، أقبل عمار إخوانه على أميره وهو معتقل وراح يحدق بوجهه فرآه صافيا لا يشير إلى اشتباك، ولا يأمر بخصومة، صفق سلمان أول الأمر حسرة على الأمة، وقال (أسلموا وما أسلموا) ثم عاد يحدق بوجه أميره فيراه صافيا، فينقلب حائرا ذاهلا ولا يلبث حتى يجد الكلمة التي تخرجه من مأزق عمار فيقول: (ما أنا وذا، لو شاء لقلب ذي عل ذه) لا مغاليا بل معبرا على قدرة علي على النهوض لولا خشية الفتنة، ويتابع فيفسر غرضه بقوله: " ويحهم لو بايعوه لما اختلف منهم اثنان " (١).

والمقداد لم يكن أقل من أخويه ذهولا وحيرة، أقبل معهما كما أقبلا وكما أقبل غيرهما، فنظر في وجه أميره، فرأى وجه الأمير صافيا لا يبشر إلى اشتباك ولا يأمر بخصومة، فطارت عيناه من وجهه، ثم غاصت في صدره، وراحت حدقتاه تضيقان وتتسعان، وتدوران وتعودان إلى وجه أميره عسى أن تبدو على ملامحه إشارة إيعاز أو إيماء فتك، ولكن الوجه الكريم صاف منبسط كالعهد به، والمقداد يهرول وعيناه شاحبتان تنتظران الإشارة من وجه علي، ووجه علي بسام لا أثر فيه لخصام.

---

(١) كان أبو ذر غائبا عن المدينة فلما عاد، وكل شئ منته، قال قول سلمان، وأسف لسوء تصرف الأمة وخسرانها بالعدول عن علي وبمخالفتها لأمر النبي.

وما كان هؤلاء وحدهم في الميدان، فقد كانت عامة المستضعفين على مثل هذه الحال من الارتباك والحيرة، وكان الحزب الأموي في الأقوياء على هذا الرأي من زاوية أخرى، وكان الأنصار أنفسهم هؤلاء الذين بايعوا أبا بكر على هذا الرأي، وكانوا يقولون لو داهمنا علي وداهم أبا بكر في السقيفة لما اختلف عليه اثنان، كانت المدينة كلها على هذا الرأي، وكل هؤلاء لم يكادوا يصدقون حدوث ما حدث ولم يكن المتآمرون على حق علي يتوقعون تطورا يؤدي إلى مأساة كهذه المأساة التي عقائد، وطاشت بعقول، ولكن مؤامرات المتآمرين لزمتهم فسكتوا مكرهين، وساعدهم على السكوت طاقة التضحية الهائلة التي لمسوها في علي، وكان الارهاب كافيا لإسكات الجماهير بعد ذلك.

لم ينفرد إذن عمار بهذه الحيرة المستبدة القاسية، ولم تقتصر مشاركته في هذه الحيرة على صاحبيه وغيرهم من شيعة علي، بل عمت المدينة كلها، وساعد عمر بدوره على تعميمها فأخطأ بخطته هذه، بمقدار ما أصاب في الميزان السياسي بوقفته من وفاة النبي. أراد أن يحمل عليا على البيعة، فحمله علي على أن يحشد أكثر ما يمكن من حشد الناس، وأراد عمر أن يري هذا الحشد قوة العهد الطالع، فأرى علي الحشد ظلم هذا العهد، وأراد عمر أن يرى عليا مبايعا، فأراه علي أنه مخطئ، وأراد عمر أن يصغر من قدر علي ويقلل من هيبته، فازداد علي في نفوس الناس رفعة ومهابة، وأراد عمر أن يسدي

لأبي بكر يدا بتقصير مدة امتناع علي فمدها ستة أشهر، مر منها شهران ونصف شهر - هي مدة بقاء الزهراء بعد أبيها - أصعب ما يمر على حكم من أيام شداد، وأزمات عاصفة، ذلك أن الزهراء كانت عليها السلام تدير معارضة ما ندري لو طال بها العمر أكانت تثبت لها حكومة أبي بكر أم لا، ثم مضى علي بعد وفاة الزهراء غضبى على العمرين، ممتنعا عن البيعة غير معارض، إلا أن امتناعه وامتناع آله وأصحابه معه كان يجرح بيعة أبي بكر، ويتهم شرعيتها في العالم الإسلامي كله.

ولا تقف غلطة أبي حفص هذه عند هذا الحد، بل تزيد فتؤسس من تلك الأحزاب التي لم تكن لها أشكال ولا ألوان ولا خطط ثابتة أحزابا ذات تضحيات تدفعها للعمل والنشاط، وليت الأمر عني بهذا القدر من تنظيم الأحزاب وبث روح، النشاط فيها لخير الدولة، إنه آنذاك يكون موقفا إلى كثير من الصواب، ولكن أمر غلطته المستوحاة من اندفاعة حماسية آنية سطحية، فسحت المجال واسعا أمام أحزاب ضارة تكيد للإسلام، وتسعى إلى مصالحها الخاصة، ثم كان من نتائج هذه الغلطة أن تورط عمر نفسه، واضطر بحكم المنافسة التي أنماها الزحام أن يتبنى أحزابا وأفرادا من غير حزبه لا صلة برأيه ولا بطريقته، ليمسك - إذ يتبناهم - بزمام التوازن أو ليمضي في عداوة الحزب العلوي. وجرته هذه الغلطة آخر الأمر إلى السير باتجاه الدكتاتورية البعيدة عن روح الإسلام سيرا

انتهى إلى غايته يوم رقى الحكم، وأدى به إلى الموت قتلا على يد حزب أو أفراد تبناهم بقصد أو غير قصد. ومن المحقق أن عمر لو لم يشغل الناس بالحرب منتفعا بمغزى بعث أسامة، ولو لم يؤيده علي بالتعاون معه على تحقيق المصلحة العليا، لأسرع إليه يومه قبل يومه من أبي لؤلؤة، ومن المحقق كذلك أن عمر لو سلم من أبي لؤلؤة وامتدت أيامه زمنا من بعد ذلك لوجد الناس غير الناس، ولامتحن منهم ببلاء شديد، ولوجد غلطته هذه وذيولها مصدر عنائه، ولكن الحظ واتاه فاشتغل الناس بالحرب والفئ، ثم واتاه بمصرعه على يد هذا الغلام المجرم، ومما يحمد في هذا المصير - لو كان لإجرام أن يحمد - أنه أنقذ أبا حفص وأنجاه من خطوب قد لا تمسك عليه هيبته لو أدركها.

ولم تخف هذه الغلطة على أبي بكر، فإذا زينتها الاندفاعة له أول الأمر، فقد جسدت له خطأها النتائج التي لمسها بارتداد قوم مسلمين، وعصيان آخرين من المؤمنين اعتصموا بالإسلام ولكن امتنعوا عن المساهمة بتمويل الخزينة، منكرين شرعية البيعة، كما رفض في المدينة عطاءه ناس كثيرون من نساء ورجال، معتبرين عطاءه رشوة في الدين، في أمور كونت في نفسه من هذه الغلطة عقدة ألحت عليه بالندم حتى مات وأشباح هذه الغلطة نصب عينيه مخيفة هائلة، وما مات إلا وهو يتمنى لو سلمت حياته من أمرين: اقتحام دار علي، وتحمل مسؤولية الحكم يوم السقيفة.

قال المحدث: وعاد عمار من المسجد يصاف سلمان والمقداد والزبير مختلطين ببني هاشم، خلف علي والزهراء، وما عاد إلا معافى من حماه، ثابتا في معرفته، مفكرا في صمته، مجندا للإسلام في هذه القلة من أصحاب علي ممن عرفوا بعد ذلك باسم الشيعة، وقد فكر وقدر واستعرض الأحداث وحللها وعللها على نحو ما سمعت في هذا الفصل، فلم يستطع إلا أن يكون شيعيا فكان، ولو أراد الغنى والوفر والراحة لوجدها في غير هذا الصف، ولكنه أراد الحق وأراد العدل، والحق والعدل قيمتان لهما ثمن باهظ، وهو منذ كان مسلما يسدد هذا الثمن أقساطا من الجهاد المتصل الثقيل الرفيع، أتراه يمتنع عن الدفع في لحظة يهدر فيه الامتناع كل ما بذله فيما سبق، ويخرج صفرا من ثروته المعنوية التي لم تتح إلا للأقلين؟

سأل نفسه عن ذلك.

وكان الرجل أبر في نفسه، وأتقى في دينه وأذكى في عقله.

يوم اليمامة

لم تكد تمضي الشهور الأولى من عهد أبي بكر حتى أقنعت أتباع علي بصواب سياسته في القعود عن حقه، وأقنعت خصوم علي بخطأ سياستهم في تأخيره عن هذا الحق، وجاءت الحوادث واحدة بعد الأخرى تبرهن على هذه الحقيقة بمظهريها المتناقضين هذين، وهل حوادث الردة، إلا الصدى الصحيح لانقسام أهل المدينة، وللوثوب بعلي الذي كان قياس الواثبين على الإسلام؟ وهل مقاطعة العهد القائم، والامتناع على إخراج الزكاة عند فريق من المسلمين كبير، إلا الجواب العملي لتأخير علي، وتقديم غيره مما لم يكن منتظرا، ولا متوقعا ولا مرضيا؟ وهل هذه الحوادث جميعا، سواء فيها حادث الردة وحادث المقاطعة، إلا الوثائق المادية لصواب علي فيما ذهب إليه من تضحية وصبر وانقياد للعهد القائم الذي لم يرع في علي كل حرماته؟ إن هذه الأحداث من شهور العهد البكري الأولى لم تبق شكا بحقيقة تلاقت عندها الأدلة الواقعية من طرفيها المتناقضين، فاقتنع خصوم علي بأن تأخيره كان خطأ، واقتنع أنصاره بأن سكوته – وقد أخر – كان صوابا،

وهم جميعا الآن إزاء أمر واقع لا تنفع فيه الملاحاة، ولا يغني عنه الجدل، فليبق ما في النفوس في النفوس، ولينشط الكل لإقرار الأمن، وحفظ الدولة، والدفاع عن الدين.

وكان علي أسرع الجميع إلى الاستجابة لنداء ضميره استجابة حدثنا عنها فقال: (فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي أن العرب تزيح هذا الأمر من بعده - صلى الله عليه وآله - عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على أبي بكر يبايعونه، فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد - صلى الله عليه وآله - فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما. تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل. يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه).

لم يكن يبالي شيئا غير الإسلام، ولا يخشى شيئا غير محق الدين فلما رأى راجعة الناس ترجع عن الإسلام، نسي ذاته، وداس كل اعتباراتها، وتجند - ولما يبايع - وجند أصحابه، وكان أول محام عن الثغر، وما عجب الناس إذ رأوه طليعة الدفاع عن المدينة، بل مشوا خلفه يكشف ويكشفون معه طليحة بن خويلد ومن اجتمع له من أسد وغطفان وطي وكنانة، وقد طمعوا بمن في المدينة، وأطمعهم بهم انقسامهم، ولكنهم

وجدوا المسلمين جبهة واحدة في الميدان، ووجدوا سيف الله كما عهده المشركون قاطعا عاصفا لا تقف له السرايا، ولا تصمد بوجهه الجيوش.

والواقع أنه كان أحوط لكلمة التوحيد، وأحرص على توحيد الكلمة، من أن يعتزل هذه الأحداث، وإن اعتزل مجلس أبي بكر. تجند هو كما رأيت، فلما ربح الإسلام هذه الموقعة، جند أصحابه للدولة فيما تلاها من الأحداث، وانصرف هو لجمع القرآن، وبث العلم، وإدارة الحركة الفكرية، والإشارة على أبي بكر بما يرجع به إليه مما يعتاص عليه وعلى حاشيته من رأي أو حكم.

وكان عمار في طليعة أصحابه المجندين. مشى تحت لواء خالد بن الوليد، وقد استفحل في اليمامة أمر مسيلمة الكذاب وبني حنيفة من خلفاء طسم وجديس. ويلتقي الجيشان، فيجد المسلمون في خصومهم أكفاء حرب لا عهد لهم بمثلهم، فإذا استحر القتال صمد المرتدون، وتضعضع المسلمون، ثم تصدعوا، ثم أفلت الزمام من يد خالد، واستضرى مسيلمة وأتباعه، فشدوا على المسلمين شدة إجهاز، فيجفل هؤلاء ويتفرقوا كالقطيع المذعور. حدث عبد الله بن عمر - كما روى الواقدي وابن سعد وكل مترجمي عمار - فقال: رأيت عمار بن ياسر قائما على صخرة وإن أذنه تذبذب، وقد أصابها سيف، وهو يقاتل أشد قتال، ويصيح بالمسلمين المجفلين الفارين: يا

معشر المسلمين أمن الجنة تفرون؟ ثم يصرخ: أنا عمار، أنا عمار هلموا إلي، وأنا أنظر إلى أذنه وهي تذبذب.

وما يزال يقاتل وينادي ويحرض حتى اجتمع حوله المسلمون فكر بهم وكان الفتح.

* * *

أمير الكوفة

بعد سنتين من بيعة السقيفة وثلاثة أشهر وأيام يتفاوت عدها توفي أبو بكر، ونهض بالأمر بعهد منه عمر بن الخطاب، ومهما كان رأي الخاصة من وجوه الصحابة، وقادة الفكر في المدينة بهذا العهد، فإن أحدا منهم لم يفكر بمعارضته أو الخروج عليه. يوم حاول عمر أن يجبر عليا على بيعة أبي بكر قال له فيما قال: (إحلب حلبا لك شطره، وشد له اليوم يردده عليك غدا) وفي حديث لعبد الرحمن بن عوف مع أبي بكر في مرضه الذي توفي فيه عبر عبد الرحمن عن مثل رأي علي بعهد الصديق للفاروق، وكان جماعة المهاجرين والأنصار وفي طليعتهم طلحة أصرح من ابن عوف حين دخلوا على أبي بكر في مرضه – وقد شاع نبأ استخلافه عمر – فقالوا له: (نراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته، وعلمت بوائقه فينا، وأنت لاق ربك فسائلك فماذا أنت قائل). وقال رجل لعمر نفسه: (أمرته عام أول، وأمرك العام؟) وكان عمر خرج إلى الناس بأمر أبي بكر يحمل إليهم كتابا مختوما، ويعلن لهم أن الكتاب ينطوي على عهد الخليفة، ويسألهم عن سمعهم وطاعتهم،

فيسأله الرجل الظريف عن محتوى الكتاب، فيقول أبو حفص: لا أدري. ويقول الرجل على الملأ: ولكنا نعلم (أمرته عام أول، وأمرك العام).

ليس المهم رأي الصحابة وسائر الناس في هذا العهد، ولكن المهم أن أحدا منهم لم يفكر بمعارضته ولا الخروج عليه، وأهم منه أن أبا بكر استفاد من تجربة بيعته ما فرض عليه أن لا يفارق هذه الدنيا حتى يرى إلى خليفته قائما مؤيدا بالجيش، وأن عمر استفاد من اطلاعه على آراء الصحابة بعهده، فحجر عليهم الخروج من المدينة لئلا يفتنوا الناس، ولئلا يفتتنوا بالناس، وأبقاهم قريبا منه خاضعين لرقابته مستفيدا من آرائهم ومعارفهم ما يؤيده في فتوحه، ويمتعهم في راحتهم.

وأهم من هذا وذاك أن الأمور اتسقت له أتم الاتساق، واستقامت له أعظم الاستقامة. أشغل الناس بالجهاد فمد ظل الدولة، وأنمى مواردها الاقتصادية، وأغدق الأعطيات أمينا على مال المسلمين، عادلا بالقسمة، شديدا في الأمانة والعدل، مستعينا على تنظيمهما بالأخصائيين ممن دونوا له الدواوين، وأحصوا له العاملين والعاجزين في تشكيلات حضارية تبينت فيها أهمية الاحصاء كأساس للميزانية والتموين والجيش وغيرهما من دوائر التخطيط المدني، على نحو حقق الضمانات الجماعية تحقيقا مرضيا، يرضي المعارضة البناءة التي لا تطمح من الحكم إلى أكثر مما حقق، ويقطع ألسنة

المرضى بشهوة الحكم ممن يعارضون من أجل المعارضة، ومشى رشيدا حازما كبير الحظ بمواتاة هذا الظرف الذي فرضت السكينة فيه على جميع الأحزاب، ورضي البناؤون وساهموا برفع البناء، وهدأ الهدامون وأرجأوا مطامعهم إلى سنوح الفرصة، واتجهت الهمة جمعاء إلى توطيد الحكم الإسلامي في هذه البلاد المفتوحة، ونقل هذه الأمم من عالمها القديم إلى عالم (محمد) الجديد.

وعلي خلال ذلك مقبل على مدرسته يذيع منها المعرفة، منصرف إلى عمله يكسب منه الرزق، ساهر على مصلحة الدولة يشير عليها بما يجنبها وعورة المآزق، ويسهل لها حل المشكلات، وتلاميذه صور منه يسعون بين الناس معرفة وطمأنينة، وتعاونا مع كل مريد للدولة خيرا، أو مبتغ للأمة صلاحا. وعمار أحد هؤلاء التلاميذ الهداة المهديين، ولعل صمته الطويل، ولسانه القصير جعلاه من أقربهم إلى رضى العهد العمري، وأبعدهم عن حذر أبي حفص، وقد كان من سياسة أبي حفص إقصاء الهاشميين وأتباعهم ومن بحكمهم عن المراكز لئلا يستغلوها بالدعوة إلى أنفسهم، ذلك ما عناه بالفتنة التي خشيها عليهم وعلى الناس، ولكن عمارا ليس جبارا في الأرض، ولا طامحا إلى الخلافة، ولا معتزا بغير التقوى والصلاح، نعم هو من أتباع علي، ولكنه طويل الصمت قصير اللسان فلا يخشى منه، ولعل توليته ترضي الهاشميين بهذا النصيب من الحكم الذي يصلهم عن طريق عضو من أعضاء

حزبهم، فإن لم ترضهم كانت من أعذار الخليفة لدى الناس تعلن لهم حياده وإنصافه وعدم تقصيره، وما ندري فربما خطر للخليفة – وهو يفكر بتأمير عمار – أمر آخر ينقض هذا كله من أساسه، ربما خطر له أن يستل عمارا من شيعة علي. ربما كان هذا، وربما كان ذاك، وربما كانا جميعا من أسباب التفكير بتأمير عمار، وسواء أصح كل هذا أم لم يصح، فالمحقق أن عمر ولى عمارا على مصر هو من أعظم أمصار الإسلام، إن لم يكن أعظمها يومذاك، ولاه على الكوفة، فجعله أميرا، وجعل معه عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف – وهذا شيعي أيضا وزيرين أولهما للمال والتعليم، وثانيهما للسواد – ضواحي الكوفة وبساتينها – وفوقهما عمار للإمامة والجيش وكتب لأهل الكوفة في ذلك كتابا هذا نصه:

(أما بعد فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا، وابن مسعود معلما ووزيرا، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد. من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بابن أم عبد (١) على نفسي بعثت عثمان بن حنيف على السواد، ورزقتهم كل يوم شاة فاجعلوا شطرها وبطنها لعمار، ولعبد الله ربعها، ولعثمان ربعها).

---

(١) يعني عبد الله بن مسعود، وربما كان للتشديد على ابن مسعود مغزى لا يخفى على المتأمل.

ابن سمية وياسر ذلك الجبار على أبي جهل وعذابه، لا تنتظر منه كبرا ولا بطرا ولا غرورا. لقد وجد نفسه سيدا فوق السادة حقا ولكن ذلك لم يزده إلا تواضعا وخشوعا وإيمانا بالحق من هذا الدين الذي أوحاه الله، وجاء به الرسول. مضى إلى شأنه أميرا كالعهد به وهو رعية، وللإمارة سلطان خارج عن ذاته، هو فوقها عنده، وليس حظه منه إلا بسطه على الجميع في مداره العام، فلو أدانه نفسه لأخذ من نفسه ما يأخذ من غيره دون فرق، فإذا فرغ من الأمور العامة خلع ثوب الإمارة، وعاد عمارا كما هو ذلك المواطن الوديع الصامت المفكر، لا يستعلي، ولا يتبجح، ولا يحتجب، بل يخالط الناس كأحدهم، ولعله يخالطهم كأدناهم، يزاحم فلا يغضب ويماكس فلا يستعين بالإمارة، وقد يغلظ عليه القوم فلا يرد إلا بالابتسام، فإذا تكلم لم يقل هجرا، ولكن دعاء يرجو به للمعتدي مغفرة أو خيرا.

حدث ابن سعد فقال:

اشترى عمار قتا (١) بدرهم فاستزاد البائع حبلا فأبى عليه البائع، فجاذبه الحبل حتى قاسمه إياه ثم حمل ألقت على ظهره وهو أمير الكوفة.

---

(١) ألقت: نوع من النبات يزرع لأكل الماشية خاصة وكان أهل البادية يأكلون حبه في أيام القحط. يظهر من هذه القصة أن راتب عمار اليومي كان يتحول أغناما.

وغزا رجل من آل عطارد التميمي ثغر (ماه) فأمده عمار بكتيبة قادها هو بنفسه، وكره التميمي مقدم عمار حرصا على الاستئثار بالغنيمة، فقال له: (يا أجدع أتريد أن تشاركنا بغنائمك؟) فيضحك عمار - وهو الأمير - ويقول: (خير أذني سببت) وهي أذنه المقطوعة في اليمامة. وحين تم النصر أبى التميمي أن يشرك عمارا بالغنيمة، ولكن عمر - وقد بلغه الأمر - أشركه إذ قضى (أن الغنيمة لمن شهد الموقعة).

وكان عمار على ترابيته هذه حازما نافذ الحكم، مبسوط الهيبة، مطاعا محبوبا لم يتعرض لشئ مما تعرض له غيره من ولاة الكوفة وحكامها، وكان رشيدا ورعا تقيا يقف من الأحكام عند الحاجة ثم لا يزيد.

حدث ابن سعد فقال: سئل عمار مرة عن مسألة فقال: (هل كان هذا بعد؟) فقيل له: لا. فقال: (دعوها حتى يكون، فإذا كان تجشمناها).

إحساس بالمسؤولية الحكمية لا تجده في الواقع إلا عند الصديقين إنه يحسب للكلمة حسابا ثقيلا، ويرى بها ما يراه في العمل من تعرض للخطأ، فهو جدير أن يخفف من الإجابات ليكون أضمن للصواب، ومن هنا كان لا يتجشم الجواب إلا إذا فرضته الحاجة.

ولعل أبرز مظاهر ورعه أنه كان يعوض عن خطبة يوم الجمعة بقراءة سورة يس - راجع طبقات ابن سعد - متخرجا

من إنشاء الخطبة إنشاء في عهد يعارضه هو رأيا، ولا يريد أن يعارضه فعلا، حرصا على الاستقرار.

ولا يعهد في الورع أسلم ولا أسد من هذه السياسة في مثل هذه الحال، فخطبة الجمعة إنما اشترعت لتأييد الحكم القائم، والدعاء له، وعمار أمير في عهد لا يدين له بالرأي، فإن دعا له حابى في الدين وإن دعا عليه عرض نفسه للهلكة، فماذا هو صانع؟ ليس شئ أفضل في تفادي هذا المأزق من الخطبة بسورة قرآنية، وبسورة يس بالذات.

وما يدرى أكان لهذه الخطبة أثر في عزل عمار أم لا، ولكن الذي لا يشك فيه أن هذه الخطبة لا تسر الخليفة، إن لم تضاعف شكه بالهاشميين وأنصار الهاشميين، وتحثه على إقصائهم خوفا عليهم من فتنة الناس، وخوفا على الناس من فتنتهم.

ما ندري هل زعزعت هذه الخطبة القرآنية مكانة عمار في نفس الخليفة، وأيأسته منه أم لا، ولكن ابن سعد حدثنا حديثا آخر لعله يتصل بهذا الموضوع فقال:

(دخل مطرف على رجل بالكوفة، وإذا رجل قاعد إلى جنبه وخياط يخيط إما قطيفة سمور أو ثعالب، قال: قلت ألم تر ما صنع علي، صنع كذا وصنع كذا. قال: فقال: يا فاسق ألا أراك تذكر أمير المؤمنين؟. قال: فقال صاحبي: مهلا يا أبا اليقظان فإنه ضيفي قال: فعرفت أنه عمار).

الحديث غامض - كما ترى - ولكن الذي نعرفه من نزعة عمار يلقي عليه ضوءا، ويزيل عنه هذا الغموض الذي بسطه عليه إبهام هذا الصنيع المنسوب إلى علي، ولك أن تفترض مطرفا إنما ذكر عليا بخير في صنيعه، ولك أن تفترض أنه شنع على علي في صنيعه، فإن مدح مطرف لعلي وهجاءه لا يغيران شيئا من جواب عمار الصريح الشبيه به، فإن كان مطرف قد ذكر عليا بخير، وفهم منه عمار التعريض بالخليفة - وهو الأشبه بمجرى الحوادث - كان انتهار عمار إياه، معناه إساءة الظن به، واتهامه بالتجسس عليه لمعرفة رأيه بعمر بعد تأميره له، ومن أقرب الأمور إلى وعي عمار أن يكون يقظا حذرا في مثل هذه الأحوال.

وإن كان مطرف قد ذكر عليا بما لا يرضى عمارا - وهو ما لا نظنه - كان جواب عمار الصدى المنتظر لولائه ونزعته، وكان معناه لفت نظر مطرف إلى مواضع من سيرة الخليفة لا تبرأ من النقد، يقابل بذلك مطرفا متأتيا لإسكاته.

ومما لا يكاد يشك فيه أن عمارا بإمارته هذه كان يجتاز امتحانا قاسيا صعبا، وأنه كان يمضي في امتحانه هذا ماهرا محترسا ثابت القدم في مبدئه، وأنت لا تدري ما هي المسألة التي سئل عنها وأنسأ الجواب عليها إلى وقت الحاجة، وأنا مثلك لا أدري ما هي؟ ولكن لا نظن أنها كانت تتسلف رأي عمار بالخليفة بعد عمر؟ ثم ألا نظن أن المسألة كانت مدسوسة دسا لم يخف على عمار الذي فطن إلى أنها جس

نبض يراد به معرفة رأيه التوجيهي، ليرفع السائل أو السائلون تقريرا برأيه هذا إلى الخليفة؟ قد يكون هذا وقد لا يكون، ولكن السياسة – دون ريب – كانت متجهة يومذاك إلى صرف الأمر عن علي بعد عمر، وأن عمارا لم يكن ينفذ هذه السياسة، وإن لم تثبت عليه مخالفة، وربما كان ذا أثر عميق حميد في تشيع الكوفة من بعد.

أنت لا تدري ما هي تلك المسألة التي لم يتجشم الجواب عليها، وأنا مثلك لا أدري، ثم إنك لا تدري ولا أدري مبلغ ظننا من الصواب، ولكن سعدا في طبقاته يحدثنا حديثا آخر لا يخرج عن هذا الموضوع، ولا يقل عن غيره من هذه الأحاديث غموضا ولا إبهاما. يقول ابن سعد:

(وشى رجل بعمار إلى عمر فبلغ ذلك عمارا، فرفع يديه فقال: اللهم إن كان كذب علي فابسط له في الدنيا واجعله موطأ العقب).

زكاة النفس ومسحة التصوف في الترفع عن تحديد الجواب ظاهرتان نابضتان في هذا الحديث، ولكن الذي أردته منه غير هذا. أردت أن أعرف منه غير الظاهر النابض، ولكن المحدثين والمؤرخين يجمجمون، فما هذه الوشاية التي ترفع عن عمار إلى الخليفة؟ أيرتشي عمار؟ أيزني؟ أيشرب الخمر؟ أيؤثر أقرباءه؟ أيرتكب موبقة في دينه، أو مخالفة لما أنيط به من رعاية الأنظمة وفرض سلطانها؟. عمار أحوط من ذلك

وأبعد الناس عن كل شائنة. فبماذا يتقدم الواشون عليه إذن؟ أنا لا أجزم، ولكني لا أستبعد أن تكون الوشاية عليه شيئا يتصل بالنشاط الحزبي الذي يكرهه الخليفة ولا يرضاه لعماله، وربما أيد هذا الظن دعاء عمار المتصوف اللبق الزائغ عن الجواب، وإن أعطى معنى الانكار.

ومهما كان من أمر فالثابت أن عمر عزل عمارا بعد هذه الأحداث التي جمجم بها الحديث، ولم يصرح بها التاريخ، فما ندري أكانت من الدقة في عمل عمار المركز بحيث تخفى، أم كانت للحديث والتأريخ سياسة معينة تمنعهما من التصريح وتفرض عليهما الجمجمة؟ وما ندري، أما الذي ندريه فهو أن الحديث والتأريخ جمجما وأجملا، وأن عمر أبقى عبد الله بن مسعود وزير عمار، وعزل عمارا لا لسبب ظاهر إلا لأنه كان مغرما بعزل العمال وتبديلهم - كما قالوا - وأن عمر قال له حين لقيه في المدينة بعد عزله: أساءك عزلنا إياك؟ وأن عمارا أجابه بصراحته وصلابته وترفعه فقال: (لئن قلت ذاك، لقد ساءني حين استعملتني، وساءني حين عزلتني) وهو جواب ينسجم انسجاما تاما مع الاستنتاجات المحتملة لأسباب عزله، ولا يبعد عنها سؤال عمر نفسه وإن جاء مرنا مرونة عمرية - ولعمر مرونة حين يحتاجها تعلم الدهاة المرونة - فهو في الواقع لا يستطلع وقع العزل في نفس عمار، وإنما (ينشئه) مرة ثانية بصيغة الاستفهام، وفي ظلاله التوبيخ والتأديب الذي يبلغ حد التشفي، مشيرا إلى سبب العزل الذي

لم يثبت على عمار، وهل لغضب عمار في الجواب معنى غير هذا؟. لقد فهم عمار مضاعفات السؤال، فغضب.

وانصرف عمار بعد عزله إلى عبادته وعمله يستزيد خلالهما ما يستزيده إخوانه من علم علي ومعرفته، ويمشي في الناس مشيتهم هديا وتعليما وإعانة على الخير حتى كانت فتنة عثمان.

في عهد عثمان
قال الطبيب: أي الشراب أحب إليك؟ فقال عمر أفضل النبيذ. وأتي بنبيذ تناول منه جرعات فنزفت الجراح، وسال النبيذ من أحدها، فبدا على وجه الطبيب اليأس، ولكن الحاضرين لم ييأسوا فقال قائلهم: ليس ما ترى - أيها الطبيب - نبيذا، وإنما هو صديد اشتبه عليك لونه، فقال الطبيب: آتونا بلبن، ويشرب الخليفة من اللبن فتنزف الجراح، ويخرج اللبن من أحدها صريح اللون، فيقول الطبيب للخليفة بجزم: لا أراك ممسيا فما كنت فاعلا فافعل. ويقول كعب الأحبار: يا أمير المؤمنين ألم أنبئك أنك شهيد؟ (١) فيجيبه أبو حفص: وأين الشهادة وأنا في جزيرة العرب؟!.

---

(١) نبوءة كعب الأحبار هذه ليست علما بالغيب، ولا عبقرية في الحدس، ولكنها شاهد من شواهد ذلك الصراع الحزبي العنيف الأخرى، وفلتة ربما دانت كعبا بالانتماء إلى الحزب الأموي والتجسس على عمر في ثوب المخلص له المقرب إليه، وهو بهذه النبوءة يضلل الخليفة عن المجرم المقنع، ويخدعه بهذا اللسان الديني عن الجد في الكشف عن قناع المؤامرة التي يظهر أن لكعب سابق علم بها، وكان كعب بعد ذلك ركنا في بلاط معاوية يدير فيه (الدعاية) ويعلم الدس عن طريق القصص والوضع.

وكانت في نفس عمر خطة أحكم تصميمها وطواها إلى أن يحين وقتها، وهذا أجل نشرها قد وافاه ويوشك أن ينقضي، فلا ينبغي أن يؤخره عن فرضها هول النزيف، ولا روع اليأس من الحياة، وليس بمنجيه استهوال أو يأس، ولكنه أراد قبل فرضها أن يمتحن نفوذه وهو على فراش الموت، هل بقيت منه بقية تلزم الناس بالطاعة، وتخضعهم لرأيه في الحكم ثالث مرة، وآخر مرة، إنه معتزم منذ حين بعيد أن يمسك بدفة الحكم ويسيطر على مسيره حيا وميتا، ولكنه يعلم أن نفوس القادة من الطامحين إلى الخلافة لا تصفو له، ولا يخامره ريب بأن مصرعه على يد هذا الغلام الفارسي المغمور إنما هو نتيجة مؤامرة متقنة، وأنى لغلام كأبي لؤلؤة أن يجرأ على مذل الأكاسرة والقياصرة، إذا لم تسنده قوة من قوى (المدينة) ذاتها أو يدفعه خصم من خصوم عمر، إن لم يدفعه كل خصوم عمر، وهم عقول المسلمين وذوو الخطر في الدولة؟ وقد يحقق – علما أو ظنا – الوجه المختبئ وراء وجه أبي لؤلؤة، ويرى إلى اليد الكامنة في قبضة هذا المجرم الصعلوك الضحية، ولكنه لم يكن بسبيل من القصاص، ولا في صدد إدانة المعتدي الحقيقي الذي لا تتسع حياته للكشف عنه والانتقام منه، وإنما هو إزاء خطة يريد تطبيقها، وإن انتفع بها المجرم المقنع، فالمشكلة إذن إنما هي مشكلة نفوذه المتصل بتطبيق سياسته، لا مشكلة مصرعه التي لم يبق محل للاهتمام بحلها، وهذا الدم ينزف دافقا من طعنات أبي لؤلؤة، فالدم

حياة هاربة، والجراح أبواب تسهل مهمة الفرار، أو هو نهر فاض، وهي سدود منهارة.
فكيف يكتشف الحل لمشكلته التي واجهها؟ إن الخطر على نفوذه لا يأتي من المجرم المقنع إلا إذا صادفت فعلته رضى كل القادة ولقيت تحبيذا من الرأي العام، إنها آنذاك خليقة أن تقضي على نفوذه فتقضي عليه القضاء المعنوي الذي يميت سياسته، ويصرع خطته، أما إذا رضيت من صرعه بإنهاء حياته، فإنها لم تصنع شيئا، وبقي عمر – على رغمها – حيا مسيطرا يرسل التاريخ من خطته إلى غياته، فيخضع التاريخ لخطته ولغايته.
أجال هذه الأفكار بذهنه، في أكبر الظن، إجالة سريعة، وخرج منها إلى الامتحان الحاسم، فأمر عبد الله بن العباس – وكان من مصانعيه ومستشاريه – أن يخرج إلى الناس فيسألهم عن مصرعه؟ أكان عن رضى منهم وممالأة؟ أم كان مفاجأة غير منتظرة، وبغتة غير محسوبة؟ فأنكر الناس، واستعاذوا أن يكونوا شاركوا أو علموا. واكتفى أبو حفص بالإنكار الذي لم يرد أكثر منه، ولم يطلبه إلا ليطمئن على سلامة هيبته، واستمرار نفوذه اللذين وجدهما لم يتأثرا بالاجتراء على اغتياله.
نعم عجب الناس في أنفسهم لأمر أبي حفص. إنه يستعرض الوجوه في صدد ولاية الأمر فيتمنى حياة من ماتوا،

وينسى جدارة من بقي من الأكفاء والنابهين، وفيهم من لا يوازنه أولئك الهالكون!. تمنى أبا عبيدة ليستخلفه، وتمنى سالما مولى أبي حذيفة ليستخلفه، وتمنى آخرين - في روايات أخرى - كمعاذ بن جبل وخالد بن الوليد، وفيهم من لم يكن قرشيا، بل وفيهم المولى، وفيهم من كان عدوا له، ولكنهم جميعا ممن قد هلكوا أما الأحياء فلا يتمناهم، ولا يرشح واحدا منهم بعينه، وهو يعلم أن أولئك ليسوا أفضل من هؤلاء، ولعله يعلم أن بعض هؤلاء لا يعدله أولئك مجتمعين.

وعجب الناس بعد هذا لأمر أبي حفص، يقصيها عن ابنه لأنه لا يريد أن يتحملها حيا وميتا، ثم يتحملها بتقديمها إلى غير ابنه تقديما غير مباشر، ولكنه مؤكد ومضمون!.

ثم عجب الناس لأمر أبي حفص وهو ينصب صهيبا إماما للصلاة خلال أيام الشورى، كأنه يريد أن يفصل بين إمامة الصلاة والإمامة العامة، وإنما عجبوا من هذا لأن إمامة الصلاة كانت إحدى حججه يوما ما على إمامة أبي بكر العامة، ثم عجبوا - وقد ذكر سالما - لماذا لم يؤمر صهيبا، فإن كان هذا مولى - كما قال - فذلك لم يكن ممتاز العرق، ولا ماجد السلامة.

وعجب الناس لأمر أبي حفص، وهو يشهد: أن رسول الله مات وهو راض عن هؤلاء الستة من أصحاب الشورى، ثم يحلل شخصيات هؤلاء الستة فيشهد أن رسول الله لم يمت

قبل أن يغضب على بعض هؤلاء الستة، وأنه مات وهو ساخط على بعضهم سخطا لم يدفن معه في قبره الشريف، بل بقي بعده حيا لا ينكر الناس من أمره شيئا.

عجب الناس عجبا طويلا وهم يستعرضون هذه الأمور التي تشبه المتناقضات، إن لم تكن منها، ولكن أحدا لم يقل: إن الخليفة غلب عليه الوجع، لأنهم كانوا يرون أن له خطة منها أو من مقدماتها هذه الأمور العجاب، فهم ماضون يتتبعون مراحلها، ولا يملكون مخالفتها، لأنهم أحزاب وشيع، كل حزب يمني نفسه منها بفوز وظفر.

والناس أثناء عجبهم الطويل هذا، وانتهائهم من العجب إلى تشوف الخطة، يروحون إليه يسألونه أن يستخلف عليهم حسما للنزاع، وقطعا لدابر الخلاف، فيقول لهم آخر الأمر: (قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أولي أمركم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق) ويذكر عليا، ولكنه يرى طيفا - كما قال - يمنعه من تحمل الأمر حيا وميتا، فيعدل عن استخلافه عليا ويشيعها في ستة من قريش مات النبي وهو راض عنهم - كما قال - وهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، ثم يأمر الناس أن يدعوا إليه هؤلاء الستة، ودخل عليه الستة وهو يجود بنفسه، فقال لهم: (أكلكم يطمع بالخلافة بعدي؟) فلم يجدوا في الجواب على هذا السؤال أرق من الوجوم فوجموا، ولكنه يكرر السؤال، فيجم

القوم، ويجيبه الزبير فيقول: (وما الذي يبعدنا؟ منها؟. وليتها أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش، ولا في السابقة، ولا في القرابة). فيحفز هذا الجواب أبا حفص ويحركه، فلو كان على حال أحسن لأخذت الدرة طريقها إلى حيث تشاء من الزبير، ولكنها كانت لحظتئذ تستدبر أمرها، وكان صاحبها يستقبل أمر آخر، فاكتفى بهذا التصوير النقدي الرائع لشخصيات خلفائه الستة فقال: (ألا أخبركم عن أنفسكم؟)

قالوا: قل، فلو استعفيناك لم تعفنا.

قال: (أما أنت يا زبير فمؤمن الرضا كافر الغضب، يوما إنسان ويوما شيطان، ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد شعير، أفرأيت إن أفضت إليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا؟ ومن يكون يوم تغضب؟).

(ثم أقبل على طلحة (١) فقال له: أقوم أم أسكت؟ فقال طلحة: قل فإنك لا تقول من الحق شيئا. قال عمر: أما إني أعرفك منذ أصيبت أصبعك يوم (أحد) وإلبا بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله - صلى الله عليه وآله - ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم نزلت عليه آية الحجاب) (٢).

---

(١) كان لطلحة يوم عهد أبي بكر لعمر موقف أغلظ فيه القول إلى عمر فلم ينسه حتى مات. راجع صور هذه الجلسة في شرح النهج ج ١ ص ٦٢.

(٢) قال الجاحظ: الكلمة المذكورة هي أن طلحة قال عن نساء النبي ماذا يغنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا (فنتزوجهن) ولم يكن غير مؤدب العبارة وبلغت النبي فسخط عليه.

(ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال له: إنما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وأسهم، وما زهرة والخلافة وأمور الناس؟!).

وقال لعبد الرحمن: (أما أنت يا عبد الرحمن فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك، ولكن لا يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعفك، وما زهرة وهذا الأمر؟).

وفرغ من هؤلاء الذين قدر أنهم لن يصلوا إلى الخلافة متوجها إلى علي قائلا: (لله أنت لولا دعابة فيك، أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجة البيضاء). وقال لعثمان وكأنه يناوله الخلافة ويرى إلى مصيره ومصيرها: (هيها إليك. كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفئ فسارت إليك عصابة من ذئبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحا، والله لئن فعلوا - يعني قريشا - لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن - يعني ذئبان العرب - فإذا كان ذلك فاذكر قولي فإن كائن).

وكان واضحا أن إعلان رأيه بشخصيات الشورى على هذا النحو، له أوثق اتصال بالعقدة التي ربطها في نفوس الناس من خطته، كما كان واضحا أن إعلان هذه الآراء كان ركنا من أركان نجاح هذه الخطة، بما لهذه الآراء من آثار

حتمية حيث وقعت من نفوس الناس لا فرق في التأثر بها بين الخاصة من أصحاب الشورى وأمثالهم، وبين العامة من المتطلعين حزبيين أو محايدين.

ولا ريب في أنه عني بصياغة آرائه هذه عناية فائقة، وصبها في قالب من الدقة والمرونة جد بارع، فألفها من تيارات عاكس بينها لتنسجم له نتائجها، وخالف بين مواقع مسها لتتوافق على خطته ردودها.

أنظر، إنك تلاحظ أنه دعا الستة ليكلمهم قبل أن يصمم نظام الشورى، وتلاحظ أنه إنما أراد أن ينشئ من كلامه هذا قاعدة يرفع فوقها نظامه، وتلاحظ بعد ذلك أن كلامه يمتاز بخاصتين تظهران على الخصائص المنوعة في نقده هذا، وهما اصطناع السخرية في جانب واتخاذ الأسلوب الموضوعي في جانب ولا تصدق من يدعي لك أن اجتماع هاتين الخاصتين يأتي (عفوا) أو يستقيم بلا قصد، وصدق - إذا سمحت - أن الذي جمعها لأبي حفص هنا إنما هو الفن السياسي لا الفن البياني، وأنه إنما جمعها ليرسل منها رسلا إلى قلوب الناس وصدورهم، بعضها يكلم الخاصة، وبعضها يكلم العامة، وكلها تبلغ البلاغة الذي يورط ولا يتورط.

أراد بالسخرية أشياء كثيرة، أراد أن ينفس عن غيظه، ويثأر من جراءة من اجترأ عليه وهو يحتضر، ولكن هذا الدافع الذاتي ليس بذي خطر إذا قيس بغيره من الدوافع السياسية

التي لها المحل الأرفع من اتجاهه وغرضه، فأنت إذا عدت إلى نقده الساخر، ورافقت ظرفه، لا تكاد تشك بأنه إنما اصطنع السخرية عامل تهييج وإثارة على طلى ما سخر به منهم، لا أداة تشف واحتقار فقط، فهو إذ ينفي عن هذا وذاك كفاءة الحكم، يدفعهم بهذه اللمسة النفسية إلى السعي والنشاط في طلب الحكم ليكذبوا ظنه، ولو قال لهم تناطحوا وليضرب بعضكم بعضا، بتعبير صريح مكشوف، لوجدهم ثقالا بطاء عن أمره، ولكنه مس عقدهم هذا المس الساخر ليحرصوا على خلافه فيما يزعمون، وعلى خدمته وطاعته كما قدر.

وأراد باصطناع السخرية أمرا آخر، أراد أن يميط اللثام عن حقيقة هؤلاء الزعماء المنظورين، ويخرق هذا الحجاب المسدل بينهم وبين الناس، ليضعهم في متناول الأيدي والألسنة، محتفظا لنفسه بالذروة، باقيا في عقائد الناس أنه الرجل الذي أتعب من بعده. ولعل هذا الشعور أهم العوامل التي دفعته إلى إقصاء علي وتقريب عثمان، فلو أتى علي بعده لم تختلف الحال في ظاهر الأمر وواقعه، ولم يظهر عهد علي ما أظهره عهد عثمان من فضله وقدرته.

ثم أراد باتخاذ الأسلوب (الموضوعي) في نقد أصحابه أمورا بالغة الخطورة، أهمها أن الموضوعية في النقد تخرج آراءه إخراجا توجيهيا حرا على نحو يضمن له السلامة من مسؤولية تقليد الخلافة وتبعات التعيين في ظاهر الحال، كما يضمن له – من ناحية ثانية – أخذ الجمهور بتوصياته والحرص

على تنفيذها بداهة أن (الموضوعية) أبقت له في نظر الناس صفات الحكم والمرشد والرائد.

وكان من أثر هذا كله أن استقام له وضع نظام يجمع بين التعيين والانتخاب، وحسبه من الانتخاب صورته، وإن كانت هذه الصورة قلقة لا تكاد تستقر على قاعدة دينية صريحة، ولا على مبدأ شعبي معترف به، فالحقيقة أنه إنما صنع الانتخاب هذا ليتجنب التعيين لا أكثر.

فإذا استوت له هذه المقدمات، وتوافقت نتائجها المختلة البواعث والأغراض، لم يتركها متكلا على الصدف، بل أخذ الناس أخذا حازما صارما يؤدي الخلاف عنه إلى ضرب الأعناق وإزهاق النفوس، فوضع الشورى ووضع للشورى نظامها العنيف، ثم لم يسلط أهل الشورى ولا أحدا منهم على هذا النظام بل سلطه عليهم بيد قوة خارجة عنهم هي قوة (البوليس). ولم يجعل لأصحاب الشورى - خلال مدتها - إلا الخضوع لأمره، فإن خالف واحد عنه، ضربت عنقه، وإن خالفوا كلهم عنه ضربت أعناقهم.

وكان من أدق تدابيره لتهيئة أصفى الأجواء لخطته، أن نصب مولى من المسلمين إماما عليهم خلال فترة الانتخاب، مستخدما بهذا مظهر الشعبية الإسلامية في التأثير على الجماهير من الوجهة النفسية. وإن حدد وقت الانتخاب ووضعه تحت رقابة صارمة، مستخدما بهذا حزم الإدارة في

فرض رأيه دون تسامح ولا إمهال.
ولم يكن قانون الشورى معقدا، ولا مركبا، ولا ملتويا، بل كان غاية في السهولة والبساطة والاستقامة، فكان لهذه الصفات نفسها غاية في الصراحة والحسم والعمق أيضا.
قال لرئيس شرطته أبي طلحة الأنصاري: إذا مت فخذ خمسين رجلا من أعوانك، واحبس أهل الشورى في غرفة تحت حراستك ومراقبتك، أمهلهم ثلاثة أيام فقط يشتورون خلالها، فلا تمهلهم أكثر من ذلك، وانظر إذا اتفق خمسة وخالف واحد فاضرب عنقه، وإن اتفق أربعة وخالف اثنان فاضرب عنقيهما، وإن انقسما شطرين متساويين: ثلاثة وثلاثة، فالرجحان حيث يكون عبد الرحمن، وعلى ثلاثة الآخرين الطاعة أو القتل، وإن مضت المدة ولم يتفقوا، فأحصد رؤوسهم جميعا، وأعد الأمر إلى الأمة تنتخب هي من تشاء.
قانون سهل بسيط مستقيم، وهو لهذه الصفات صارم حاسم عميق، إنه عميق لأن سهولته وبساطته واستقامته قائمة على مداورة لعلها من أبرع مداورات التاريخ السياسي كله، وهو عميق لأنه سلح مداورته هذه بأعنف العنف، وأحزم الحزم، ملتفا بحركة تطويق عجيبة، موجهة نحو شخص علي في تصميم على إقصائه عن الأمر، وإخراجه منه.
وقد يخطر بالبال أن أبا حفص لو أراد إخراج علي وإدخال عثمان لبادر إلى المكاشفة التي هي أقرب ظاهر طبعه، وأدنى

إلى صراحة طريقته، ولكن مكان علي في نفوس الناس، ورسوخه في الرأي العام كانا من الوضوح حيث لا يخفيان على أبي حفص، كما كان ضعف عثمان في نفسه، وكراهة الناس لبيعته واضحين لأبي حفص وضوحا لا يحتاج معه إلى دليل، لهذا وذاك كان مضطرا إلى مداورة الرأي العام ومصانعته كي يفرض عليه ما لا يختار، ويلزمه بما يكره، دون أن يتعرض منه لسخط، أو يخالف بنظره ما يعتقده من الحق في الرجلين، ومن هذه المداورة البارعة أنه ذكر عليا ففضله، ولم يخالف به شيئا من نظرة كل الناس إليه لولا غمزة أرسلها على عمد، وكأنه أرسلها عفوا، ثم ذكر الخمسة ولم يراقب فيهم ما يخشاه من ثقة جمهور، أو مخالفة لما يعتقد، وبهذا استقامت مداورته أعظم الاستقامة، فضمنت له ما أراد دون أن تكلفه عناء التعيين، أو تحمله تبعة المواجهة، (بإرادة) أعطاها حكم القانون، وأدارها بلباقة على النفي والإثبات حتى انتهى إلى التعيين، ولم يستخدم لفظه، ولا صورته ولا محاباته، ولا تحيزه وليس شئ أوضح من نجاح عثمان في هذا النطاق الذي ضربه على الشورى، كما لم يكن شئ أبين من فشل علي في هذا النظام الذي فرضه لها، فعبد الرحمن صهر لعثمان يرى بنجاحه نجاح نفسه، وسعد ابن عم لعبد الرحمن لا يخالفه، ولا يعدو صفه، وطلحة تيمي لا يختار هاشميا إذا يئس من نفسه، فمن بقي من الستة؟ علي والزبير؟ فليرصد لهما السيف إذا خالفا.

هذا كله مؤكد ومضمون حتى لو خلا من هذا الامتياز الذي منحه عبد الرحمن في نظام الشورى المفروض، ولكن الإحساس بالرأي، والاحتياط للخطة دفعا أبا حفص أن يختص عبد الرحمن بمادة تجعل منه مركزا للثقل، وأكبر الظن أن عمر لم يضغط على إيمان عبد الرحمن، ولم يصرف (زهرة) عن الخلافة فيما سمعنا من تحليله آنفا، إلا ليبرر تمييز عبد الرحمن في نظام الشورى وإلا ليرجح به، كفة عثمان إذا توازنت الكفتان.

ولم يكن هذا سرا يخفى على أبي الحسن، أو لغزا يشكل فهمه على المشتغلين بالأمور العامة يومئذ، ولكن السياسة هي السياسة، أدهى ما تكون، وأغلب ما تكون، إذا انكشف مغزاها واحتبكت وسائلها وأسبابها، أضف إلى هذا أن لعلي - وهو يرى هدف الشورى ويعرف دقة صنعها - مذهبا في السياسة مثاليا واقعي المثالية - إذا جاز التعبير - لا يتنازل عنه إلا أن يتنازل عن نفسه وشخصيته، وما أظنك مغاليا إذا ظننت أن مذهبه هذا أعان خطة الشورى المكشوفة المقنعة على النجاح، كما أعان على علي نفسه قبل الشورى وبعدها مرات عديدة.

بعد فراغ عمر من توصياته لأبي طلحة، خرج علي وعمه العباس والتحق بهما من كان من بني هاشم وأنصارهم، فلما كانوا غير بعيد من بيت عمر، علق علي على بنود الشورى بأنها تدبير صرف الأمر عنه ووجهه إلى عثمان، وشرح لعمه -

بعد أن استوضحه عمه - أسرار الشورى واتجاهاتها المختلفة، فأشار عليه العباس بالترفع عن جلساتها، ولكن لعلي مذهبا مثاليا واقعي المثالية لا يتنازل عنه لذلك خالف عمه، وأطاع مذهبه المتعرض أبدا للتضحيات، راسخا - على اختلاف الأحداث - رسوخ الحق، مكتفيا من النجاح بالترفع عما يخس رجل الدين في فرض مصالحه العليا على الدنيا.

كان الستة وحدهم في الغرفة، وكان بباب الغرفة أبو طلحة الأنصاري على رأس كتيبة من رجاله تصطف دونه اصطفافا عسكريا وكان خلف هذه الصفوف جمهور غفير من الناس هم مجندون أيضا، وكان الجمهور الغفير صفين يتجندان لرأيين لا ثالث لهما، في الغرفة ستة مرشحين هذا صحيح، ولكنهم كانوا في حساب الناس: كل الناس، اثنين لا أكثر، هما علي، ومرشح عمر، ولا يشك من حضر أن أولهما كان أحظى بالكثرة، وأرجح بأهل السابقة والثبات ممن يتكلم باسمهم عمار والمقداد، وأن ثانيهما كان محروسا بالقوة معتمدا على تأييد حزبين حكوميين: أحدهما: ممثل بحراب أبي طلحة، وثانيهما - ممثل بنفاق ابن أبي سرح صفي الجمهور، وروى من شهد تلك الأيام أن حماسة الجمهور بصفيه كانت حماسة حافزة ضاجة ضارية، وكان صخبها يخترق صفوف الجند، ويكسر أقفال الباب، متدفقا يملأ أسماع الستة في خلوتهم، بالواقع الذي لا يعترف بأربعة منهم، ولا يجاملهم ولو بكلمة.

الهتاف من الخارج يأتي واضحا صريحا يعلن اسم علي

مرات، ويعلن اسم عثمان مرات، فما شأن هؤلاء الأربعة وفيم يقحمون أنفسهم في أمر من لا يرجونهم، ولا يرشحونهم، ولا يحسبون لهم أدنى حساب؟

ليس من شك في أن الضغط الخارجي هذا قصر الطريق وحصر المنافسة بين المتنافسين الحقيقيين، وليس من شك في أن هذا الضغط الخارجي قذف الأربعة من أقرب الطرق إلى الموقف الذي هيأه أبو حفص قبل وفاته، وكان أقرب الجميع إلى الاعتراف بهذا الواقع طلحة، لم يسق إليه الهتاف خبرا جديدا، فهو يعرف من الحقيقة ما يعرفه الجمهور، ولكن الهتاف أنقذه من التردد، وأنجاه من سخف المحاولة، فقطع الوجوم الذي كان يسود الاجتماع، وتنازل عن حقه لعثمان، وبادر الزبير خلفه فتنازل عن حقه لعلي، ولحقهما سعد فألقى زمامه بيد عبد الرحمن وسكت علي، وظل عثمان ساكتا، وأسفرت الجولة الأولى عن رجحان بين لبعد الرحمن، لقد ملك صوتين كعلي وكعثمان، وزاد عليهما بأن صوته يعادل صوتين بحكم الإرادة العمرية، فهو حتى الآن مركز الثقل حقا، ترى أيضم صوته لنفسه فيخرج على خطة عمر القائلة: (وما زهرة وهذا الأمر؟) أم يمضي إلى أمر عمر، وخدمة صهره؟ أم يعدل عن هذا كله ويتجه إلى علي صاحب الأمر في عقيدة الكل؟ كان الرجل ساكتا أيضا، وكان يدير في فكره لفتة بارعة لا ندري أهي من بناته، أم من محفوظاته؟ ولكنها بارعة في كل حال، قال حين تكلم: أما أنا فأتنازل عن الخلافة لقاء

أن تفوضوني أن أختار لكم واحدا منكم. وفوضه الجميع أن يختار. ومن براعة لفتته - سواء أكانت من بناته أم من محفوظاته - أنه لم يلتفت إلى عثمان، بل التفت إلى علي، فقال له: أمدد يدك أبايعك على العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، وسيرة الشيخين، فيقول علي: بل على العمل بكتاب الله وسنة رسوله واجتهادي، فيلتفت آنذاك عبد الرحمن إلى عثمان فيذكر له شروطه الثلاثة فيقرها عثمان، ثم لا يعجل عبد الرحمن فيسرع إلى بيعة أخي زوجه من أول مرة، فهو مطمئن إلى أن عليا يرفض الخلافة بغير شرطه هو، لأنه لا يناقض نفسه، ولا يسر حسوا في ارتغاء، من أجل هذا استأنى عبد الرحمن وكرر عرضه على علي الذي أباه ثلاث مرات، ثم نهض وعبد الرحمن يصفق على يد عثمان بالبيعة، ولم يبرح الغرفة قبل أن يعلن لعبد الرحمن أنه رجا من بيعة عثمان ما رجاه عمر من بيعة أبي بكر، ولم ينس أن يذكر له الفرق بين رجائه الذي سيكدي ويخيب، وبين رجاء عمر الذي اخضر وأثمر، ولم ينس عبد الرحمن بعد ذلك قول علي هذا. ذكره أكثر من مرة، ولم يحزنه ذكره كما أحزنه وهو يخرج يوما من (طمار الزوراء) أحد قصور عثمان القيصرية، وكان عثمان احتفل بافتتاح هذا القصر احتفالا أريستقراطيا سخيا وحري أن تقول الكلمة المعبرة عن هذا الحادث، فعبد الرحمن في الواقع لم يخرج من (طمار الزوراء) بل أخرجه الغلمان، وألقوا به إلقاء في الطريق، لنصح أسداه إلى عثمان بهذه المناسبة، ثم لم يقف

تأديبه عند هذا الحد، حتى أعلن عثمان تحريم مجالسته، وأوجب نبذه وأبرأ (الذمة) ممن يكلمه أو يعاطيه معاطاة مواطن يتمتع بحقوقه الاجتماعية!.

وما لي أتسلف الأحداث؟ إن هذه حادثة لم تقع بعد، أما الذي وقع فحماسة عبد الرحمن لتأمير عثمان، وصفقه على يده معلنا خلافته، ونهوض علي وهو يعلن لعبد الرحمن خطأه، ويشير إلى ما سيكون بينه وبين عثمان من شر.

ولم تكن أخبار الغرفة مكتومة عن الجمهور الذي كان يلتطم في انتظار النتيجة، ويراقب سير الانتخاب أشد ما يكون لهفة وحماسة وتلظيا، فقد كانت تخرج إليهم متأرجحة، يتهلل لها وجه عمار تارة، فيعبس وجه ابن أبي سرح ويصرخ ناقما متهددا ثائرا، ويتهلل وجه ابن أبي سرح تارة أخر فيعبس وجه عمار ويصرخ ناقما متهددا ثائرا، ولا يتناقض هذان الوجهان وحدهما في الميدان، بل تتناقض وراء كل منهما وجوه متراكبة متحاشدة ممتدة إلى أقصى النظر، تقول من هنا في حماسة: القول ما يقول عمار، وتقول من هناك في حماسة: بل القول ما يقول ابن أبي سرح، وقد رأى من شهد الموقف أن الصراع بين الفريقين لم يكن صراعا شخصيا، وإنما كان صراعا بين عقليتين: علي رمز إحداهما، وعثمان رمز الثانية، وليست المعركة في وجهها الصحيح غير هذه المعركة التي يتقابل فيها مبدأ الخلافة ومبدأ الملك، أو مبدأ الحكم الشعبي، ومبدأ الحكم المطلق، ولا يقتتل هذان

المبدءان إلا على ما ينطوي تحتهما من حرية يقابلها استبداد، ومن عدل يقابله ظلم، ومن مساواة يقابلها أثرة، ومن غيرية تقابلها أنانية، ومن جماعية تقابلها فردية.

وماذا تنتظر من عمار غير أن يعارض حكما يتولاه عثمان؟ وعمار هو الذي عرفته لا يقطع عليه صمته الطويل إلا التعوذ من فتنة يتوقعها، وماذا تنتظر منه؟ وهو لا ينسى تهديد عثمان إياه على مقربة من النبي يوم بناء المسجد، ومن ذا الذي يحمي أنفه وآناف أمثاله من عصا عثمان وسوطه، إذا ولي الأمر؟

ذكر عمار أنه جلدة ما بين عيني النبي، وأنه جلدة أنفه، وأنه يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وذكر بلاءه في الإسلام، وصدق تحمله للعذاب في سبيل الله، فاتخذ ما فرضته عليه هذه الذكريات الكريمة من موقف حاسم، وما ألزمته به مبادؤه من معالنة بالرأي، ودعوة إلى الحق مما يشتور به الخاصة وتختلف فيه العامة، فإذا هو ينادي أهل الشورى من مكانه بين الجمهور: إذا أردتم أن لا يختلف الناس فبايعوا عليا، ويتابعه المقداد فيقول: صدق عمار. إن بايعتم عليا سمعنا وأطعنا. ويعلو صوت عبد الله بن أبي سرح – وهو منافق أنزل الله بنفاقه قرآنا –: يا معشر أهل الشورى بايعوا عثمان إن كانت لكم حاجة بأن نسمع ونطيع، فيشتمه عمار، ويقول له: ما أنت وهذا أيها المنافق؟ إن الله والناس يعلمون أنك ما زلت تكيد للإسلام، وتبغي له الشر. ويتصدى لعمار نفر من أمية،

فيقف دونه نفر من هاشم، وتكاد الفتنة أن تقع، ولكن عمارا نفسه انتصب بين الفريقين، واندفع يخطب بلسانه الجماهيري الساحر، داعيا إلى الحق، ماضيا في الكشف عن أسرار الإسلام، وحكمه ونظمه، وحاجته إلى علي، ببيان أخاذ ولغة نفاذة، فلو أمهل لربح المعركة، ولكن هديره كان يملأ غرفة الشورى فخشي عبد الرحمن أن ينقض عمار عليهم خطتهم، وحرضه سعد على الاسراع قبل أن تقع الفتنة، فعرض شروطه على علي وصيرها إلى عثمان وانتهى الأمر.

وحين أطل علي منسحبا تبينت النتيجة. أتدري ما صنع عمار؟ لم يتغير موقفه إلا التغير الذي يقتضيه تغير الجو، فانتقل من الدعوة في ظل الانتخاب إلى (المعارضة) بعد إعلان النتيجة. فقال لعبد الرحمن: لقد تركت عليا ولكن الحق ما تركه، وإنك لم تختر رجل العدل. وانتفض المقداد فقال: واعجبا لقريش لقد تركت رجلا ما أقول ولا أعلم أن أحدا أقضى بالعدل، ولا أعلم ولا أتقى منه. أما لو أجد أعوانا! ويتهددهما عبد الرحمن فيخوفها عاقبة المعارضة إلا أنهما لا يعبآن. ولكن عليا يهون عليهما الأمر، فيقول لهما: إني لأعلم ما بنفوس قريش. إنها تنظر في صلاح شأنها، وتحتاط لمنافعها فتقول: إن ولي الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا، فإذا كان في غيرهم تداولته بطون قريش. ثم أمرهما أن ينتظرا الأحداث فإنها كفيلة بإثبات ما يريدان أن يثبتاه، وما عليهما إلا النصح وقد نصحا.

وكان رأي عمار وإخوانه في المبادرة إلى المعارضة مبنيا على نظرة تقدمية سديدة، وذلك أنهم يعلمون علما قاطعا ما ينتظر الأمة في تجربة الحكم العثماني من انتكاسة الأنظمة، والتواء المبادئ، وما ينجم عن هذا وذاك من ردة تعيد المجتمع من اشتراكيته السمحة العادلة إلى (رأسمالية) تحيي العصبيات، وتهدم الكفايات، وتحتكر الصلاحيات، وتمتص الأقوات، فتروع المجتمع، بعد أمن، وتفرقه بعد اجتماع، وتفقره بعد غنى، وتذله بعد عز، وتضعفه بعد قوة، وتستعبده بعد حرية.

ولم يكن عمار وإخوانه من أصحاب هذا الرأي يرون سياسة الانتظار إلا أسلوبا رجعيا، فإمهال الحاكم الرأسمالي أو طبقة هذا الحكم حتى تتكدس أخطاؤها، توريط للدولة، يرزأها بمالها، ويفتنها في عقائدها، ويشغلها عن تقدمها بمعاناة كل تافه سخيف من أرزاء المجتمع الإقطاعي وتياراته التي تجعل تحصيل القوت اليومي في نظر الناس ظفرا وانتصارا. وهو إمهال بعد ذلك يفسح المجال لفتك الأقلية بالأكثرية، ويعطيها فرصة خض البنيان الاشتراكي والتأليب عليه بالاستهواء، والترويع من وسائلها التقليدية المجرمة، وفي هذه السياسة – فضلا عن تكديس المحنة ومضاعفة الشقاء، ومد الظلام – تكريس غير مباشر لمبادئ الاستغلال بما تهئ له هذه السياسة من فرص الصحو والانتعاش والاستفحال.

لهذا كله بادر عمار إلى المعارضة، وود ما ود إخوانه لو

استطاعوا إعفاء الأمة من تجربة ستدفع التاريخ في غير مجراه الصائب، فلا يصلح خطأها حتى الانقلاب الدامي. ودوا أن يجنبوا الإسلام الغض أطماع هذه التجربة، التي ستسحب أنظمته المبنية على التكافؤ والمساواة من حياة الناس الواقعة، وتجمدها تجميدا تجاريا يتلاعب بها تلاعب الأسواق بالبضائع، وتدنيها بالتفسير وفق المنافع الخاصة إلى النسخ والمسخ والتشويه والاستبدال رويدا رويدا بأنظمة طبقية إقطاعية رأسمالية.

ود عمار وإخوانه أن يتجنبوا ويجنبوا الإسلام والدولة هذه (الكفرة الصلعاء) - كما يقول عمار - ولكن تدابير الأحزاب المناوئة لحزبهم كانت أغلب قوة، وأكبر سلطانا، ولم يكن متضحا للرأي العام شئ مما توقن به هذه الخاصة من صفات هذا العهد وعيوبه، وكان حمل الناس - كما هو دائما - على استجلاء خطأ لم يحدث بعد أمرا غير سهل ولا ميسور، من أجل هذا أمر علي عمارا والمقداد ومن حولهما أن ينتظروا الأحداث مكتفين بالنصح، وهو أقصى ما يمكنهم في هذه الحال. فانتظروا ولكن انتظار الثائر في حماسة إيمان، ومضى الحاكمون يقدمون لعمار وإخوانه من الأحداث أدلة على صواب معارضتهم، وهدى سبيلهم.

يزعم المؤرخون أو بعضهم أن الحكم الأموي استتر خلف وجه عثمان ست سنوات قبل ظهوره مستبدا عاطفيا مستأثرا.

قال المحدث: أما الأمر الثابت فإن عثمان امرؤ رقيق القلب، لين الجانب، بار بأرحامه، وإنه كان لهذه الصفات الطيبة قنطرة عبر عليها الفتح الاريستقراطي المتربص لديمقراطية الإسلام منذ حين، وأنه كان مدخرا ادخره أرحامه وغير أرحامه لتحقيق هذا الغرض قبل خلافته بزمن غير قصير، وأن ثبوت هذا كله يأبى كمون الحكم الأموي ستة أيام في عهد عثمان لا هذا الدهر الطويل من السنين الست.

قال المحدث: ولادخار عثمان لهذا الغرض حكاية تبدأ من يوم (السقيفة)، يوم استخدم الحزب البكري فرصة موت النبي، وأسرع إلى الانتفاع بمبدأ: (وسعوها في قريش تتسع). وما نسينا غضبة أبي سفيان يومذاك، وتطوعه لنصرة علي، وإقباله إليه يعرض عليه البيعة، وما نسينا أن الأكثريين من المعنيين بدراسة هذه الفترة يمرون بهذا الحادث الخطير مرورا عابرا، فلا يعطونه ما يستحقه من الاهتمام، على حين أنه – كما يبدو – من أدق الأحداث في هذه الفترة، وأشدها ارتباطا بمصير الحكم الإسلامي، ولكي يتضح العهد العثماني على وجه صحيح يجب أن تتضح بواعث الغضبة السفيانية ومفاعيلها الرجعية التي صاغت ميثاق العهد العثماني وضمنته، مستعينة على صوغه وضمانه بالعامل التاريخي الذي لم يلن على وهج الإسلام، ولم يتأثر بحركة التطور.

التاريخ يبخل بتفاصيل الحادث السفياني، ويشح بأخباره، فلا يعرض إلا للقليل القليل من خطره وأهميته. يذكر صورة

انتفاضته، ويذكر إطفاء علي نار هذه الانتفاضة، ثم يسكت، نعم يعرض عرضا لامحا خاطفا لحيرة أبي بكر وعمر بموقف أبي سفيان، ويشير إشارة عابرة إلى تدارسهما خطة تقيهما شر هذا الداهية، وتدفع عنهما وبال دسه، ووبيل نشاطه، وإلى أنهما انتهيا إلى (تأليف) قلبه بالمال كما كان النبي يتألفه، وإلى أنهما فضلاه بالعطاء حتى بعد إلغاء عمر مادة (المؤلفة قلوبهم) من نفقات (الخمس) إذ رفعه من درجة المنافقين، ووضعه في درجة (أشراف مكة) - راجع ابن الأثير - هذه الدرجة التي استحدثها ليضربها - فيما أظن - إسفينا طبقيا في سياسة النبي الشعبية، يصطنعها لسياسته الخاصة بعد موته.

ولم يكن اعتذاره عن إلغاء هذه المادة بقوة الإسلام، إلا ستارا ألقاه على مخالفته الصريحة، بدليل أنه لم يلغ هذه المادة في الواقع، بل عدلها، فبدل عنوانها، ومن الواضح أن عنوانها الأول - المؤلفة قلوبهم - فيه من الحكمة ما يدعو إلى محو هذه الطبقة من المنافقين تدريجا، والحد من نشاطهم وتأثيرهم مع الاحسان إليهم كما أنه لواضح كذلك أن العنوان الثاني (أشراف مكة) فيه من الحكمة ما يدعو هذه الطبقة إلى الانتعاش والنشاط والقوة. وكان بعد تبديل هذا العنوان يخضع قانون (العطاء) للاستثناء، ويخضع (الاستثناء) لسياسته فيخالف بين (عطائه) في صميم الطبقة الواحدة، وكان يخالف في طبقة المشركين من المؤلفة قلوبهم أو (أشراف مكة) - على حد تعبيره - فيفضل أبا سفيان ومعاوية بعطاء ضخم، فإذا

نوقش سدد جوابه باعتبارات استثنائية مرنة.
قال المحدث: هنا ينبغي أن نقف لنبحث عن بذور العهد العثماني الذي لم يستتر فيه الحكم الأموي ستة أيام لا ست سنين.
التاريخ يبخل بتفاصيل الحادث السفياني، ويشح بأخباره، ولكنه يعرض عرضا لامحا لحيرة أبي بكر وعمر بمشكلة أبي سفيان ويشير إلى أنهما لجآ إلى المال لحل هذه المشكلة، ثم يسكت.
ولكن المعروف من أمر أبي سفيان أنه لا يرضى هذا الحل اليسير البعيد عما يشبه أبا سفيان بعدا عظيما، فأبو سفيان – على أنه تاجر – ذو رأي في الحكم والحياة يأبى عليه بيع طاعته بمال مهما كثر، فإذا باع طاعته، أو تظاهر ببيعها لمحمد بثمن ما، فإنه لا يبيعها لأبي بكر وعمر بمثل ذلك الثمن، وهما في رأيه ما هما، فهو إذ رضخ لمحمد لم يرضخ إلا مكرها، ولم يجد بالرضوخ له – بعد أن أكره عليه – هوانا لأنه يرى محمدا من طبقة الزعامة التي لا يعيب الرضوخ إليها (نبيلا) مثله!،
ومع ذلك لم تكن طاعته إلا شر ألوان العصيان، أفمن المعقول أن يرضخ لأبي بكر وعمر ببعض السخاء؟ وهل من المعقول أن يطمئن أبو بكر وعمر إلى رضوخه لقاء راتب يتقاضاه؟ طبائع الأمور، وحقائق الأشياء تلزمنا باعتقاد سبب أقوى راض أبا سفيان على الرضوخ، وطمأن العمرين إلى سلامة رضوخه، فما هو هذا السبب؟.

كان أبو سفيان إقطاعيا مترفا من هؤلاء الاريستقراطيين الإقطاعيين المترفين الذين يرون لأنفسهم ولطبقتهم شرفا على الناس، فهم سادة وغيرهم عبيد. وكان ينظر إلى الإسلام من هذه الزاوية على أنه حركة نفعية، استخدمت مبادئها التطورية سلاحا لا يختلف بروحه عن اصطناع (الوثنية) في وقتها للنفع، فهذه المبادئ التي نادى بها محمد كالأصنام عنده، إنما تفرض على العامة والجماهير من الناس كي يستقيموا للسادة والأشراف ويخدموا الطبقات النبيلة لا أكثر، والفرق عنده بين الأداتين إنما هو بنتائجها، فهذه المبادئ أفضل لأنها أنفع وأنفذ وأخدم للرؤساء، فإذا لم تخدم الرؤساء، ولم تفرض نفوذ طبقتهم بطل نفعها، وذهبت فائدتها ووجب تبديلها بالنافع المفيد للنبلاء والرؤساء وطبقتهم. وكان له من واقع حياته ما يجنده لهذا النحو من التفكير، ويعين موقفه في هذا الصف، فهو زعيم (العير) وقائد المشركين، وسيد حزب مادي، في خصال إحداهن تؤكد فيه هذه النزعة وتريه من نفسه صنما فوق الأصنام. وكان له في موقفه هذا من دهائه، وأنصار مذهبه الطبقي، وتصارع الآراء والأحزاب على الحكم، كان له من هذا كله محرضات تمد له أسباب الطموح، وتوفر له وسائل التشبث.

ورجل من هذا الطراز، في مثل هذه الظروف، لا ينقاد بسهولة، ولا تتألفه مساومة رخيصة. ولكنه ينقاد ويطيع إذا طمع بنصيب من الحكم وراء هذا العطاء من (عربون) مطمحه

الذي ضمن انقياده وطاعته.
ولكي تجتمع لنا صورة واضحة الخطوط لهذا الموقف الدقيق أسوق قصته على الوجه التالي:
طمع أبو سفيان إلى نصيب من الحكم قبل (السقيفة) دون شك، وعمل على تحقيق طمعه دون شك أيضا، فقد رأى أحزابا مختلفة تتألب على علي، وتتفق على تنحيته بعد النبي وتوسعة الأمر في قريش فانضم إليها إن لم يكن في طليعتها وعمل معها في هذا النطاق، إن لم يكن الباعث على العمل ضمن هذه الحدود. نعم كان ضعيف الأمل، أو قل: إنه كان يائسا من ظفره بشخصه لأن كل المقاييس المتبعة يومئذ تخذله وتتنكر له، ولكنه في صميم هذا اليأس من نفسه لم يكن يعقل أو يتصور أن تصير الخلافة إلى أقل حي في قريش. بل كان يعقل ويتصور أن يرث علي محمدا، ولا يرى في هذه الوراثة شيئا غير طبيعي، فإذا أمكن زحزحة الأمر عن هذا الوارث الطبيعي، كان مما يعقل ويتصور أن يتقدم للأمر أموي، فإن امتنع شخصه، فلا بأس بتقديم نائب عنه من حزبه، وفي حزبه صحابي ذو سبق وبلاء تتوفر فيه مؤهلات ترضى المقاييس المتبعة، وليس هذا الصحابي الذي يرشحه أبو سفيان غير عثمان.
ولكنه أفاق يوم السقيفة فلم يصدق ما رأى، وكبر عليه أن يلي الأمر أبو بكر حتى كاد يجن، ورأى في الأمر لعبة خفي

عليه حسابها، ثم رأى فيه سابقة خطرة على (أبناء البيوت) من طبقة الأشراف، فذهب يتطوع لعلي تطوعا صادقا، أو ذهب يتطوع للاريستقراطية في شخص علي مسقطا كل اعتبار وراء هذا الاعتبار الحيوي بنظره. ولكن عليا يرفضه ويضرب بنصره عرض الحائط لاعتبارات مبدئية تناقض تفكير أبي سفيان كل المناقضة.

ذهل أبو سفيان أول الأمر حقا، فهاتان صدمتان عنيفتان إحداهما تتبع الأخرى. حكم (تيم) وضعف (هاشم) وكلتاهما لا تطاق، ثم صحا وانتفع من الصدمة الثانية انتفاعا عبر عنه معاوية بعد ذلك، في كتاب كتبه إلى محمد بن أبي بكر أيام علي، اعترف فيه بأنه وأباه لم يفكرا بالخروج على علي والتنكر له لولا أبو بكر وعمر اللذان استبدا به، وألبا عليه، (وهما به الهموم وأرادوا به العظيم).

هاتان الصدمتان – على عنفهما – لم تغيرا شيئا من رأيه، ولا نطمع بأن تغيرا فيه شيئا بعد أن جمد وتجلد وعجز الإسلام نفسه عن إذابة شئ من جموده وجليده، رأى في ارتقاء أبي بكر وعمر إلى سلطان محمد ظاهرة في الحكم غير طبيعية، فهما متجاوزان لحدودهما، متعديان طورهما، ورأى في قعود علي ضعفا، أو تسامحا عجيبا من صاحب حق واضح، ووازن بعد الروية بين الحادثين العجيبين فخرج بنتيجة رائعة: هي إمكان وصول بني أمية من طريق قريب إن لم يكن بشخصه، فبشخص مرشحه.

وقد نفعته الصدمة الثانية نفعا عظيما لم يخطر بباله حين ثار لعلي، ولم يفكر به وهو يهيج بحوافز أنانية محضة، فكان وقع ثورته هذه عميقا في نفس أبي بكر وعمر اللذين أقاما من وزنها ما لم يقمه علي ولا أبه له، فهالهما منها ما قد تفتحه عليهما من نوافذ خطرة، وما تجره عليهما من مصاعب. فإذا كفاهما شرها اتزان علي، ورسوخ قدمه هذه المرة، فمن يقيهما شر أبي سفيان في غيرها من فرص الوثوب، وهذه (الردة) مكشرة الأنياب، طويلة الأظفار؟ تدارس أبو بكر وعمر هذه المشكلة دون ريب، واهتما بها اهتماما بالغا وحلاها، ذكر بعضه المؤرخون، ونسوا أهمه وأعمقه، اشتروا سكوته بالمال ولكن أبا سفيان لا يسكت في عهد العمرين بمثل ما أسكته في عهد النبي، ولا يرضيه من الحل نصيب من (النفقات السرية). ثم هو أدهى من أن يجعل في انتفاضه على أبي بكر وعمر سبيلا على نفسه، فإذا أكرهوه على السكوت كاد لهم في الظلام كيدا لا يعرفان كيف يتقيانه، فهما من أجل هذا مضطران إلى إرضائه بما يرضيه وراء (النفقات السرية) وما يدرينا فقد يلاقيانه، أو يلاقيهما في نقطة من النقاط، ألم تكن كل الأحزاب متفقة على (توسيع الأمر في قريش)؟ إن هذه التساؤلات تؤدي بنا إلى حل مشكلة أبي سفيان حلا أقرب إلى الواقع، ويكاد يجزم الجواب عليها، بأن ثمن سكوت أبي سفيان كان أثمن من هذا المال الذي تناوله من أبي بكر باسم (المؤلفة قلوبهم) وتناوله من عمر باسم (أشراف قريش) وأن

ثمنه الحقيقي كان وعدا بالخلافة، يتناولها عثمان بعد عمر ويهيأ لها معاوية بشروط تعلن عنها الحوادث، ويجمجم بها قلم التاريخ، وما أظنها محتاجة إلى الإيضاح.

ومن الواضح أن الاتفاق على البدء بعثمان من بني أمية لم يكن في مصلحة الرجل، ولا نتيجة لثقة مرشحيه به، ولكنه كان ائتمارا عليه فرضته سيطرة الحكم النبوي التي لا تتحدى تحديا سافرا، ولا تصادم إلا بعد تمهيد دقيق، وتضحية دامية. وللوصول إلى الهدف من هذه الخطة كان لا بد من قنطرة، وكان لا محيد عن خلق نقطة تحول تتكافأ فيها ردود الفعل، ويتوازن فيها الغرم والغنم، كان لا بد لهذه الخطة من صحابي يمتاز برقة القلب، ولين الجانب، والبر بالأرحام، يضعونه في الصف الأمامي من الهجوم المنوي، ويجردون في ظله على الحكم النبوي ما يجردون من مخالفات، متوقعين رد فعل يذهب بالخليفة المجند لهذا الغرض، فإذا ذهب هيأوا من دمه رد فعل آخر ينشئ التوازن المطلوب، وينتهي الأمر إلى أبي سفيان في شخص ابنه الرابض في دمشق. ولولا وجود عثمان هذا الشيخ الطيب لتعب القوم دون الحل أشد التعب، ولكنه رحمه الله كان مخلوقا لهذا الدور، فكان سلما لمن بعده، وقصيدة ثناء على من قبله.

قال المحدث: يزعم المؤرخون أن الحكم الأموي استتر ست سنين خلف عثمان قبل ظهوره مستبدا عاطفيا مستأثرا. وها أنت تراه متحفزا قبل خلافة عثمان بضعف هذه المدة،

وكان عثمان من رقة القلب، ولين الجانب، وبر الأرحام حيث لا يقدر على إخفاء الحكم الأموي لحظة واحدة. ولم تكن المعارضة التي بكر بها عمار، وبادر إلى تزعمها غير صدى ليقينه بأن عثمان مبكر بحماية بطانته من نبي أمية وبني أبي معيط، ولعلمه بأن نفوذ هؤلاء - خطر - أي خطر - على نظم الإسلام الاشتراكية سواء فيها نظم الاجتماع، ونظم الاقتصاد.
وقد بكر الحكم الأموي بالظهور كما قدر عمار فعلا.
وإليك هذه الأدلة المادية من أحداث اللحظة الأولى التي نقمتها جماهير المسلمين، ودعت عمارا إلى تزعم معارضتها، وإلى تلقي العذاب كما عهدناه بسبب هذه المعارضة.
حمل الخليفة عثمان من غرفة الشورى بعد البيعة إلى داره يشرب نخب النصر مع خاصته وحاشيته، لا إلى المسجد يعلن للناس منهجه ويشرك المهاجرين والأنصار بأمره، فكانت هذه البادرة ظاهرة لم يرتح الناس إلى استقبالها، ولم يطمئنوا إلى مدلولها، وربما شموا بها رائحة لم يألفوا شمها في الإسلام، ولعلهم رأوها أشبه بسيرة الملوك منها بسيرة الخلفاء، وهاهم يعلنون شكهم هذا، ويتحدثون عنه حديثا لاغطا لا حذر فيه، حتى يبلغ الخليفة، وحتى يضطره للعودة إلى الناس، والاعتذار إليهم بأنه جديد عهد بهذا الأمر، فليمهلوه حتى يتدبره ويترواه ويتعمقه، وسيفرغ بعدئذ إلى لقائهم، والتحدث إليهم، كما يحب ويحبون.

ثم لم يتفرق هذا الاجتماع العائلي الأول المحتفل بالنصر إلا بعد أن يعلن فيه أبو سفيان رأيه بالخلافة، ويضع فيه منهج الحكم الأموي المصمم في نفسه منذ عهد غير قريب. قال – وهو أعمى يومذاك –: هل في مجلسنا أحد نتقيه؟ فقيل له: انطلق على سجيتك أبا سفيان فقال: (تلاقفوها يا بني أمية، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم فوالله ما من جنة ولا نار) فيقر الخليفة قوله، ولا يعارض توجيهه إلا بضعف، إذا التزمنا القول المؤدب في التعبير عما تدل عليه هذه الكلمة من العلاقة بين الرجلين.

ولا يكتفي أبو سفيان بإعلان هذا المنهج العائلي، حتى يمشي به الحقد الثأري المستفز إلى قبر حمزة فيركله برجله ويقول: (إنهض أبا يعلى فقد صار إلينا الملك الذي حاربتنا عليه) في نزوة جاهلية لا نعرف في النزوات أنبض منها بالطيش، ولا أولع منها بالتشفي، ولعلك تلاحظ أن أهمية هذه الكلمة إنما تقوى، واعتبارها إنما يشتد، بكونها تعبيرا عن نوع الحكم، ومرآة لوجهه، ويكبر الظن أن أبا سفيان لو قالها بوصفه الشخصي لما قدر لها أن تحيا، ولأخذتها الرياح فيما أخذت من أحقاد تافهة، ورعونات جاهلة، ولكنه قالها بلسان الحكم، ولهجة الحاكم، فبقيت لتحسب فيما حسب من مخالفات العهد الخطيرة.

ثم انطلق حكم (أبي عمرو عثمان) من قاعدة أبي سفيان هذه مسرعا لم يستشر كتاب الله، ولا سنة النبي، ولا سيرة

الشيخين، وواجه في أيامه الأولى مشكلات متنوعة مستعجلة وقع حلها بعد التباشير السفيانية موقع امتحان لم يخرج منه (أبو عمرو) رضي الله تعالى عنه حتى فرض عليه أن يسير في طريق، ويسير الناس كافة في طريق آخر.

وجد أمامه مشكلة قضائية، وأنت تعلم ما لهذه السلطة من قدس وأهمية في الإسلام، وتعلم ما أحاطها به النبي من قيود وحدود وما اشترع لها من موازين وأقيسة، وما فرض لها من طهر ونزاهة وما أقامها عليه من مساواة وعدالة، وما وهبها إياه من حرية واستقلال، ذلك لتكون أمنا من كل خوف، وضمانا من كل اعتداء ومرجعا للحق في مشاكل الدماء والأعراض والأموال فما دونها من الأحداث المخلة بالأمن، المقلقة للراحة.

فما هذه المشكلة التي واجهها أبو عمرو، وكيف حلها؟

كان في المدينة رجل فارسي اسمه (الهرمزان) ألقاه حظه السيئ في طريق عبيد الله بن عمر بعد مصرع أبيه بيد أبي لؤلؤة، ولم يكن الهرمزان يعرف لنفسه ذنبا، ولا يتهمه أحد من الناس بخطيئة، نعم كان يعرف نفسه ويعرف الناس فارسيا، ولا يعرف هو ولا يعرف الناس يومئذ هذا اللون من العداء العنصري الذي عرف بعد ذلك في العهود الأموية، ويمضي الهرمزان كعادته مطمئنا محميا بالقوانين الإسلامية العادلة، ولكن عبيد الله لا يؤمنه ثم يدينه بذنب أبي لؤلؤة لا لشئ إلا

لأن هذا فارسي، وذاك فارسي، فيقتله.
إنها مشكلة لو واجهها عمر لم تكن مشكلة، لأنه يقضي فيها بالعدل فيقدم حياة القضاء العامة، على حياة ابنه الخاصة إذا لم تكن تدرأ الحد شبهة (١) وينتهي الأمر بمثل هذه البساطة، ولكنها وقد واجهت عثمان عادت مشكلة من أدق المشكلات، وأدعاها إلى الخوف على مصير القضاء هذا المرجع العادل الذي بدأ يحابي في الحكم، ويظاهر القوي على الضعيف، وينصر العربي على الفارسي، ويدخل على موازين العدل اعتبارات تذكر بعهود الاقطاع والعصبيات وقوانينها الجائرة.
خشي الناس هذا كله وهم يراقبون سير هذه المشكلة، وراعهم الحل الذي صار إليه (أبو عمرو)، فقد حمى عبيد الله، وأهدر دم (الهرمزان) دون سند في هذا وذاك إلا السند الاعتباطي الذي يعطل حدا صريحا من حدود الله، ويحيي سنة صريحة من سنن الجاهلية، وكأنه يريد أن يرد على عمر بعض جميله بالوفاء له في حماية ابنه من القانون. أي من الله ذاته، أو كأن هذه الحماية فرضت عليه، فرضها أبو سفيان الذي أوهمه الوفاء لعمر، وأراد شيئا آخر، أراد تعطيل هذا الحد ليفسد النظام القضائي الإسلامي، فيفسد بفساده أقوى دعائم

---

(١) من أصول المحكمة الإسلامية هذه القاعدة. (تدرأ الحدود بالشبهات) وفلسفتها الاحتياط للنفوس التي لا يصار إلى إزهاقها إلا بعد البينات القاطعة التي توجب القصاص المفروض هو الآخر لحفظ الحياة، وحماية السلامة العامة.

النظام الاشتراكي، راجعا إلى نظامه القبلي الجاهلي الذي يستخدم القضاء فيما يستخدم من السلطات الشعبية لحماية المصالح الطبقية.
ومهما كان من أمر فإن عثمان لم يحل هذه المشكلة حلا إسلاميا، بل حلها حلا عصبيا، فكدر خواطر المسلمين، وأخافهم بهذه الفاتحة على دمائهم وأموالهم فما دونها من حقوقهم التي تعرضت للرغبات الخاصة بعد وفاة القضاء!.
ووجد أمامه مشكلة مالية، هي مشكلة التضخم في الخزينة – بيت المال – وكان عمر واجهها من قبل حين أفاءت عليه الفتوح الغنائم والثروات، ففزع فيها إلى العلماء وأصحاب الرأي، فأشاروا عليه أن يضبطها في دواوين، ويوزعها توزيعا منظما على الجميع، وفق مبادئ الاشتراكية الإسلامية، ففعل، ولكنه ترك لعثمان (بيت المال) جواهر وحلى كسروية، عرضها يوم حملت إليه في المسجد على الناس، ورآها تتوهج في ضوء الشمس كالجمر المتقد، فهالته وخاف منها الفتنة، فأمر خازنه أن يفرقها عنه، وينقذه منها، ولكن الخازن قال له: إن توزيعها يصطدم بالعدل، أو يتلف عظيما من المال، فهذه العرمة من الجواهر لا تستوعب المستحقين من المكلفين، واختصاص بعض دون بعض يجحف على العدل ويضر به، ثم هي في ضيقها عن استيعاب أهل الاستحقاق حبات كل حبة تزيد على حق الفرد زيادة مضاعفة، فإذا فرطناها وكسرناها فلذا رجاء التوزيع تلفت،

وليس تلفها إلا التهاون بثروة الدولة، والتحيف على رصيد (الخزينة)، نعم يمكن تحويلها إلى نقد يسع المستحقين ويحفظ الثروة، ولكن ثروة المسلمين في حالهم الحاضرة أقل من ثمنها، وأعجز عن وفاء حقها، فالرأي إبقاؤها إلى عام قابل عسى أن تنمو الثروات نموا ينهض بسوقها، فأقر عمر رأي خازنه، وأمره بضمها إليه في (بيت المال) حتى يمكن صرفها وتوزيعها، ثم مات وهذه الجواهر خابية كالجمر المنطفئ في زاوية مظلمة من زوايا (بيت المال).

ورآها الناس مرة أخرى تتوهج في ضوء الشمس كالجمر المتقد، ولكن على صدور بنات عثمان لا في ساحة المسجد، ورأوا بها حقوقهم مجمدة في تجسيد هازئ مخيف في أيدي الأسرة الحاكمة.

هذه مشكلة ثانية لعلها أهم مشاكل النظام الاشتراكي يخالف عثمان في حلها ما عرفه الناس في كتاب الله، وسنة النبي، وسيرة الشيخين، ويجتهد فيها اجتهادا اعتباطيا مبناه (الاحتكار) وقاعدته الحكم المطلق.

ووجد أمامه مشكلة سياسية تتصل بأمن المجتمع المدني، وراحته من عوامل القلق والفساد، وكان النبي حلها حلا لم يجرؤ بعده الشيخان على تحديه والخلاف عنه، وهي مشكلة آل (الحكم) من بني (أبي العاص) ونفيهم إلى بطن (وج) من أعمال (الطائف).

وكان (الحكم) هذا وأبناؤه من أبناء عم عثمان (طفيلات) ضارة، حاول النبي إصلاحهم ولكن فسادهم كان جذريا عميقا غير قابل في ذاته للإصلاح، لأنه فساد نفس، وفساد عقلية، مستمدان من فساد إرث وفساد استعداد، في تعقيد وتركيب متواترين حوله إلى مرض لا يزيده الدواء إلا انتكاسا. وكانت بهم – إلى أصالة هذا الفساد واستعصائه – قابلية التهويش، وصلف المواجهة، على نحو يسئ القدرة في النفوس الضعيفة، ويجرئ (الغوغاء) على نشر الفوضى، وبث السفاهة واللامبالاة وقد بلغ من غوغائيتهم أن أقدم الحكم غير مرة على تمثيل النبي في مشيته، ومحاكاته محاكاة (كوميدية) ساخرة، فمشى خلفه يتغامز ويتخالج ويتخلع، حتى التفت إليه النبي، ورآه فلم يزد على أن قال له: كن كما أنت فكان اسمه بعد ذلك (المخلج) و (الحاكي) يناديه بهما الناس نداء تشهير وتحقير، وجرؤ غير مرة على أن يتطاول متجسسا على النبي في غرفته الخاصة، وما كان النبي إذا حمي غضبه يزيد على أن يقول: من عذيري من هذه الوزغة! وكان الناس بعد ذلك إذا حدثوا عنه أو عن ابنه مروان قالوا، الوزغ (١) بن الوزغ.. إلى غير هذا وذاك من ألوان السفه الذي لم ينته عنه، ولم ينته عن مثله أبناؤه، والذي شاركهم به من كان أقرب إلى عثمان منهم،

---

(١) الوزغ حيوان سام أبرص. ولعله الحيوان المعروف في اللغة الدارجة ب (أم بريص) مؤنثة وزغة وجمعه وزغ بصيغة المفرد المذكر، وأوزاغ ووزغان وإزغان بإبدال الواو همزة. وما أكثر أوزاغ البشر اليوم!

والذي يدل إلحاحهم عليه، ومضيهم فيه، على ارتباطه بتوجيه خفي، وعلى ارتباطهم بتحريك حزبي يسوقهم إلى إتيان هذه المنكرات كما يسوق كل حزب إقطاعي أو باشه وعضاريطه إلى الازراء بكبار خصومه، لتصغير شأنهم، والحد من احترامهم.

لم يسرع النبي – إذن – إلى نفي هؤلاء (الأوزاغ) بل نصحهم وتحمل منهم، وصبر عليهم حتى خشي عدواهم على الناس، عندئذ فقط، وبعد أن تبين للناس ما وضح من خبثهم وفسادهم، عزلهم عن الناس، فأسكنهم بطن (وج) حرصا على سلامة الأصحاء من هذا الجرب الوبيل، ولم تخف على أبي بكر وعمر مصلحة هذا النفي فأبقياهم حيث هم طوال عهديهما، لا يقبلان فيهم شفاعة عثمان المتكررة. وكان الافراج عنهم وإبقاؤهم في منفاهم رمزين – بتعبير أوضح – لفكرتين إحداهما رجعية، والثانية تقدمية، فأيتهما انتصرت كان النصر الحقيقي لما تجره خلفها من أنظمة وقوانين ومبادئ.

هذا هو وجه هذه المشكلة السافر، ولا يتضح المأزق فيها إلا إذا انكشف هذا الوجه انكشافا على هذا النحو ليكافئ النتائج الخطيرة التي ترتبت عليه.

وما ندري أكان عثمان نفسه يقدر حرج مأزقه في هذه المشكلة حق تقديره، أم كان يهون عليه أبو سفيان ركوب هذا المتن الخشن وتخفي عليه نية أبي سفيان سلامة قلبه هو، واندفاع عواطفه؟

ما ندري. ولكن المحقق أنه واجه هذه المشكلة كما واجه سابقتيها وحلها ببساطة بسيطة، وسذاجة ساذجة على تلك الأسس نفسها، لا حساب لله أو الشعب، ولا نفوذ للقرآن أو الدستور، ولا احترام للسابقات القانونية أو سيرة الشيخين. ولكن الحساب والنفوذ والاحترام، لرغبة الفرد، وأريستقراطية الحكم، ومجد العائلة.

ولما نتعب أنفسنا بعد هذه المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والمدنية والسياسية من أعمدة (الجامع) التي بدأت تتساقط تباعا، ويهوي بعضها وراء بعض؟. إن النظام الإسلامي بوحدته العامة، وما أنشأه من عرف اشتراكي في جميع الجزئيات، كان هو المشكلة الحقيقة التي واجهها الأمويون في ظل (البر العثماني) تلك هي المشكلة الكبرى، لذلك كانت كل حركة أموية منهم تأتي معولا يضرب في هذا الأساس بنظر الناس. ومن الطبيعي أن يطول عد المخالفات في حلول هذه المشاكل الجزئية التي لا تناهى، إذ كانت تصدر في مختلف الحوادث والاتجاهات عن (وحدة) مناقضة (للوحدة الإسلامية) فهذه وحدة مبدأها (المساواة) وتلك (وحدة) مبدأها (التفاوت) ولكل مبدأ من هذين قوانين وقواعد لا جامع بينهما إلا الحرب، ذاك لا يعني بالفرد إلا ليسعد الجماعة، وهذا إنما يلتفت إلى الجماعة من مصلحة الفرد، وذلك يقوم على أسس العلم والعمل والمناقب والعدالة، وهذا يقوم على أسس العصبية والنفوذ والشفاعة والاستهتار، في

فوارق جوهرية لا تلتقي إلا التقاء الأضداد والنقائض.
قال المحدث: وربما قصصت عليك خبرا من هذه الأخبار الصغيرة عن حدث من هذه الأحداث الأموية في صدر العهد العثماني، فرأيته مألوفا لا يهزك، ولا يفتح عينك على مقيم مقعد، لأنك ألفت اعتداء الأقوياء، وتعطل حسك الإسلامي بتخدير رجال الدين هؤلاء الذين يتاجرون بك ويمالئون الاقطاع عليك، ويقاسمونه حقوقك وأتعابك، ولكن خبرا من هذه الأخبار الصغار هز المملكة الإسلامية في ذلك الصدر قبل أن تتخدر الأعصاب، وتمسخ الضمائر، وأقامها وأقعدها، لأنها رأت به حادثا مبدئيا يجتمع فيه كل عدوان (التفاوت) على كل رضوان (المساواة).
كان للمدينة (حمى) أخضر يرعى المسلمون - وهم إخوان متعاونون - ماشيتهم فيه، فهو مباح للكل، حقوقه مشاعة مشتركة بين أهل المدينة، هكذا تركه النبي، وهكذا تركه أبو بكر وعمر وهكذا تفرض (المساواة) ومصلحة الثروة الحيوانية المشتركة. ولكن أبا سفيان ومروان بن الحكم وغيرهما من الأمويين يتجهون من عهدهم إلى استغلال الحكم، بنزعة رأسمالية تسلحهم بقوة المال يحتكرون موارده، ويجمدون أعيانه ليسيطروا به على الناس ويستعبدوهم بسحره، من أجل هذا اقترحوا على عثمان أشياء كثيرة، منها تصوين هذا الحمى ووقفه على ماشية بني أمية دون غيرهم من المسلمين.
أنا وأنت الآن لا نستكبر هذا الحادث، وربما رأيناه بعض

حقوق الخليفة، ولكن نظرتنا إلى هذا الحادث مضللة ضللها ما ألفناه من عدوان الحكام، وزيف رجال الدين الذين لا يتورعون عن اختراع فتاوى تصحح العدوان لقاء أجر، أو دفاعا عن عدواناتهم التي تفوق عدوان الحكام بما تتخذ من أساليب الخداع المنطلي على السذج والبسطاء من الجماهير، وأما الجمهور الواعي المعاصر لتصوين (الحمى) فقد رأى في هذا الحادث الصغير خطبا فاجعا وغزوا يهدد حقوقهم وأموالهم بالاحتكار الأموي، لأنهم نظروا إليه من حيث يجب أن ينظروا إليه، نظروا إليه من مصدره المبدئي فرأوه خلاصة الخطر المتجه من كل النواحي إلى جنتهم يفسد نعيمها، ويخيف أمنها، ويشوه جمالها، ولم يخطئوا النظرة فلم تمض أيام طوال حتى رأوا للخليفة قصورا قيصرية سبعة تنهض في المدينة، ورأوا لمروان مثلها في (ذي خشب) تطل بهذا (الوزغ) على سوق يضارب فيها بأموال المسلمين متسلقا إلى خزائن (قارون) تسلقا سريعا مدهشا، ورأوا عين سعيد بن العاص أمير الكوفة تمتد إلى (السواد) من بساتين المجاهدين، ومزارع الفرات، ورأوا ابن أبي سرح يستغل إمارة مصر للاستئثار بخيرات النيل، وثروات العمال والفلاحين، ورأوا غير هؤلاء من صبيان (أمية) وغلمان (أبي معيط) يستبدون هنا وهناك استبدادا سافرا لا يعفون منه عن دين ولا عرض، ولا مال، على نحو حقق كل مخاوفهم التي أثارتها نظرتهم إلى احتكار (الحمى) الذي كان (قاطرة) جرت خلفها كل حافلات الشر.

وزاد الطين بلة أنهم رأوا الخليفة يحمي هؤلاء الصبيان الأغرار فيكرر سابقة عبيد الله بن عمر القضائية في الوليد بن عقبة. فيحميه من الحد، في كبيرة ازدوج فيها شرب الخمر والاستخفاف بالدين، إذ سهر ليلة مع قيانه وندمانه - وهو أمير للكوفة قبل سعيد بن العاص - يشرب حتى مطلع الصبح، فلما دعي إلى الصلاة خرج إلى المسجد بثياب السهرة، وصلى بالناس ركعتي الصبح، ثم التفت إلى الجماعة - وما تزال الخمرة تخفف طبعه - فقال ساخرا: إذا شئتم زدتكم.

ولا يخفى على الناس ما في إخضاع الصلاة الركن للزيادة والنقصان من هزء ملحد في الدين، لذلك ضجت البينات من الكوفة إلى المدينة وأثارت الرأي العام الإسلامي كله، ولكن الوليد محمي يحميه الخليفة من القضاء.. من الله ذاته، فإذا اشتد اللغط، وعظم الاستياء أمر الخليفة بإقامة الحد على الفاسق الملحد، أمرا تحركت به شفتاه، ونهت عنه ملامحه، لذلك لم يجرؤ أحد على إقامة حد الله حتى اضطر علي نفسه أن يكون جلادا، وكان الفاسق مطمئنا إلى نجاته من الحد حتى رأى عليا يتناهض هنالك أحس وقع السياط قبل أن تقع، فهذا رجل لا ينسى الوليد أنه قتل أباه في الحق صبرا، وهو طفل عده النبي حطبا للنار (١). ويحاول أن يفر من بين يدي

---

(١) كان عقبة بن أبي معيط من أشد المشركين إيذاء للنبي، فلما اقتيد مع من اقتيد من فرار المشركين إلى النبي أمر النبي بقتله، فقال: من لهؤلاء يغنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا (فنتزوجهن) ولم يكن غير مؤدب العبارة وبلغت النبي فسخط عليه.

علي، بل إنه ليفر ولكن عليا يدركه ويجلد به الأرض ثم يجلده، ويحتج عثمان على الزائد عن الحد من جلد الأرض به، ولكن عليا يفتيه بفقه المسألة.

وزاد بلة الطين وراء هذه الحماية السافرة، سفور الخليفة بالتحول من أنظمة الإسلام الاشتراكية، إلى أنظمة رأسمالية بحتة، فها هو يجعل المال دولة بين الأغنياء خاصة، ويفضل أعداء الرسول على المهاجرين بالعطاء والمراكز، ويخالف كتاب الله – وهو الدستور – في غير حاجة إلى استتار أو تأول، أعطى الحكم بن أبي العاص طريد النبي بعد الافراج عنه مئة ألف درهم، وأقطع الحرث بن الحكم سوقا في المدينة اسمها (تهروز) وهي من أوقاف النبي على مصالح المسلمين المحتاجين، وأقطع مروان بن الحكم (فدكا) وهي إرث الزهراء من أبيها، وأعطاه فوقها خمس (أرمنية) وزاده مئة ألف درهم من بيت المال، وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد أربعمائة ألف درهم، وأعطى عبد الله بن أبي سرح فوق إمارة مصر خمس (إفريقية)، وأعطى – بعض ما أعطى – أبا سفيان مئتي ألف درهم من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمئة ألف حتى جاءه زيد بن أرقم – وهو الخازن – باكيا وهو يقول: والله لو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيرا، وألقى إليه مفاتيح الخزينة

وخرج، وجاءته أموال العراق فقسمها في بني أمية خاصة، وزوج الحرث بن الحكم إحدى بناته فوهبه بهذه المناسبة مئة ألف، في أحداث من هذه لا تحصى، شجعت الأقوياء على انتهاز فرص الاثراء غير المشروع، بل ذللت لهم في كثير من الأحيان هذه الفرص على عمد، لتشركهم بالأوزار وتقعدهم عن المعارضة، فإذا الزبير ينمو نموا ماليا عجيبا. ترتفع مبانيه في الكوفة والبصرة ومصر، ويبلغ نقده خمسين ألف دينار عدا ألف فرس من الحيوان، وألف أمة من الإنسان. ومساحات عظيمة من الأطيان، وإذا طلحة يرتفع له قصر في المدينة، وآخر في الكوفة ويبلغ دخله اليومي من غلاته في العراق ألف دينار في كل يوم، وإذا زيد بن ثابت يجمع من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس غير ما يملك من الضياع التي قدرت بمئة ألف دينار، وإذا عبد الرحمن بن عوف تتضخم ثروته حتى تزيد على نصف مليون ومليوني دينار عدا الإبل والخيل.

إلى غير هؤلاء ممن فتنوا بالمال، ولذ لهم الامتصاص، فأقبلوا على ما أقبل عليه الأمويون، وممن أشار إليهم عثمان من حصاره وهو يستنجد عليا إذ قال: (وقد اتهمني من لا يدفع عن نفسه) ونسي أن مسلك الأمويين هو الذي فتح الباب، وألجمه عن إدانة هؤلاء وغيرهم بما يدينهم به الحق المعطل.

على أن هذا كله كان مما يسكت عنه، ويصبر عليه، حتى يأذن الله باستدعاء الخليفة إليه، لو أن الخليفة وسع النقد، وعدل عن تصويب هذا المنهج بادعاء الصلاحية المطلقة حينا،

وبالسوط والإرهاب والحكم العرفي حينا آخر، ولكنه ادعى الحكم المطلق، فلما عورض لجأ إلى الأحكام العرفية، فدفع الشعب إلى الفتنة دفعا.

لغط الناس من سائر الأحزاب أول الشر بنقد قصوره والاحتجاج على أعطياته وولاته، فخرج مغضبا، وصعد المنبر، وعرض لأقوال المعارضة، وفندها بمنطق أريستقراطي قائلا: إن حلمه وسعة صدره أطمعا المعارضة بالاجتراء على قول ما تقول، فلو عاملهم بشدة عمر الذي هو دونه لحبب إليهم الطاعة، وكره إليهم الشغب، ولكنه حلم فاجترأوا، ثم عالنهم بأن تصرفاته التي يعيبونه بها إنما هي بعض حقه، وأنه لو شاء لاستعمل كل صلاحياته فيأخذ حاجته من المال على نطاق أوسع، وإن رغمت أنوف أقوام.

ولا ينزل عن المنبر حتى يقول له علي: إذن تمنع من ذلك ويقول له عمار: أشهد الله أن أنفي أول راغم.

* لم تكن كلمة عمار هذه أولى خطواته إلى المعارضة.

فقد سمعت من قبل أنه نادى بالمعارضة قبل الجميع بين يدي غرفة الشورى، ولم يستتر بعد ذلك في كل مناسبة من مناسبات النقد، ولكنه كان بطبعه أقرب إلى السكينة، وأدنى إلى الروية، وأبعد عن النزق، وكان يكتفي بغيره إذا لم يكن في الاكتفاء تقصير عن الحق، أو تردد في خدمته، وكان حتى الآن في أمن من لسان عثمان وسوطه، يحميه منهما مجده النضالي

الممتاز الذي جعل له جلالة خاصة في صفوف الجماهير المسلمة، وتحميه منهما مأثورات النبي فيه، ولا سيما هذه المأثورات التي أثارها عثمان نفسه يوم بناء المسجد، ويحميه منهما بعد ذلك نفوذ علي وهيبة حزبه.

* تعرض عبد الله بن معسود من قبل لغضب عثمان، في معارضة جريئة أرسلها غير متق ولا موارب، فطرده من المسجد وأمر شرطته أن يتولوا إخراجه، ويحاول الامتناع فتمتد إليه أيد غلاظ شداد، وتعتقله وهو يضطرب بينها اضطراب السمكة، فإذا بلغت به الباب جلدت به الأرض، واختلفت عليه، ثم لم تتركه إلا مكسور الأضلاع مغشيا عليه، ويحمل إلى بيته عليلا فيقطع عنه عطاؤه، وتحرم على الناس عيادته، فتمتنع الناس إلا وجوه الصحابة وفيهم عمار، ويحس الموت يدنو إليه فيوصي عمارا بالصلاة عليه وبدفنه سرا، وينفذ عمار هذه الوصية، ويعلم عثمان فيغضب ولكنه يكتم غضبه.

* وتعرض أبو ذر لغضب عثمان في معارضة أرسلها غير متق ولا موارب أيضا، فنفاه إلى دمشق ووكل إلى داهية الأمويين أمر تأديبه ولكنه نشط في دمشق نشاطه الاشتراكي الذي أخاف معاوية على عاصمته، ولكن معاوية لم يشأ أن يسئ إلى سياسته ولما يبلغ العرش، فكتب إلى عثمان يستغيث به من أبي ذر، فأمره أن يحمله إليه على أخشن مركب، ولم يصل إلى المدينة إلا وهو عظم معروق قد أكلت الأقتاب لحم فخذيه، وكسر السير العنيف ظهره، وفي المدينة

عرض على الجلادين، ثم نفي إلى الربذة، ومنع الناس من وداعه فلم يجرؤ على توديعه غير علي وعقيل والحسن والحسين وعمار. وكان مروان نفسه الشرطي الذي راقب تسيير أبي ذر ومارس منع الناس من تكليمه، وحاول منع هؤلاء الخمسة، ولكن عليا طرده، وودع أبا ذر بكلمة هون عليه فيها النفي، وأرهفه فيها للثبات، ثم قال لعقيل وعمار ودعا أخاكما، وقال لولديه ودعا عمكما، فودعه عقيل ثم الحسن ثم الحسين بكلام مبدئي على غرار كلام علي، ثم ودعه عمار فقال: (لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، ومالوا إلى ما سلطانهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين).

* وعرضت هذه الحادثة عليا لغضب عثمان، وكان من قبل يتهمه ولكن لا يجد عليه مستمسكا. سب عثمان طلحة والزبير وعائشة وحفصة وسعد بن أبي وقاص، واشتد على عبد الرحمن بن عوف، ولم يترك أحدا ممن برز في معارضته إلا أصابه نحوا من الإصابة، غير علي فإنه لم يكن يعارض حبا بالمعارضة، بل كان يعارض من أجل الاصلاح لذلك كانت مواقفه سلمية من التزيد، بريئة من الإسفاف، ولعل هذا أعظم ما يحنق عليه عثمان، فلما كان وداع أبي ذر وجد المدخل فقد

كان اختراق علي بالذات هذا الحصار الذي أحيط به أبو ذر، على جانب عظيم من الأهمية والخطورة، لذلك عاتبة فور رجوعه من وداع الصحابي المنفي، وسأله عن سبب طرد مروان بوصفه موظفا يمارس وظيفته، فأجابه بأنه لم يطرد مروان حتى أخذ هذا عليه الطريق، فقال عثمان: ولكنه مأمور بتنفيذ حكم من أحكامي بوصفي خليفة، فيقول علي: ولكن الخليفة لا يأمر بمعصية، ولا ينهى عن واجب وإذا فعل فلا طاعة له، فيطلب عثمان إليه الاعتذار من مروان حسما للنزاع، فيقول له علي: إن شئت اعتذرت إليك، أما مروان فلا أطمعه بذلك، لا لشئ إلا لأن اعتذاري إليه يقوي سيطرته عليك. ويزيده قوة على قوته في حملك على سياسته الرعناء، وكم تكون صالحا لو نزعت هذا الشيطان الحقير من صدرك.

وكأن العقدة النفسية التي بدأت تطارد عثمان وجدت هي الأخرى مدخلها إلى المكابرة، لقد كان يرى عليا مقتصدا ناصحا لا تدفعه أحقاد، ولا تحدوه أطماع، مما يدفع ويحدو غيره من زعماء المعارضة، ولكنه يحتقر غير علي، ولا يراهم أكفاء معارضته أو الإطاحة به، ثم كان مدفوعا بغريزة التبرير إلى التفتيش عن سبب قاهر يعلل له هذه الصيحة الطاغية، ويقنعه في أعماق نفسه بكفاءة خصمه في آن واحد، لهذا وذاك تشبث من هذا المدخل باتهما علي تشبثا يشبه أن يكون مرضا نفسيا، ولم يغفل عن هذا علي فقد أشار إليه غير مرة في حواراتهما حول هذا الموضوع، ومهما يكن من شئ فقد عظم

الشر بينهما بعد وداع أبي ذر، أو عظم اتهام عثمان لعلي عظيما أفقده توازنه. اشتد حتى استدعاه مرة في ظهيرة قائظة وضربه بالخيزران حتى شفا نفسه وعلي يسدي إليه النصح ويرجو له الشفاء، ولان حتى مشى إلى علي يستعطفه بالرحم، ويستنهضه بالعصبية، ووسط العباس مرة، وعبد الله بن العباس مرات لاكتساب رضى علي الذي كان يعتقد قدرته على إنقاذه، وما ندري أمكر به عبد الله أم كان صادقا حين اعتذر إليه عن إخفاق وساطته بأن عمارا يصرف عليا عن الرضى، وبأنه لا مطمع بالتأثير على علي وعمار موجود.

* في هذه الأحداث الخطيرة لا يغيب ظل عمار، ولا يفتقد شخصه ولا رأيه، ولكن عثمان يرعى قدر عمار الجماهيري، ويخاف مأثورات النبي فيه، ويهاب التزام علي به، فيعفيه من لسانه، ويعفيه من سوطه هذا السوط الذي استحدثه فكان من أشد المطاعن عليه.

لكنه – وقد ادعى الحق المطلق فيما سمعت، فكبحه علي، ورد عليه عمار – انفجر فشتم عمارا، وهاب عليا في الملأ، ثم انفجر عمار كذلك فإذا هو يقوم ويقعد بعثمان، ومستحدثات عثمان، ويستدعيه عثمان فيمتنع، ويساق إليه بالقوة فينساق، ولكنه لا يكاد يخرج من مجلس عثمان حتى يعود إلى المسجد يتحلق حول الناس وهو يحدثهم ويعبئهم ويجسد لهم أخطار الطغيان في مساوئ العهد، ويوكل به عثمان نفرا من الشرطة يفرقون عنه الناس كلما اجتمعوا حوله، في صراع أبرز عمارا

كما أبرزه صراعه في مكة من قبل، وعثمان حائر يخشى أن يمثل في هذه المعركة دور أبي جهل، يخشى أن يكون داعية النار، فعمار داعية الجنة وعلامة الهدى كما يعلم كل المسلمين، ويخشى أن يغضب فيه بني هاشم.

واجتمع مرة قوم من الصحابة فيهم الزبير وطلحة والمقداد وغيرهم يتزعمهم عمار، فأتمروا ثم اتفقوا على كتابة كتاب يوجهونه إلى عثمان يطلبون فيه إليه – بعد عد مساوئه – التوبة وإعفاء الناس من بيعته، ويكتب الكتاب، وينهض عشرة من القوم خلف عمار تتخطفهم المنعطفات أثناء الطريق، ويستمر عمار وحده حتى يدخل على عثمان فيسلمه الكتاب، فيقول له عثمان بعد قراءة الكتاب: أنت كتبت هذا؟ فيقول عمار: نعم، ويقول عثمان: كتبته وحدك؟ فيقول عمار: بل كان معي نفر تفرقوا خوفا منك. ويقول عثمان: من هؤلاء النفر؟ فيقول عمار: لا أخبرك بأسمائهم، ويقول عثمان: ولم أقدمت وهابوا؟ ولكن مروان يسبق إلى الجواب هذه المرة فيقول لعثمان: إلى متى تصبر على هذا الأسود؟ إنه جرأ عليك الناس، فلو قتلته أرهبت من وراءه وجعلته نكالا للمتمردين! فيأمر عثمان بضربه، فضربه الغلمان وشاركهم عثمان بضربه حتى فتقوه وغشي عليه، عند ذلك حملوه وألقوه كما تلقى النفاية في الطريق، وتطل أم المؤمنين أم سلمة على الضوضاء، فتجد عمارا نفسه مغشيا عليه فتحمله إلى بيتها حيث يبقى غائبا حتى تفوته صلوات الظهر والعصر والمغرب،

فإذا أفاق ووجد حوله من أمهات المؤمنين أم سملة وعائشة وحفصة وغيرهن من أقطاب المعارضة، حمد الله وذكر الصلاة، فتوضأ وصلى، ثم تذكر فتنة أبي جهل، وقال: إن ضربت فلطالما عذبت في سبيل الله، وخرج عثمان بعد إغماء عمار فوجد بني مخزوم متجمهرين، وعلى رأسهم هشام بن الوليد بن المغيرة، غضبا لحليفهم ويقول هشام لعثمان: والله لئن مات عمار لأقتلن به رجلا عظيما من بني أمية، فلا يزيد عثمان في الجواب على الابتسام الساخر وينصرف ليشتبك مع علي.

قال المحدث: وكان هذا الحادث الشرارة الخطرة التي أضرمت النار فدلع لهبها حتى انتهت بمصرع الخليفة الشهيد يخذله عماله من آله على عمد كي يستأنفوا الحكم بسبب من دمه. ولكن عمارا على عنف معارضته لم يشترك اشتراكا عمليا بقتل عثمان، وإنما كان متأثرا خطوات علي في حب النجاة من دم الخليفة، قد دخل مع علي يوم الحصار على عثمان فنصح له بالتخلي عن الحكم، أو تسليم مروان، ثم لم يزد برغم أنه لا يرى عثمان من أهل الإيمان، فقد كان يقول: كفر عثمان كفرة صلعاء، وجادله الحسن مرة في إسلام عثمان وكفره، وترافعا إلى علي في هذه الخصومة فأجابهما عليه السلام جوابا مرنا.

عهد علي كان عهدا لعمار، أي أنه كان عهدا للكل..
عهدا للإسلام بعدله وحريته، ومساواته ورحمته وتطوره، هذا لا شك فيه.
فلا تنتظر من عمار – إذن – أن يكون فيه خامل الذكر، أو ضعيف النشاط، أو خفيض الصوت.
ولا ينبغي أن تزهد بنباهة ذكر عمار، ولا بنشاطه، ولا بارتفاع صوته، فقد علمت أنه كان بنظر المسلمين (علامة هدى) يستشرفون المشاكل المشتبكة في هذه الفترة من تاريخهم المشحون بألوان المعارك، فإذا رأوا عمارا في صف منها اطمأنوا إلى مكان الحق، وميزوا به بين الصلاح والفساد.
ولم يكونوا في هذه النظرة غلاة ولا مسرفين، فقد سلخ عمار من مطلع الإسلام حتى الآن خمسا وأربعين سنة أو نحوها، دائرا في أوسع فلك يدور فيه مجاهد، متعرضا لأعظم الفتن خطرا على المبادئ من خوف وطمع، ولكنه راسخ والناس من حوله بين متزلزل وساقط ومرتد، فلا تستغرب أن

يظفر من بينهم هذا المستضعف الكادح، بهذا المجد القوي المنعم.

قال (الصادق) – عليه السلم – مرة لبعض أصحابه: (إن أقواما يزعمون أن عليا عليه السلام لم يكن إماما حتى شهر سيفه خاب إذن عمار!).

ولو لم يكن لعمار حكم القاعدة المسلمة لما استقام منطق (الصادق) في جعله آية على إمامة علي قبل امتشاقه السيف، واتخاذه من تشيع عمار أيام قعود علي برهانا على رجحان المذهب الشيعي في مشكلة الإمامة.

ثم لا يستقيم هذا المنطق إذا كان لعمار هذا الحكم عند الشيعة خاصة من فرق المسلمين، لأن الحجة لا تنهض إلا إذا كانت ملزمة بنظر الخصوم والأصدقاء، والواقع أن كلمة (الصادق) هذه يرسلها بعد عمار بأربعة أجيال، إنما هي صدى لنظرة المسلمين العامة إلى عمار في أيامه، قبل أن تتمذهب الآراء، وتتخذ طوابعها الجدلية في عصر الصادق، وسأحدثك عن عمق هذه النظرة وأثرها في خصوم عمار أنفسهم.

شهادة الصادق هذه المستنتجة من استدلاله تكفي عمارا لو كنا بسبيل من تزكيته، ولكني منه إزاء شخصيته المعنوية التي جعلته عيارا في وزن القيم، و (مثالا) في مفاهيم الخير، مرتفعا من سلوكه الإنساني المستقيم إلى هذه القمة التي استشرفها أشخاص اللحم والدم من منخفضاتهم في تقدير وإكبار، حتى

هؤلاء الأشخاص الذين يرون إلى لحومهم ودمائهم من معدن أكرم من لحمه ودمه.

هذا يدعوك إلى تقويم موقف عمار حق تقويمه، وينهاك عن الزهد بنباهته ونشاطه وارتفاع صوته في عهده: عهد علي، فالحق أن موقفه كان موطن قوة في هذا العهد، بمقدار ما كان موطن ضعف في عهد عثمان.

* * *

بكر عمار بالمعارضة في عهد عثمان، فأعلن عصيانه ولما يبايع الرجل، ثم بكر عثمان بالخروج على العرف الإسلامي بحمايته عبيد الله بن عمر - كما سمعت - فدعا عمار إلى الجهاد متقبلا على علي وهو ينادي: أيا ناعي الإسلام قم فانعه، قد مات عرف، وبدا نكر، أما والله لو أن لي أعوانا لقاتلتهم، والله لو قاتلهم واحد لأكونن ثانيا).

وليس لجهاد عمار وثباته وتضحياته من نتيجة غير أن يكون قطبا من أقطاب العهد العلوي، فكان كما تنتظر منذ اللحظة الأولى ثم لم يكن ذلك الصامت الطويل الصمت لا يقطعه إلا بتنهدات قصيرة تعوذ بالله من الفتنة، بل كان رجلا آخر متصل القول، طويل الكلام، شديد الجدل، كثير الحوار، ومرد هذا التطور ظاهر ولا يلجئ الناقد إلى عمق من التعليل بعيد القرار، فقد هل العهد العلوي في أفق معتكر الجو، مضطرب الأجواء، ملبد بالغيوم، واستهلته فتن قسمت الناس، وأطعمت

الأحزاب، وأفسدت الآراء، ولم يكن أحد أولى من عمار أن يتأثر بعوامل هذه الأحداث، في مضطربها العنيف هذا، وكان من أقرب آثارها منه، وأسرعها إليه أن تكشف منه عن (شخصية) الداعية وواضح بعد ذلك أن لهذه الشخصية أدوات ليس منها الصمت، على أنه لم ينفجر صمته منذ اليوم، بل رأيناه منفجرا منذ العهد العثماني، فإن لاحظنا اختلافا في لهجته بين السلب والإيجاب، فإن جوهره واحد يستمد استقامته من شخصيته هذه: شخصية (الداعية).

بلغ عمار القمة من ثقة الناس وتقديرهم بسبب ما أرسل النبي فيه من ثناء، وبسبب ما قدمه عمار من استقامة في السلوك ولكن عمارا كان يرى استقراره في هذه القمة لا يتم إلا بالإخلاص لعلي، والنصح له والتضحية في سبيله، وكان يرى أن عمره المديد الحافل بالمشاق والأمجاد إنما كان تمهيدا لدوره الحقيقي الذي بدأ يمثله في عهد علي، وقد حدثه النبي عن نفسه وعن غيره وألقى إليه أمورا في نفسه وفي غيره، وقد تحقق ما حدثه به النبي وما ألقاه إليه كله إلا حديث مصرعه بيد الفئة الباغية، فماذا يدخر أخلد من هذا المصرع؟ وماذا يأمل بعد التسعين؟ وهذه الفتن هابة، وهو علامة الحق في نظر الناس، وعلي هو الحق في نظره؟

لا صمت بعد اليوم، ولا تقية، ولا احتياط، قال ذلك في نفسه وانهمر كلمة عذبة صارمة، وحركة خفيفة نشيطة، ونضالا نضال اليد واللسان.

الأشداء من قريش على عثمان رجعوا إليه بعد مصرعه، ولعل موقف عائشة في هذه المأساة أوضح صورة للتناقض الغريب المدهش في موقف قتلة عثمان من هؤلاء القرشيين الطامعين. قتلته عائشة بتحريضها العنيف السافر، وسعيها الحثيث النشيط، وهي تأمل عودة الحكم إلى (تيم) في شخص ابن عمها طلحة، وقتله طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص بأموالهم ودسائسهم، وقتله معاوية وحزبه من عمال الأمويين بتخليهم عنه، وقتله مروان وآل الحكم ورفاقهم من آل أبي معيط بأنانياتهم واستخفافهم، فلما قتل وصار الأمر إلى علي بإجماع رأي المسلمين، انقلب هؤلاء جميعا دون توطئة ولا تمهيد، فإذا عثمان الظالم الكافر أمس، شهيد مظلوم اليوم!. والمؤلم في هذا التناقض أنه وجه من مرضى النفوس جندا خفوا لندائه، وأسرعوا إلى تلبيته في (وصوليته) لا تخجل من وقاحة التناقضات، بل تركب صلفها إلى المطامع، وكان من أثر هذا أن تعقدت الأمور لا في المدينة فقط بل في عواصم المملكة الإسلامية كلها، نكث طلحة والزبير وسعد بيعة علي، وتخلف عنها في المدينة نفر قليل، وانتشر الفساد في أرجاء العالم المسلم، فأبى البيعة معاوية في دمشق، وحرن أبو موسى الأشعري في الكوفة حرانا بغيضا ثقيلا، وتنبهت روح الحذر في كل مكان، فكان الرؤوس متربصين ينتظرون انجلاء الأفق.

وإننا لنعرف لشيعة علي كلهم جهدا كريما، وعزيمة

ماضية، وثباتا لا يهوله هذا التنكر اللئيم، ولكنا لا نعرف أخف حركة، ولا أوسع جدلا، ولا أحر دعوة، ولا أكثر تضحية، ولا أنفذ قولا من عمار بن ياسر.

* بلغه ارتداد عائشة من وجهها حين بلغها نبأ خلافة علي، وعودتها إلى مكة – وكانت متجهة منها إلى المدينة – ثائرة تنعي عثمان وتطالب بدمه، فأرسل إليها يذكرها الله والرسول والسمعة فإنه لا يليق بأم المؤمنين أن تنسى موقفها من (نعثل) أمس ولا يليق بأم المؤمنين أن تخالف ما حفظت في علي. ثم لا يليق بأم المؤمنين أن تندفع في هذه التيارات المتعاكسة وتغامر مع المغامرين في ميادين السياسة والحرب، ولكنها سمعت رسالته وما ارعوت وخرجت على كتفي طلحة والزبير إلى يوم (الجمل).

* ورأى المغيرة بن شعبة يتردد على أمير المؤمنين ببعض الرأي ويحوم حوله ببعض الحلول، وهو لا يشك بما ينطوي عليه المغيرة من إبليسية سوداء، ويعرف من تاريخه وصلاته ما يعرف به النفاق نفسه يمشي بقدمي المغيرة ذلك الفاسق، ولكن موقف الداعية فرض عليه أن يحاول تجنيده للحق، فيدعوه إلى معسكر علي، وجهاد عدوه، ولكن ابن شعبة لم ينشأ إلا عدوا لعلي، وكان العفو عن حده في نزوته على أم جميل ثمنا من أثمان هذه العداوة، ثم كانت حزبيته الأموية حائلا دون الانضمام إلى علي، وليس هو بعد هذا كله ذلك الرجل الذي يبت بمصيره في مثل هذا الجو المعتكر، أو يقدم

على صفقة لا يكون ربحها المادي مضمونا، لهذا كله تملص من أبي اليقظان واستمهله (حتى تنجلي الظلمة ويطلع قمرها فيسري مبصرا) وهو جواب شبيه بالمغيرة شبها صريحا مستقيما لا غموض فيه ولا التواء ولكن (الداعية) من طبيعته الالحاح، فيكر عليه عمار قائلا: معاذ الله يا مغيرة! تقعد أعمى بعد أن كنت بصيرا؟ أنظر ما ترى وما تفعل أما أنا فلا أكون إلا في (الرعيل الأول). ولم يقل عمار (أنا) بوصفه عمارا ولكن بوصفه (علامة هدى). ومضى آخذا بزمام المغيرة يشكمه بالحجة تلو الحجة، والمغيرة يروغ، وكان علي يسمع الحوار، وكان الحوار عقيما دون شك، فيقول علي (دعه – يا عمار – فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه، ليجعل الشبهات عاذرا لسقطاته).

* ولم يعجبه اعتزال عبد الله بن عمر فاستأذن أمير المؤمنين في مناظرته ودعوته إلى نصرة الحق، ثم ذهب إليه باسم الإسلام، يزيح عنه شبهات عزلته بوعي المسلم المجتهد، ومنطق العالم القانوني فيقول له: (يا أبا عبد الرحمن: إنه قد بايع عليا المهاجرون والأنصار، ومن إن فضلناه عليك لم يسخطك، وإن فضلناك عليه لم يرضك، وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة – أنكر ذلك قبل عهد علي – وقد علمت أن على القاتل القتل، وعلى المحصن الرجم، هذا يقتل بالسيف، وهذا يقتل بالحجارة، وأن عليا لم يقتل أحدا من أهل الصلاة فيلزمه حكم القاتل).

وفهم عليه عبد الله ما يقول، وعلم أن حجته ملزمة، تلزم عبد الله ببيعة أعطاها لقاتل أهل الصلاة، وأعطاها لمن عفا عن زان محصن، ولكنه كان رجلا فيه اعوجاج الخوارج، وضعف الزهاد من محبي الشهرة، لذلك اكتفى في الجواب بأنه مؤمن بحق علي وموقن بأن عليا ظلم يوم الشورى في أقل تقدير، إذ صرف عنه الأمر بالسيف، وأشار إلى نقد أبيه وتبرأ على أثر الإشارة هذه من عداوة علي سرا وعلانية، ولم يزد فانصرف عنه عمار وقد أعذر.

* وبلغه أن سعد بن أبي وقاص يلتوي عن العهد، وينكث به، فأتاه، ولكنه وجد رجلا مريض النفس، مختلط العقل، فتركه لمحنته، مترفعا عن مناظرته.

* وبلغه أن محمد بن مسلمة الأنصاري، يتلكأ تلكؤ هؤلاء المترفين المبطئين في طريق الحق، فأسرع إليه، فوجد عنده عقدة نفسية تتمسك بشبهة في بعض الحديث عن رسول الله تأمره بالاعتزال، ويسلط عليها عمار فكره النير فيحل الشبهة، ولا يتسع الموقف لحل العقدة.

قال محمد: مرحبا بك - أبا اليقظان - على فرقة ما بيني وبينك والله لولا ما في يدي من رسول الله صلى الله عليه وآله - وهو هنا يستعمل ذكاءه لاستدراج عمار - لبايعت عليا، ولو أن الناس كلهم عليه، ولكنه - يا عمار - كان من النبي أمر ذهب فيه الرأي.

قال عمار: هات هذا الأمر - يا محمد - فإن كنت فيه على صواب كنت معك، فوالله لا أعدل بالحق، ولا يمنعني عنه أنه في جانبك.
قال محمد: أمرنا رسول الله بالاعتزال إذا رأينا المسلمين، أو أهل الصلاة يقتتلون.
قال عمار: أنت سمعت هذا من رسول الله؟
قال محمد: نعم أنا سمعته!.
قال عمار: لا أتهمك، ولكن قول رسول الله إذا ثبت احتاج إلى تفسير صحيح (فإن كان قال لك: إذا رأيت المسلمين، فوالله لا ترى مسلمين يقتتلان بسيفهما أبدا) فإذا رأيت ذلك فاعلم أن أحدهما غير مسلم، وعليك أن تنصر المسلم الحق منهما. (وإن كان قال لك: أهل الصلاة فمن سمع هذا معك؟ إنما أنت أحد الشاهدين، أتريد من رسول الله قولا بعد قوله في يوم حجة الوداع: دماؤكم وأموالكم حرام إلا بحدث؟ أتريد - يا محمد - أن لا نقاتل المحدثين؟.
فانهزم ابن مسلمة أمام هذه الفقه الواسع، الذي يعلمه الفرق بين المسلم الحق، وبين المسلم المصلي رياء، ويفتيه بوجوب قتل المحدثين الخارجين على قدس المبادئ.
واكتفى من مناظرة عمار بقوله: حسبك أبا اليقظان، فقد خشي أن يحل عقدته، بعد أن مزق شبهته، وكان علي قتل له أخا يوم خيبر.

كان عمار أخف شيعة علي حركة، وأشدهم نشاطا، وأكثرهم تفقدا لثغرات الموقف، وكان في خفته وشدته وتفقده من أوسعهم كفاية، وأغناهم ذهنا، وأكثرهم علما.
ظل دأبه ما رأيت في المدينة، يدعو ذاك، ويرد على هذا ويثبت غير هذين، طوال الشهور الأربعة التي مضت على بيعة علي قبل خروجه إلى لقاء الناكثين في البصرة.
فلما بلغ عليا خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، عزم أن يقطع عليهم الطريق، ويردهم منها دون الفتنة، فركب وركب معه تسعمائة صحابي من المهاجرين والأنصار، كان عمار في طليعتهم، وركب معه خلق كثير من عامة المسلمين، فلما كان بالربذة علم أن عائشة وصاحبيها سبقوه إلى البصرة، وأن اللحاق بهم دونه أمر فات وقته، فأرسل من الربذة محمدا ابن أخيه جعفر، ومحمدا بن أبي بكر بكتاب إلى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة، يأمره فيه بتجهيز الناس لموافاته إلى البصرة، ولكن المحمدين وجدا عامل أمير المؤمنين على الكوفة، أو عامل الأشتر - بتعبير أصح - عدوا لا يتقي بعداوته، متحاملا، يدعو الناس إلى التحامل ويصنع لهم من (الأحاديث) ما يحملهم به على الحيدة والقبوع والاعتزال الأمر الذي دعاهما إلى الاشتباك معه بجدال عنيف، اتصل حتى أغلظا له القول، وانقلبا بخبره سريعين إلى أمير المؤمنين في الربذة، ويرسل أمير المؤمنين هذه المرة عبد الله بن عباس ومحمدا بن أبي بكر بكتاب عزل فيه أبا موسى عزلا قاسيا،

وأمره بالتخلي عن الأمر لرسوليه، وتبطئ عليه أخبار الكوفة فيخشى عليها الفتنة.

ويدنو إليها من الربذة إلى ذي قار، ويرمي أبا موسى فيها بابنه الحسن ووزيره عمار بن ياسر، ومعهما من فرسان الفكر والسيف قيس بن سعد، وزيد بن صوحان، ليجهزا على حكمه إذا بقي منه شئ يمتنع على ابن عباس وابن أبي بكر، والواقع أن أبا موسى كان ما يزال ثابتا لابن عباس وصاحبه، يرقى المنبر إذا فرغ الرجلان من دعوتهما، فيخذل الناس ويدعوهم إلى الروية والأناة، ويخترع لهم عن النبي أخبارا فيها ما يأمر بتجنب الفريقين، وفي الكوفة أولياء لعلي وفيها قليل من الخصوم ولكن للكوفة مزاجا غريبا لا يقاس بالولاء والعداء، وإنما يقاس بالرغبة الخاصة، وبالظروف التي تحف بالحوادث، وكان هذا الظرف من الظروف التي تروق فيه لمزاج الكوفة المماطلة والتردد والأناة، فلا يحملها في مثله شئ على الجد مثل الشدة، ولم يؤمر عبد الله بالشدة على أبي موسى، وأبو موسى لم يحل حتى الآن بينه وبين الحكم، ولا بينه وبين المنبر، وما دام مطاعا في القصر، مخلى بينه وبين المنبر فمزاج الكوفة يلذ المماطلة، ويلذ التردد والأناة.

على مثل هذه الحال أقبل الحسن ومعه عمار أمير الكوفة بالأمس وصاحبها الذي أصاب فيها توفيقا أدى إلى عزله.

وللكوفة إلى مزاجها ذاك طبيعة كطبيعة التلاميذ الأخباث،

يستقبلون معلمهم متحفظين، ويهتمون أول ما يهتمون باكتشاف شخصيته، فإن وجدوه طيب القلب، كريم الشمائل، أراحوا أنفسهم في معاناته، وإن وجدوه حازم الإرادة، صعب المراس كان كل همهم إرضاءه، والإسراع إلى طاعته، كذلك كان أهل الكوفة مع ولاتهم وحكامهم. أما عمار فيعرفونه، وقد نجح في امتحانهم من قبل، ولكن الحسن جديد عليهم، إنهم يعلمون أنه ابن إمامهم وسبط نبيهم، وسيد شباب أهل الجنة، ولكنهم يستقبلونه متحفظين، ويرسلون إليه عيونا وآذانا ناقدة، فيأخذهم الحسن بروعة جماله، ويأخذهم بوقار سمعته، ويأخذهم بسحر بيانه، ويظهر لهم تفوق هذا الحديث الشاب في أول موقف وقفه على جمهورهم، خافوا عليه العي والحصر قبل أن يتكلم، فلما انطلق وهدر وتفجر قالوا: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

فلما جلس الحسن نهض عمار – وكان أحاط بأخبار الكوفة في القادسية من طريقه – وأقبل على الجمهور محتبيا بحمائل سيفه، يستعرض مبادئ الإسلام، ويعرض للقيم النضالية فيها، ويشرح في ضوء هذا كله خصائص علي ومواقفه وميزاته، ثم ينتهي إلى مشكلتهم الحاضرة التي تمتحنهم بأحد محذورين: مخالفة الدين، أو حرمة أم المؤمنين، وحل لهم هذه المشكلة حلا فقهيا صريحا، محكما في الحل تقديم الأهم وهو حفظ الدين، على المهم وهو احترام أم المؤمنين، ولم يكن عنده لطلحة والزبير كبير خطر، فهما وإن كانا

صحابيين إلا أنهما ناكثان خارجان على سلامة الدين وأمن الدولة، فقتالهما وقتلهما لا يحتاج إلى فتيا ولا دليل، ثم دعا الجمهور إلى لقاء علي، إن لم يكن لنصره فلجداله وتبين الحق في مناظرته، فإن كان معه نصروه، وإن كان عليه خذلوه.

وإنك لتلاحظ في خطبة عمار وضوح الطابع الديمقراطي المعتمد في إثبات الحق على الحرية، وقوة الإقناع قبل الاحتكام إلى السيف، والحق أن هذه إنما هي روح علي في تلميذه وطريقته في معارضته وحكمه جميعا، فقد كان يعطي للمعارضة من الحرية أوسع ما تعطيها الحكومات في أحدث المجتمعات الديمقراطية اليوم وهذا ما عيب عليه، وعد ضعفا في سياسته، وهو في الواقع قمة القوة في هذه السياسة.

وكان أبو موسى يعرف لعلي هذا الرأي السمح، لذلك امتنع على رسله إليه، ولذلك استمر في امتناعه، وها هو ينهض بعد عمار فيقبل على الجمهور بما عنده من رأي وحجة، فيوجه الناس نحو القعود وينصح لهم بالسكينة، واجدا من (الأخوة الإسلامية) و (حرمة الدماء) و (تجنب الفتنة) أدلة على وجوب وضع السلاح، ومضى قوي العارضة، مستقيم المنطق، متسق البيان ينهاهم عن نصرة علي ويأمرهم باحترام أم المؤمنين، ويرشدهم إلى الاعتزال حتى يكون مثير الفتنة حطبا لنارها، ولم يفته أن يبني كلامه على القرآن والأحاديث والقواعد الإسلامية العامة المسلمة، وكان من أعظم الأحاديث

حسا في كلامه هذا الحديث: سمعت رسول الله يذكر الفتنة فيقول: أنت فيها نائما خير منك قاعدا، وأنت فيها جالسا خير منك قائما وأنت فيها قائما خير منك ساعيا.

وقبل أن يجلس نهض إليه عمار يضع له أسس الفقه، وينتزع منه زمام الجماهير في وقت واحد.

قال له: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك؟

قال أبو موسى: نعم هذه يدي بما قالت.

قال عمار: إن كنت صادقا فإنما عناك بذلك وحدك. واتخذ عليك الحجة، فالزم بيتك، ولا تشهدن الفتنة، أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله - أمر عليا بقتال (الناكثين) وسمى لي من سمى وأمره بقتال (القاسطين) وإن شئت لأقيمن لك شهودا يشهدون أن رسول الله إنما نهاك وحدك، ثم أتم موقفه بحزم حازم فقال: أعطني يدك هذه التي رهنتها بالكذب، فمد إليه أبو موسى يده، فجذبه عن المنبر، ودفع به إلى حلقات الجماهير، ثم توجه إلى الناس فقال:

إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، وما صدق فيما قال، فما رضي الله من عباده ما ينهاكم عنه أبو موسى، قال الله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

وأقسطوا) وقال: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فأي شئ من هذا يلائم نصح أبي موسى المغشوش! إن الله لا يرضى منكم إلا الخروج، والبحث عن الفئة الباغية، ومجاهدة هذه الفئة حتى ترجع إلى الحق توحيدا للكلمة، وصدا عن الفتنة.

أيها الناس: سلوا أبا موسى عن هذه الفتنة من صاحبها؟ ألم يبايع علي بيعة عامة لزمت كل المسلمين؟ ألم يبايعه طلحة والزبير هذان اللذان نكثا وحملا أمهما ليخدعا بها الناس عن الحق؟ هل أحدث علي حتى يستحق الخلع، أو يمتحن بالعصيان؟

سلوا أبا موسى تتبينوا غشه ومدامجته وتدليسه، وانفروا رحمكم الله لإحقاق الحق، ونصرة إمامكم بأمر الله.

يا أهل الكوفة: إن كانت أنباؤنا غائبة عنكم، فقد انتهت إليكم أمورنا، إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله إلى الناس ولا ينكرون ذلك - على أني لم أشارك وما ساءني أن قتل - وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين مجادليهم في قتله، وفي كتاب الله حياة الحي، وموت الميت، فليدخل المجادلون في الطاعة ثم يرجعوا إلى القضاء، أما طلحة والزبير فقد نكثا بيعة إمامهما من غير حدث كما علمتم، وهذا ابن بنت رسول الله الحسن من قد عرفتم، وقد جاء يستنفركم، وخلفه علي أمير المؤمنين في جمع من المهاجرين والأنصار والبدريين فانصروا الله ينصركم.

ولم يسكت عمار حتى قبض على ناصية الموقف، وسيطر على عقول الناس وعواطفهم، غير أن أبا موسى لم ييأس، فعاد يكلم الناس ويحاول الرد على عمار، فقاطعه زيد بن صوحان قائلا: يا عبد الله بن قيس – وهو اسم أبي موسى – أتطمع أن ترد أمواج الفرات؟ دع عنك ما لست تدركه، وغضب لأبي موسى شبث بن ربعي، وبعض بني تميم، فتكلم قيس بن سعد، وشريح القاضي، وعلت الصيحة من هنا وهناك تؤيد عمارا، ويؤيد أضعفها وأقلها أبا موسى، فاضطر أبو موسى إلى الانسحاب إلى قصر الإمارة حيث نصب له فيه منبر انطلق منه يتابع دعوته إلى احترام عائشة، والتخلي عن نصرة علي، وكانت كثرة الناس في المسجد تلتف حول الحسن وعمار وأصحابهما، وقيل لهما: إن أبا موسى قائم على منبره في القصر فانتقلا بمن معهما إليه، عمار يفند منطقه، ويقيل رأيه، والحسن يأمره بالنزول عن المنبر ومغادرة القصر.

وبينا هم على هذه الحال إذا بضجيج يعلو، وجماهير تتدفق وأصوات ترتفع: هذا الأشتر... لقد جاء الأشتر. ويبتدر غلمان القصر إلى أبي موسى يؤكدون له قدوم الأشتر، قال الذي رآه: إمتقع وجه المسكين، وأفلجت شفتاه، وانحلت عزيمته، فزحف عن المنبر زحفا مقلوبا، وعاد من ذوات الأربع!.

وكان علي أرسل الأشتر لحسم النزاع، وكانت تصله أخبار الكوفة منظمة، فلما أطل الأشتر ابتدر الأشعري وهو يتدحرج

عن المنبر قائلا: ألا تبح من النهيق أيها الحمار؟ ما بقاؤك في هذا القصر بعد أمر أمير المؤمنين؟ (أخرج لا أم لك).
ويطلب إليه المسكين تأجيله ليلة في الكوفة يستجمع فيها أمره ثم ينصرف، فيؤجله شرط أن لا يبات في القصر، وتحاول الغوغاء الاستفادة من عزله فتغير على متاعه، ولكن الأشتر يمنعهم ويقول لهم: حسبكم طرده.
ويستقيم أمر الكوفة فتتجهز الكتائب وتتألف السرايا، تتابع هذه وتلك إلى منظم صفوفها البكر، وعلم رشدها الرفاف.
ويكون عمار أحد ألوية يوم الجمل المحبوبة الموهوبة، جعله علي أميرا على خيله كلها فنظمها بفن علوي، واندفع بها بنخوة إيمان بدري يكتسح بها من أمامه اكتساحا صاعقا رهيبا، فما رؤي شاب له خفة هذا الشيخ ونشاطه، وربما تصدعت بعض جبهات الجيش العلوي، ولكن جبهة عمار كانت أمنع من عقاب الجو، وكانت تمد الثغرات الضعيفة في بنائها العسكري بقوة تثبت الأقدام، ثم تدفعها إلى الكرة سليمة ظافرة.
ولم يكن يمسك جيش أم المؤمنين غير العصبية، والدفاع عن امرأة مستجيرة، وكان في جيش علي أكثر من حقيقة تهزم جيش الجمل، وتضعضع معنوياته، وكان عمار إحدى هذه الحقائق الثابتة، أليس هو الشهيد الذي تقتله الفئة الباغية.
ومن عجب أن المعركة الطاحنة تدور، وعلي في مقره

يخفق برأسه النعاس، وجناحا جيشه يهيضهما الكر، وينتف ريشهما العدو وينبهه (حية) بن جهين إلى الخطر، والعجب يملأ نفسه من قائد ينام في صميم المعركة، فيتثاءب علي، ويشهد الله على براءته من هذه الفتنة ومن فتنة عثمان جميعا، ثم يشد فيبسط ما اجتمع من جناحي جيشه، وينبت ما عري من ريشهما ويعود فيطلب ماء، فيمنع عنه الماء احتياطا لصحته، ويقدم إليه عسل، فيحسو منه حسوة، ويقول لصاحب العسل: إن عسلك لطائفي يا ابن أخي!

ويعجب الرجل لحس أمير المؤمنين الحاضر، لا تؤخره الحرب الطاحنة عن تمييز عسل (الطائف) من غيره، فيقول له: (لا تعجب – يا ابن أخي – والله ما ملأ صدر عمك شئ قط، ولا هابه شئ).

ثم يندفع وتكون الدبرة على جيش الجمل، يخر هذا الحيوان العجيب تحت ثقله، وتهوي رايته إلى جنبه، ويتفرق الأحياء من أنصاره إلا نفر أسروا منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان، وكان أول متقدم إلى الجمل الصريع علي، يتلوه عمار، وبعد عمار مالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر وغيرهم من الفرسان، ومنادي أمير المؤمنين يعلن بأمره انتهاء المعركة، فلا يلاحق فار، ولا يجهز على جريح، ولا يهتك خدر، ولا يكفأ قدر.

ولم تكن هذه أوامر خليفة وحسب، بل كانت أحكاما فقهية،

ووجهات نظر صائبة هي جزء من منهج علي في المحافظة على سلامة المعارضة في الدولة، وحفظ مصلحة الإسلام العليا بسماحة لا تضيق على الناس ولا تحرجهم.

ولكن هذه النظرة الواقعية الحكيمة التاث أمرها على الناس، والتبس في أفهامهم، وأحدث من إباحة دماء أصحاب الجمل وحرمة أموالهم ونسائهم مشكلة فقهية لم يدروا ما حلها، ويسمع عمار لغطا يدور على الألسنة في هذا الموضوع، أما هو فيعرف الحل في أغلب الظن، وقد سمعنا آنفا من فقهه في حديثه مع محمد بن مسلمة الأنصاري ما لا يترك مجالا للشك في اتهام معرفته، ولكنه أراد أن يكون علي هو الذي يحل هذه المشكلة فقال له: يا أمير المؤمنين، مر بقتل هؤلاء الأسرى من أعوان الجمل. فقال له أمير المؤمنين: أنا لا أقتل أهل القبلة، وعمار يعرف الفرق - كما علمت - بين (المسلم) الهاضم لمبادئ الإسلام، وبين المصلي القلقة في صلاته هذه المبادئ، وربما لم يكن حتى تلك اللحظة ممن يعطفون على المصلين القلقين، إلا أنه اكتفى لنفسه بما سمع في فقه لا شك بصوابه، واكتفى لغيره بإعلان الحل من مصدره الذي يجب أن ينتهي إليه، ولكن قوما حظهم من المعرفة أقل من حظ عمار لم يكتفوا بالفتيا، فشرح علي لهم حكمتها ولكن عسر عليهم هضمها، ولم تسهل عليهم متابعة تحليله في الجواب، فلجأ إلى مجاراتهم ليجعل من الواقع المحسوس وسيلة جواب مقنع. قال لهم: اقترعوا. هاتوا

سهامكم، فلما تهيأوا لاقتسام الغنائم، قال: هذه أمكم عائشة أسيرة سبية فمن منكم يأخذها في سهمه؟ قالوا: نستغفر الله!.
قال علي: وأنا أستغفر الله. وفهموا.
* * *

صريع الفئة الباغية

بعد اطمئنان البصرة وعودة الحياة فيها إلى مجراها الطبيعي في ظل عبد الله بن عباس واليها الجديد، لم يبق في أقطار المملكة الإسلامية الواسعة من شغب، إلا في الشام، على أن شغبها في ذاته خطر ليس بذي بال، فصاحبها كان معاوية، وإذا كان لطلحة والزبير وأمهما: أم المؤمنين من القيم الإسلامية التي تبيح المغامرة بمناوئة علي فليس معاوية في نظر العالم الإسلامي يومذاك إلا (الطليق) ابن الطليق، وليس هو غير ابن رجل قاد (الأحزاب) وظاهر اليهود على محو الإسلام لذلك كان شغب دمشق، أو شغب معاوية فيها أمرا ضعيف الخطر لو خلي ونفسه، ولكنه كان كبير الخطر. بالغ الأهمية لظروفه التاريخية، عوامله الزمنية، هذه الظروف والعوامل التي كانت هي، لا معاوية، تنازل عليا في واقع الأمر وحقيقته، وليس لهذا المعروف من دهاء معاوية، و (مكيافليليته) ضلع في نصره ولا يد.

كانت حججه التي خرج بها على علي سفسطائية واهية منهارة في نفسه، قبل أن تنهار تحت ضربة الحق. اتهم عليا

بدم عثمان وليس في العالم واحد يمالؤه على هذه التهمة، ثم لا يتردد الذين، يبرؤون عليا باتهام معاوية نفسه، فقد خذله وهو قادر على إنقاذه ونصب نفسه وليا لدم عثمان وأبناء عثمان أقرب إلى أبيهم منه، فإن كان وكيلا فقد أخطأ طريق المطالبة المشروع، فالقضاء هو مرجع مشكلة من هذا النوع، لا التمرد والعصيان. وادعى أنه غير ملزم بالطاعة كطلحة والزبير لأنهما بايعا ولم يبايع هو، وليس أسمج من هذا الجهل إلا ادعاءه، لأنه يشاء أن يجعل من الشذوذ قاعدة حاكمة على الأعم الأغلب، ويجعل لانفراده قدسية تحكم على إجماع المسلمين بالفساد. وادعى أن الرأي لأهل الشام لا لأهل الحجاز، وما أدري كيف يكون التحكم إذا لم يكن هذا تحكما؟

حججه ومبرراته كلها كانت طحلبا. هو يعلم أنها أضعف من الطحلب وأوهن، ولم يكن يتمسك بها إلا لأنه يعلم أن مكانه من النفوس أشد ضعفا من هذه المبررات وأعظم وهنا، ولكنه مصمم على المغامرة تصميما لم يرتجله من يومه ذاك، وإنما هو تصميم عميق تخطى مراحله البعيدة بدقة وإحكام، وقد سبقت الإشارة إلى هذه المراحل في فصول هذا الكتاب، ولعلك لم تنس أبا سفيان مطرودا عن باب علي في محنة (السقيفة).

تلك المراحل كانت بعض العوامل التاريخية التي أعانت العصبية الأموية على الاشتراكية الهاشمية، ثم كان لأحداث التاريخ التي كشفت عن وجهها في عهد الخليفة الثالث أكبر

الأثر في توجيه الزمن ضد علي، ولم يكن علي يجهل شيئا من هذا كله، ولم يكن غيره أعلم منه بأن تغذية المطالع، والعودة إلى إحياء العصبيات، واشتراء الضمائر وسائل النصر المحقق في مثل هذه الردة التي اقتضتها روح الزمن في تلك الفترة، ولكنه رجل كان (لا يتخذ المضلين عضدا) كما قال حين أشار عليه المغيرة بإقرار معاوية على الشام، وحين طلب معاوية منه إمارة دمشق والقاهرة ثمنا لبيعته، فرفض الإشارة ورد الطلب ملتزما منهجه، غير غافل عما لم يفطن إليه ساسة عصره وساسة العصور المتأخرة عنه من خب ء في هذا الحل يظهر المساومة، ويبطن الغدر، على أن هذا الحذر – وهو ملحوظ – لم يكن الأساس في رفض استعمال معاوية، ولا القاعدة في عزله، فإنما كان إقصاء معاوية قائما على قاعدة إقصاء أبيه من قبل، وهي قاعدة مبدئية عبر عنها القرآن: (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وكان لا يشك بأنها قاعدة بعيدة عن روح عصره، وأنها تجر عليه أعنف المكاره، وأصعب الشدائد، إلا أنه تطوع لحمايتها، وتحمل في سبيلها منازلة الزمن نفسه، لأنه أراد أن يكون (عليا) وما أراد أن يكون (معاوية)، ولأنه كان يحارب من أجل هذه القاعدة لا من أجل الملك، ولأنه لم يطلب النصر المؤقت، بل طلب النصر الدائم. وليس أدل على هذا كله من قوله لأصحابه حين تخاذلوا: (إني أعرف ما أحملكم به على الطاعة ولكن لا أصلح دنياكم بفساد ديني). فهو إذن يحارب الفساد المنتشر

في نفوس الناس، ويحاربه هذا الفساد المستشري في نفوس أصحابه كما يستشري في نفوس خصومه، ولا مكان لمعاوية في هذا الميدان لولا تطوعه للفساد، أما ما يدعى له من الدهاء ومضاعفات كفاءته فخصال معارة أضفاها عليه الواقع الذي لا بد منه، ولا أريد أن أحرم معاوية من مؤهلاته الانتهازية، ولكني أريد أن أخرجه من إطار العبقرية الذي صوره خداع النظر، وأريد أن أرجع فوزه إلى مصادره الصحيحة من ثبات علي على مبادئه الحق، ومن تقديم الناس مطامعهم على هذه المبادئ بنزعة فردية محدودة النظر، ومن التمهيد التاريخي لتفريق الناس عن هذه المبادئ، ومن اندفاعة الزمن بناسه نحو الفساد الذي زين لهم أن الحياة لمن غلب، وأن الغلب إنما هو باكتناز المال، واحتكار الفرصة، وبسط النفوذ، وبلوغ المطمع، ولو أن عليا اصطنع شيئا من المداهنة لأبطل مفاعيل العوامل التالية لهذا العامل الرئيس - أعني المداهنة - وهزم معاوية بأسهل مما هزم به الناكثين.

شغب معاوية في ذاته لم يكن كبير الخطر في مقاييس الوعي الإسلامي الصحيح، ولكن خطره الشديد جاء مما حف به من ظروف وعوامل كان أخطرها على الاطلاق استقامة علي بالذات.

وعلي الآن في الكوفة يستهون أمر معاوية كما يستهونه كل مفكر ذي وزن في هذا العصر، ولكنه يحسب حساب الأقدار التي مهدت لمعاوية من الأحداث، وهيأت له من الظروف ما

قوى مركزه، وأطمعه بإمكان تحقيق الخرافة من ترشيح نفسه للخلافة وهو على ذلك رابط الجأش، متوازن الخطى، مطمئن النفس، لا يهوله ما يقرأه في مقدمات المعركة من نتائج فاسدة، ولا يتعاظمه ما يراه من هبوب الزمن في وجهه هبوبا منكرا فظيعا، بل يقبل على أمره بأناته وإمهاله خصمه حتى يتبين العذر واضحا في قتاله، وحتى تكون تبعة القتال الناشب في عنق (القاسطين) الظالمين، كما كانت في عنق (الناكثين) الطامعين، وكما ستكون من بعد في عنق (المارقين) الخارجين.

واستشار أصحابه بعد كتب ترددت بينه وبين معاوية، فأشاروا عليه بالانتظار عامه ذاك في الكوفة، إلا عمارا والأشتر وعدي بن حاتم الطائي الكريم المشهور، وشريح بن هانئ.

قال عمار: (يا أمير المؤمنين. إنما بايعناك ولا نرى أحدا يقاتلك فقاتلك من بايعك، وأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله عز وجل: (ومن بغي عليه لينصرنه الله) وقوله: (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) وقد كانت الكوفة لنا والبصرة علينا. فأصبحنا على ما نحب بين ماض مأجور وراجع معذور، وإن بالشام الداء العضال رجلا لا يسلمها أبدا إلا مقتولا مغلوبا، فعاجله قبل أن يعاجلك، وانبذ إليه قبل الحرب).

وتكلم الأشتر ومن على هذا الرأي بمثل ما تكلم عمار، ثم بلغ عليا أن معاوية جهز جيشه للقتال فتجهز بتسعين ومئة ألف

محارب، مقبلا بهذا الجيش الضخم على (صفين) وعمار قائد (الخيالة).

وتدور بين الفريقين مناوشات تبدأ على الماء الذي سبق إليه معاوية ومنعه عن علي وأصحابه، ويضرب فيها (الأشتر) للنصر مثلا يدعو معاوية ووزيره إلى التفكير الطويل قبل مناجزة هذه النخبة من بدريين وأنصار ومهاجرين ومن فرسان مضر وربيعة، وزعماء اليمن والعراق. فيدير معاوية ووزيره حربا فكرية تعتمد على الحوار والخطابة والرسائل، ولم يكن أصحاب علي في هذا الميدان أقل تفوقا على خصومهم من تفوقهم في ميدان السيف، فإذا كان هناك معاوية وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، فهنا عبد الله بن العباس - ودع - عليا - وعمار بن ياسر ومالك الأشتر والأشعث بن قيس - على نفاقه - والأحنف بن قيس (حليم العرب وسيد تميم) وعثمان بن حنيف وصعصعة بن صوحان وعدي بن حاتم، ومئات من المهاجرين والأنصار، والبدريين كلهم ذكاء ومعرفة وألسنة وتجربة لا تدانيها ملكات خصومهم في هذه الخصال، ولكن معاوية ووزيره كانا طامعين بالاستفادة من الوقت، وعندهما تجربة من سيرة علي في حرب البصرة ادخراها للساعة العصيبة، وعزما على أن يقدما عليها خطة المطاولة، عسى أن يصيبا بعض زعماء الجبهة العراقية ببعض الوهن، وإن الاشتباكات أثناء ذلك تظهر النقص في جبهة دمشق، وتدور عليها في براز الأفراد، وبراز الجماعات كليهما.

وسمع عمار عمرا بن العاص يخطب أهل الشام، بعد أن رآه يرسل بعض منافقي أهل العراق كالأشعث، فنهض ليجعل حدا لهذا الحرب الفكرية، ووقف في خيله لا ترعد صوته الشيخوخة، بل تجهره وتجلوه العزيمة يقول: (انهضوا معي عباد الله إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدم ظالم إنما قتله الصالحون المنكرون العدوان، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين قالوا: لم قتلتموه؟ فقلنا لأحداثه. فقالوا إنه لم يحدث شيئا، وذلك لأنه مكنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون ولو انهدمت الجبال، والله ما أظنهم يطلبون بدم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها واستمرأوها، وعلموا أن صاحب الحق لو وليهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون منها، إن القوم لم يكن لهم سابقة في الإسلام، يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوما، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكا، تلك مكيدة ألفوا بها ما ترون، ولولاها ما بايعهم من الناس رجل. (اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب).

فلما انتهى من تحليله الواقعي للموقف كله، أمر هاشم المرقال وهو صاحب رايته بالزحف قائلا له: تقدم أيها الأعور! تقدم فداك أبي وأمي، وانقض على أهل الشام فأزعج صفوفهم، فلما دنا من عمرو بن العاص في قلب معسكره قال

له: يا عمرو!. بعت دينك بمصر؟ تبا لك. ولطالما بغيت للإسلام شرا، ثم خاطب الله على مسمع من أهل الشام فقال: (اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا النهر لفعلت، اللهم أنت تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت، اللهم إني أعلم مما علمتني أني لا أعمل عملا صالحا هذا اليوم هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته).

قال المحدث: فانخزى عمرو وتوارى، وتضعضعت صفوف الشام من وقع كلامه، أشد من تضعضعها من وقع سيفه، فهي تعلم علما جازما أن عمارا إنما تقتله الفئة الباغية، وما خفي على معاوية خطر عمار، فقد خشي – كما قال – أن تفني العرب (خفة هذا العبد)!

قال المحدث: ومضى عمار يبطش، ويحث (الأعور) على التقدم فيتقدم الأعور كالعاصفة، والجيش الأموي ينهار انهيارا مطردا، ويتفقد عمار عبد الله بن عمرو بن العاص هذا الناسك الذي تردد أولا بنصرة معاوية ثم أفتى لنفسه أنه لا ينصر معاوية ولكن يطيع أباه. ناداه عمار من غمار المعركة فقال: يا عبد الله بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام معاوية؟! وطلبت هوى أبيك الفاسق؟ فأجابه عبد الله: لا ولكن أطلب بدم عثمان، قال عمار: كلا، أشهد – على علمي فيك – أنك أصبحت لا تطلب بشئ من فعلك وجه الله. إنك إن لم تقتل

اليوم، فستموت غدا، فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك؟) وغاص في أوساط القوم.

قال المحدث: وكانت حملة عمار هذه بداية لمعركة طاحنة دارت رحاها فلم تدر رحى حرب بأشد مما دارت عليه هذه من نكر وعنف وشدة، استمرت ثلاثة أيام، وثلاث ليال، وكانت ثالثتها (ليلة الهرير).

رجع عمار بكتيبته مرة أصيل يوم فاستراح، وظن الناس أنهم مستريحون ليلتهم تلك من معاناة السيوف، ولكن عمارا يسمع أحاديثهم النفسية هذه، فيثور لسيفه، ويكز صاحب رايته (المرقال) ويصيح في الجند: (من رائح إلى الجنة؟ الجنة تحت ظلال الأسنة! اليوم ألقى الأحبة، اليوم ألقى محمدا وحزبه) ويندفع، ويندفع خلفه الناس، وإن الشمس لتأوي إلى خدرها، ولا يضئ الأفق غير بارقة السيف، وشرارة الضرب.

واستراح مرة أخرى، وكانت الشمس تنشر شعاعها الصافي متعاكسا على نهر دم تنشز فيه الأشلاء نشوز الصخور في الضحل من الأنهار، ولم يكد يهدأ حتى بصر عمرا بن العاص يحمل راية معاوية، فتذكر أمرا، ونهض لسيفه، ولكز صاحب رايته وقال: والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أننا على الحق، وأنهم على الباطل، تلك راية قاتلتها بين يدي رسول الله ثلاث مرات وهذه الرابعة.

ثم اندفع وإنه ليقول لهاشم بن عتبة المرقال: تقدم أيها الأعور، تقدم فداك أبي وأمي.

وظل كذلك لا يهدأ ولا يستقر، يجهد نفسه، ويجهد جيشه، وينصب على عدوه انصباب موت صاعق مفن مشبوه، حتى كان يوم هذه المعركة الثالث، وكان قمة الأيام في الاستبسال والإقدام والكر، وعمار يومئذ صائم، وعمره أربع وتسعون سنة، وهو منصب على عدوه انصباب مستميت، يقدم أمامه هاشما بالراية، وهاشم يستمهله ويستأنيه ويطلب إليه أن يكل إليه أمر الزحف، ولكنه يهيب به: تقدم أيها الأعور، فداك أبي وأمي، ويتقدم، فتجفل خيل الشام، ويتردد ذو الكلاع الحميري وهو عمدة الجيش الشامي، فلا يقتحم صفا يندفع به عمار، ويبلغ أمره معاوية، فيسقط في يده، ويأتيه هو ووزيره فيخدعانه، ويقسمان له أن الذي حفظه في عمار لحق، ولكن عمارا سينتهي إليهما أمره، وما عليه إلا أن يخوض هذه المعركة، ويرى إذا انحصر غبارها، عمارا في صفه،
فإذا لم يجده كذلك كان للتردد في الحرب خلال الأيام المقبلة مجال واسع. ومضى النهار الثالث كله، وعمار في الميدان أثبت ما تكون الفرسان الأشداء موقفا، فلما مالت الشمس إلى المغيب، ودخلت (ليلة الهرير) طلب ماء ليفطر، فجئ إليه بإناء فيه لبن، فابتسم قبل أن يشربه ابتسامة أشرقت فيها نفسه وقال: قال لي حبيبي رسول الله: " آخر زادك من الدنيا ضيح من لبن " ثم شرب اللبن وكر بكتيبته مقبلا على جنة يراها، ويرى فيها إلى النبي يستقبله بما كان يستقبله به في هذه الدنيا.

وكان معاوية في أكبر الظن أغلى الثمن لرأسه، كي يتخلص من حجته الناهضة في المعسكرين جميعا، كما أوصى برأس ذي الكلاع خيرا! فلو عاش ذو الكلاع بعد عمار لاتبعه أمره، وحيره إقناعه، وخلف ذي الكلاع أشد عصبة وأكثرها عددا، ومهما يكن من أمر فقد دلف عمار غير متحفظ، فلما استقر في الساحة نادى: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من السكاسك، فقتله عمار، وبرز إليه فارس من حمير فقتله عمار، وجعل يقتل كل من يبرز إليه، وكان أبو الغادية الجهني يتعقبه من أيام عثمان، وها هو الآن يلبد له، فتحين له فرصة انشغاله بالبراز، وينحسر الدرع عن ركبة عمار فيطعنه أبو الغادية ويطبق عليه معه فارسان آخران فيجهزان عليه، وإنها لصدفة من صدف الحظ الأموي السعيد أن يقتل ذو الكلاع لحظة مصرع عمار!.

قال المحدث: وكان لمصرع عمار صدى حزن بالغ في المعسكرين جميعا، وكان من أثره أن شلت حركة الدفاع في معسكر معاوية. وارتفعت الحماسة في معسكر علي، فقد كان في المعسكرين جميعا نفر ينظرون إلى قتل عمار مترددين قبل مصيره، فلما قتل تبين لهم الحق، فاستخذوا هناك، واستضروا هنا حتى هزم أهل الشام، واضطر معاوية وعمرو إلى خداع معسكرهم بالتأويل، واتقاء عدوهم بالأحابيل، ولولا القدر الغالب لسار التاريخ في غير اتجاهه الذي خطه الأشعث بن قيس بنفاقه وانشقاقه.

قال المحدث: لما قتل أبو الغادية عمارا تصايح الناس من

المعسكرين ويلك قتلت أبا اليقظان قتلك الله، وقال له
محمد بن المنتشر: يا أبا الغادية خصمك يوم القيامة خصم
ضخم، ولم يزد أبو الغادية على أن ضحك وانصرف.
وحدث هي مولى عمر بن الخطاب عن نفسه فقال: كنت
أول الأمر مع معاوية، وكان أصحابه يقولون: لا والله لا نقتل
عمارا أبدا، إن قتلناه فنحن كما يقولون: فلما كان يوم صفين
نظرت في القتلى فإذا عمار بن ياسر مقتول، فجئت إلى
عمرو بن العاص، وهو على سريره، فقلت: عمار بن ياسر ما
سمعت فيه؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: " تقتله الفئة
الباغية ". فقلت: هو ذا والله مقتول. فقال: هذا باطل.
فقلت: بصرت عيني به مقتولا، فقال: فانطلق فأرنيه، فذهبت به
فأوقفته عليه، فساعة رآه امتقع لونه، ثم أعرض في شق،
وقال: قتله الذي خرج به!
وشهد خزيمة بن ثابت يوم الجمل ويوم صفين وهو لا يسل
فيهما سيفا، فلما قتل عمار قال: الآن بانت لي الضلالة وقاتل
أهل الشام حتى قتل.
وأقبل الفارسان اللذان أعانا أبا الغادية على قتل عمار
يختصمان في رأسه كل يدعيه، ويطلب من معاوية ثمنه، فقال
عمرو بن العاص: إن تختصمان إلا في النار، لقد سمعت
رسول الله يقول: قاتل عمار وسالبه في النار ". ويصرفهما
معاوية ويقبل على عمرو يلومه، يقول له: ما هذا المجون

الخطر، إنهما يقاتلان دوننا، وتقول لهما أنتما في النار؟ فيقول عمرو: والله هو ذاك، والله إنك لتعلمه، ولوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة.

وقال عبد الله بن عمرو بعد ذلك لأبيه، وهما منصرفان مع معاوية من صفين: يا أبت إني سمعت رسول الله يقول لعمار: " تقتلك الفئة الباغية " ويلتفت عمرو إلى معاوية في خبث فيقول له: ألا تسمع ما يقول هذا الغلام؟ فيقول معاوية: ما تزال تأتينا بهنة تدحض بها في بولك! أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاؤوا به، ويستضحك الداهيتان!

وقال عمرو بن العاص يوما لجلسائه: إني لأرجو أن يكون رسول الله مات يوم مات وهو لا يكره رجلا فيدخله الله النار. فقالوا له: قد كنا نراه يحبك، وكان يستعملك، قال: الله أعلم، أحبني أم تألفني، ولكنا كنا نراه يحب رجلا قالوا: فمن ذلك الرجل؟. قال: عمار بن ياسر. قالوا: ذلك قتيلكم في صفين!. قال: قد والله قتلناه.

وتفرق أهل الشام بعد قتل عمار عن ألويتهم، يأبون أن يكونوا هم الفئة الباغية، واختلطوا بأهل العراق، وراق لعمرو أن يمتحن ذهن ملكه في هذه المشكلة، فأكد لأهل الشام قوة ذاكرتهم فيما حفظوا بشأن عمار، واستقامة أفهامهم لما حفظوا، فأعرض معاوية عن وزيره، وأقبل على جيشه يقول لهم: ذاكرتكم لا شئ أوعى منها، ولكن حديث الفئة الباغية

معنا لا علينا. قفوا إلى قول النبي: " الباغية " إنها عنتنا دون ريب، ولسنا الفئة الباغية التي تبغي دم عثمان، وتتأثر للشهيد المظلوم؟ وينصرف القوم مرتاحي الضمائر!. ويغلب عمرو بن العاص ضحكا وهو يتلقى شتائم معاوية.

قال المحدث: وكان لقتل عمار في معسكر العراق صدى يصوره فيحسن تصويره موقف أمير المؤمنين حتى يغني عن غيره. بلغه قتل عمار فبكى. ثم قال لمن حوله: كم تريدون أن يعيش عمار!. وكأنه يقول كما تريدون أن يعيش الإسلام.

ثم ذهب حتى وقف عليه فأبنه بهذه الكلمة الضخمة: (إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر، ولم تدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد، رحم الله عمار يوم أسلم، ورحم الله عمارا يوم قتل، ورحم الله عمارا يوم يبعث حيا، لقد رأيت عمارا وما يذكر من أصحاب رسول الله أربعة إلا كان رابعا، ولا خمسة إلا كان خامسا، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عمارا قد وجبت له الجنة في موطن، ولا اثنين، فهنيئا لعمار بالجنة. وقال ابن سعد: لقد قيل: إن عمارا مع الحق والحق معه، يدور عمار مع الحق أينما دار، وقاتل عمار في النار).

ثم أمر علي أن يصف عمار وهاشم والمرقال، فصفا وصلى عليهما دون أن يغسلهما، ودفنا بصفين في صفر سنة سبع وثلاثين ه.

قال المحدث: ولم يكن الواعون وفي طليعتهم عمار نفسه يعجبون لشئ عجبهم للزوم الحجة بعمار ما لا تلزم بعلي مع بعد الفرق بينهما في ميزان الحق نفسه، وفي منطق المأثور من شهادات النبي الأدل على دورة الحق في دائرة علي، وكان لمعاوية ووزيره جهد أتعبهما في التخلص من دمغة عمار بذلاه في استدراجه مرة، وبذلاه في فل حجته مرة، ولم يفلحا في كل المرات، وفي إحدى المحاولات أرسلا ذا الكلاع الحميري - وكان إيمانه بعمار خطرا عليهما - إلى ابن عمه أبي نوح الحميري - وهو من شيعة علي - كي يستدرجه ويستدرج من ورائه عمارا، وقد أدير الحديث بين الرجلين على حجية عمار فكان عجب أبي نوح طويلا من إيمان القوم بعمار وكفرهم بعلي، وكانت حجته عليهم بالغة، ثم يفضي اجتماع الرجلين إلى الاجتماع بابن العاص، ويتراجع الجميع إلى عمار، ويقبل عمار إذ يدعى ليعجب من سخفهم إذ رأوه دليلا على الحق ولم يروا عليا كذلك، ثم يصول عليهم بقوله صولة سهامها أنفذ من السهام (١) - وقد عالج هذه المشكلة العلامة المعتزلي ابن أبي الحديد في المجلد الثاني ص ٥٣٩ فقال - بعد ترجمة عمار وابن التيهان وخزيمة بن ثابت من الشهداء الحجج على باطل معاوية -: (ومن غريب ما وقعت عليه من العصبية القبيحة أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب البصائر: إن خزيمة بن ثابت المقتول

---

(١) راجع شرح النهج ص ٢٧١ ح ٢.

مع علي عليه السلام بصفين ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، بل هو آخر من الأنصار، صحابي اسمه خزيمة بن ثابت وهذا خطأ، لأن كتب الحديث والأنساب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين وإنما الهوى داء لا دواء له، على أن الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول، ومن كتابه نقل أبو حيان، والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه.

ثم أي حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثروا بخزيمة وأبي الهشيم وعمار وغيرهم؟ لو أنصف الناس هذا الرجل يعني عليا - ورأوه بالعين الصحيحة لعلموا أنه لو كان وحده، وحاربه الناس كلهم أجمعون لكان على الحق، وكانوا على الباطل).

* * *

خاتمة
قال المحدث: هذا قصص من واقع التاريخ الإسلامي، لم أكن أول من قصه، ولن أكون آخر من يقصونه، ولا ينبغي أن يصرفني أو يصرفك عن القول أن كثير من القائلين سبقوا إليه، فالحق إنما يثبت ويرسخ ويستمر بالتكرار والمعاودة والتأكيد.
على أن العبرة في خوض موضوع والابتكار فيه إنما هي بتفسيره، وتنسيقه وتبسيطه، لا بقلة خائضيه، والقائلين فيه، ولعلك لا تجد موضوعا بكرا بهذا المعنى، ولكنك تجد الأبكار فيما اختلفت عليه الأفكار، ثم تجد طاقة الابتكار أعظم وأقوى في الذهن الذي يستطيع الخروج بمحصول جديد، من موضوع قديم تعبت الأنامل من بحثه وتقليبه.
ليس شئ أحوج من التاريخ إلى التجديد والنقل والترجمة إلى لغة العصر، فالتاريخ ما يزال مسيطرا بين عوامل التأخر التي تصدنا عن التقدم، وتردنا إلى الوراء، ذلك لأننا ما زلنا نفهمه فهما رجعيا تعدينا أدواؤه، وتسيرنا عصبياته، وليس لسيطرته هذه من مبرر إلا بعده وغموضه وخضوعه للتوجيه السياسي التجاري، فلو حررناه من كل هذا لعاد عامل تقدم

بمقدار ما هو عامل تأخر الآن.
التاريخ إنما هو مجموعة من التجارب الحياتية، فيها الناجح المصيب، وفيها الفاشل المخطئ، وفيها الناجح المخطئ، كما فيها الفاشل المصيب، فإذا أخذناها على أنها كذلك استرحنا وأفدنا وفتحنا منها أبوابا مطلات على مستقبل متطور صاعد مزدهر. أما إذا تلقيناها كما هي عيوبا وحسنات، وجمدنا عيها كالثلوج ملزمين أنفسنا بما لزم أصحابها منها، كتبنا على أنفسنا العبودية لأخطاء آثمة، والرجوع القهقرى مئات السنين، وهو ما نفعله حتى الآن.
وفي هذا القصص محاولة لتبسيط أهم أحداث الإسلام في صدره الأول، وأعظمها أثرا في التيارات التي امتدت من يوم صفين حتى اليوم وفي هذه المحاولة إخلاص هو أبعد ما يكون عن العصبيات المألوفة، رمى بعرضه سطور هذا الكتاب إلى غرض نبيل، خدمة التاريخ وتيسيره للمساهمة بحركة التطور الحرة الحاضرة، وفق الأساس الذي قدمته، فإن أصاب الهدف فذلك ما رجوته، وإن أخطأ فهبني من عذرك ما أنت به جدير